وزارة الثقافة
الهيئة العامة لقصور الثقافة
الهيئة العامة لقصور الثقافة
إصدارات خاصة
المثقفون الذين أعادوا بناء آسيا
د. السيد أمين شلبي
إصدارات خاصة

المثقفون الذين أعادوا بناء آسيا
وفصول أخرى

د. السيد أمين شلبى



سلسلة
إصدارات خاصة
تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

• المثقفون الذين أعادوا بناء آسيا
• د. السيد أمين شلبى
• الطبعة الأولى:
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2014م
• تصميم الغلاف:
أحمد الجنايني
• المراجعة اللغوية:
فاطمة عبدالله
• رقم الإيداع: ٢٢٨٥٩/ ٢٠١٤
• الترقيم الدولى: 978-977-718-988-0
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: 16 أ شارع أمين سامى - القصر العينى
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 7947891 (داخلى: 180)

• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

143

تعنى بنشر الأعمال الفكرية والثقافية
والأعمال الخاصة لأبرز الكتاب فى مصر والعالم

الآراء الواردة فى هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة بل تعبر عن رأى وتوجه المؤلف فى المقام الأول.

المثقفون الذين أعادوا بناء آسيا

وفصول أخرى

المحتوى

تقديم

كما ينبئ عنوان هذا الكتاب الرئيسي: "المثقفون الذين أعادوا بناء آسيا" فإنه يتحدث عن آسيا التي أصبحت اليوم بما حققت دولها الرئيسية الصين، الهند، كوريا الجنوبية، من نمو غير مسبوق، فضلاً عن اليابان بطبيعة الحال، ونقلت القارة إلى مركز الجاذبية في العالم والنظام الدولي، غير أن ما جذب، وتأكيداً، سوف يجـذب القارئ، هو دور المثقفين والمفكرين الآسيويين في صناعة هذا التقدم والبناء، ومـا يزيد من أهمية هذا الكتاب أن كاتبه ليس من الباحثين الغربيين الذين اهتموا دائمـاً بآسيا، وزاد اهتمامهم بصعودها، وإنما هو باحث آسيوي – هندي، فهو بذلك يعرِّف عن قرب ومعايشة دور المثقفين في الصعود الآسيوي.

أما بقية الكتاب فهو سياحة في العديد من القضايا الثقافية والسياسية الدولية، وكان من الطبيعي أن تتصدرها الثورات العربية وأصداؤها، كما بدت في العديـد من الكتابات العربية والأجنبية، وعلى المستوى الدولي، وبالنظر إلى المكانة التـي أصبحت للصين في منطقتها والعالم، يناقش عدداً من القضايا المتـصلة بالـصين

ومستقبلها، فيناقش كيف تحولت الصين إلى هذه المكانة، وكيف يراها مفكر ورجل دولة آسيوي هو لي كوان يو، كما يناقش التحديات التي تواجه القيادة الصينية الجديدة، كما يناقش سؤالاً يشغل المؤسسات الدبلوماسية والمراكز البحثية حول اتجاه النظام الدولي وهل سيصبح كما ساد من نهاية الحرب الباردة أحادى القطبية أم متعدد الأقطاب؟

وحول القضايا الثقافية ينقل الكتاب حياة الروائي الأرجنتيني ألبرتو مانجويل بين كتبه ومكتبته، وتجربة المثقفين والكتاب العرب الذين اضطرتهم الظروف إلى الاغتراب عن بلدانهم، ويتابع تساؤل المؤرخ برنارد لويس وإجاباته عن: لماذا ندرس التاريخ؟، ويقدم ثلاث رؤى "للتنوير"، وثقافيا كذلك يثير الكتاب ويناقش سؤالا جوهرياً عما إذا كان العالم ما زال يعجب بالقيم والثقافة الأمريكية.

وهكذا يقدم هذا الكتاب سياحة فكرية حول العديد من القضايا، الثقافية والدولية كما قدمها أبرز المفكرين والباحثين في العالم العربي والدولي.. نأمل أن يساهم هذا الكتاب في رفع الوعي الثقافي وخاصة بين الشباب الذين نتصور أنهم يشكلون الاهتمام الأكبر لهيئة الثقافة الجماهيرية فضلاً عن القطاعات العريضة من المجتمع.

د. السيد أمين شلبي

أبريل ٢٠١٣

المثقفون الذين أعادوا بناء آسيا

بانكاش ميشارا Pankaj Mishra كاتب هندي (١٩٦٩) يعيش ما بين الهند ولندن، وهو مؤلف "نهاية المعاناة" ٢٠٠٤، "وإغراءات الغرب" ٢٠٠٦، كما كتب الرواية The Ramainccs، كما أنه كاتب منتظم في "النيويورك ريفيو أوف بوكس، والنيويورك تايمز، والجرديان" وصحف أخرى.

ويقول الكاتب إن فكرة هذا الكتاب الذي نعرض له (٢٠١٣):

From the Ruine of Emhire: the Intellectuaf nho remade Asca.

وقد جاءته عام ٢٠٠٥ حين كان يقرأ كتاب William Pfaff Eduard Steilman "سياسات الهيستريا".

The Polities of histevia المكتوب عام ١٩٦٢ حين عملت الولايات المتحدة بشكل شاق لتصدير أيديولوجيات "العالم الحر" وهزيمة الشيوعية، وقد أثار المؤلفان التاريخ المعذب للإمبريالية الغربية في آسيا، محذرين من أن الإعادة الجذرية لحياة وتاريخ آسيا وتحدى فهم الآسيويين أنفسهم للحياة نفسها، والذي أجراه الغرب لمدة

قرن من التوغل، قد تم تجاهله أو ببساطة لم يفهم من جانب صناع السياسة الغربيين والمراقبين. مثل هذا الجهل ساد أيضا بين الآسيويين أنفسهم وخاصة من هؤلاء الذين نشئوا على تاريخ بناء الأمة.

وفي هذا السياق يقول أنه لم يعرف شيئاً عما حدث في بلدان آسيا الأخرى حول الكتاب، وأشعارهم والناشطين الذين عبروا عن نفس الأفكار والآمال، وهو يذكر أن كتابه هو نتاج قراءات مكثفة حيث تنقل من كتاب إلى آخر مذهولاً بمعرفته المتزايدة حول قلة ما يعرفه، وشغفه بأن يقلل جهله من خلال المزيد من القراءة، ومن بينهما كتابان استثنائيان: كتاب "سياسة معاداة الغرب" رؤى النظام العالمي في فكر الوحدة الإسلامية والوحدة الآسيوية، المؤلفة Cemi Aydim وكتاب The Wilsonion moment : Self determination andz Internoional origins of anticolonial nationalism ونقطة انطلاق ميشارا في رصده لليقظة الآسيوية، ودور المثقفين الآسيويين فيها، هي حين بدأ العالم المعاصر يأخذ تحوله الحاسم عبر يومين في مايو ١٩٠٥ في المياه الضيقة لمضيق تسوشيما Tsuhima، والذي هو برأيه واحد من أكثر طرق الملاحة ازدحاماً، وحين أباد أسطول ياباني صغير يقوده الأدميرال Togo Heihachiro معظم الأسطول الروسي الذي أبحر نصف الطريق حول العالم لكي يصل إلى الشرق الأقصى.

وقد وصف قيصر روسيا المعركة البحرية باعتبارها أهم معركة بحرية منذ معركة ترافلجار Traflgar قبل ذلك بقرن، كما وصفها الرئيس ثيودور روزفلت باعتبار أنها "أعظم ظاهرة شهدها العالم".

وعملياً كانت معركة تسوشيما قد أنهت حربا كانت تدور منذ فبراير عام ١٩٠٤، والتي حوربت لكي تقرر ما إذا كانت روسيا أو اليابان سوف تسيطر على

كوريا ومنشوريا، وللمرة الأولى منذ العصور الوسطى، فإن بلدا غير أوروبي قد هزم قوة أوربية في حرب كبيرة، وشاعت الأنباء حول العالم الذي جمعته معا الإمبرياليتان الغربيتان واختراع التلغراف. وتنبأ محامٍ في جنوب أفريقيا يسمى موهداس غاندي (١٨٦٩-١٩٤٨) أنه حتى الآن وبشكل واسع فإن جذور الانتصار الياباني قد انتشرت وبشكل نستطيع الآن أن نتصور الثمار التي سوف تحققها.

وفي دمشق، كان مصطفي كمال وهو شاب عثماني، والذي عرف فيما بعد بأتاتورك (١٨٨١-١٩٣٨)، منتشيا، وحيث كان يائسا من إصلاح الإمبراطورية العثمانية ضد التهديدات الغربية، أخذ كمال، مثل العديد من الأتراك، اليابان كنموذج، وقد تأكد تصوره، ومع قراءة الصحف في مدينته، فإن جواهر لال نهرو ذا الستة عشر عاما، (١٨٨٩-١٩٤٦)، والذي أصبح بعد ذلك رئيس وزراء الهند، قد تابع بشغف حرب اليابان مع روسيا في مراحلها الأولى، وتعصب حول دوره في "حرية الهند، والحرية الآسيوية، من استعباد أوروبا". وقد وصلته أخبار معركة تسوشيما وهو مسافر بالقطار من دوفر إلى مدرسته البريطانية هارو، وهو ما جعله هناك في حالة مزاجية عالية، كذلك كان الوطني الصيني صن يات صن (١٨٦٦-١٩٢٥) في لندن حين سمع الأنباء وكان منتشيا بشكل مشابه، وفي عودته بالباخرة إلى الصين، وفي نهاية ١٩٠٥، تلقى التهاني من العمال العرب في قناة السويس الذين ظنوا أنه ياباني.

وقد ملأت التنبؤات المثيرة حول معاني النجاح الياباني الصحف التركية، والمصرية، والفيتنامية والفارسية والصينية، وسمى الأطفال حديثو الولادة في القرى الهندية على أسماء الأدميرالات اليابانيين، وفي الولايات المتحدة فإن الزعيم الأمريكي الأفريقي W.E.S. Dubols تحدث عن الانبعاث العالمي "للكرامة الملونة".

كذلك فإن مشاعر مشابهة تملكت الشاعر المسلم (وبعد ذلك الحائز على جائزة نوبل)، رابندرات طاغور، (١٨٦١-١٩٤١)، وحين وصلته الأنباء من تسوشيما قاد طلابه في مسيرة مرتجلة حول مجمع مدرسة صغيرة في البنغال.

وقد لا تعنى الكثير لأي طبقة أو جنس ينتمون، فقد استوعبت شعوب العالم الخاضعة المعاني العميقة الأخلاقية، السيكولوجية، لانتصار اليابان، وقد كان هذا التنوع مذهلاً، فقد كان نهرو ينتمي لأسرة موسرة، وكان صن يات صن ابن فلاح فقير، وعبد الرشيد إبراهيم (١٨٥٧-١٩٤٤) أبرز المثقفين في زمنه الداعين للوحدة الإسلامية، الذي سافر إلى اليابان عام ١٩٠٩ لإقامة صلات مع السياسيين والناشطين اليابانيين، كان قد ولد في غرب سيبريا.

وكان مصطفي كمال من سالونيكا (التي تتبع الآن اليونان) قد ولد من آباء ذوى أصول يابانية ومقدونية، أما زميلته الروائية التركية هاليد اورديب (١٨٨٤-١٩٤٦) التي أسمت ابنتها المولودة حديثاً على اسم الأدميرال الياباني توجو، كانت ناشطة نسائية علمانية، وكان الوطني Icomu ottama (١٨٧٩-١٩٣٩) والذي ألهمه نصر اليابان لكي يسافر إلى طوكيو عام ١٩٠٧، كان راهبا بوذيا، كذلك كان العديد من الوطنيين العرب، والأتراك والفارسيين والفيتناميين، والأندونيسيين الذين احتفلوا بهزيمة روسيا، ذوى خلفيات متنوعة، وكلهم جميعاً كانوا يشتركون في خبرة واحدة: أنهم كانوا يخضعون لشعوب الغرب الذين اعتبروهم لفترة طويلة محدثي نعمة إن لم يكونوا برابرة، كما استخلص جميعهم نفس الدرس من الانتصار الياباني: أن الرجال البيض، غزاة العالم، لم يعودوا غير قابلين لأن يهزموا، وازدهرت مئات الخيالات عن الحرية العمومية، وكرامة الجنس، والشوق البسيط للانتقام، ازدهرت في القلوب والعقول التي تحملت على مضض السلطة الأوربية على أراضيهم، ومع تعرضهم للتعذيب من الشعوب الغربية في القرن التاسع عشر،

ومتعظين من معاملة هذه القوى الفظة للصين، فإن اليابان قد وضعت لنفسها هدفاً طموحاً للتحديث الداخلي منذ عام ١٨٦٨، بأن تستبدل النظام شبه الإقطاعي بملكية دستورية ودولة موحدة، وخلق اقتصاد على غرار الاقتصاد الغربي قائم على الإنتاج العالمي والاستهلاك، وفي كتاب كان الأفضل مبيعاً، أصدر To-kutpmi (١٨٦٣-١٩٥٧)، أبرز الصحفيين اليابانيين، كان عنوانه: "يابان المستقبل" والذي أوضح فيه الآثار المحتملة للامبالاة اليابان بالاتجاهات "العالمية" التي وضعها الغرب: "هؤلاء ذوى العيون الزرقاء، واللحوم الحمراء، سوف يغزون بلدنا مثل موجة عملاقة، ويدفعون شعبنا إلى الجزر في البحر".

ويواصل الكاتب تأثير الانتصار الياباني على الشعوب الآسيوية فيذكر أنه مع الثمانينات من القرن التاسع عشر أثار نمو اليابان الصناعي والعسكري الرؤى الغربية والأمريكية عن "الخطر الأصفر"، والصور المخيفة عن القبائل الآسيوية التي سوف تسود الغرب الأبيض، وقد أثبتت هزيمة روسيا أن برنامج اليابان باللحاق بالغرب حقق نجاحاً مذهلاً، وأعلن Soho "إننا نبدد الأسطورة عن دونية الأجناس غير البيضاء.. وبقوتنا فإننا نجبر قبولنا كعضو في صفوف قوى العالم الكبرى".

وبالنسبة للعديد من الشعوب غير البيضاء، فإن الإهانة التي تعرضت لها روسيا يبدو أنها نفت تفوق الغرب العنصري، ويسخر من الافتراض الأوروبي عن "تمدين" ما هو مفترض عن "تخلف" بلدان آسيا، وكما أعلن Benoy Kumar Serkar عالم الاجتماع البارز (١٨٨٧-١٩٤٩) فإن منطق "غباء الرجل الأبيض" قد أصبح أمراً من أمور الماضي حتى بالنسبة لأعمى المتعصبين، فقد أثبتت اليابان أن الدول الآسيوية تستطيع أن تجد طريقها الخاص للمدنية الحديثة، وقوتها الخاصة، أما الناشط التركي الشاب، والذي أصبح بعد ذلك وزيراً، أحمد رضا

(١٨٥٩-١٩٣٠)، فقد لخص هذا الإعجاب: "إن أحداث الشرق الأقصى قدمت الشهادة عن عدم جدوى التدخلات، وعن القول المفسد عن إصلاح أوربا لشعب ما، على العكس، فإن الانعزال الأكثر والصلة المتحفظة مع الغزاة، كان أفضل لتطوره نحو التجديد الرشيد".

وفي نضاله مع العنصرية المؤسسية في جنوب أفريقيا التي يحكمها البيض، استخلص غاندي درسا أخلاقيا مشابها من انتصار اليابان: "عندما يعتقد كل فرد في اليابان، غنيا أم فقيراً، في احترام النفس، تصبح البلد حرا، أنها تستطيع أن تقدم صفعة على الوجه لروسيا، وبنفس الطريقة، فأننا أيضاً نحتاج أن نشعر بروح احترام النفس"، وقد استعاد الفيلسوف الصيني Yan Fue (١٨٥٤-١٩٢١) قرناً من الإهانات التي نزلت على الصين بواسطة "البرابرة" الغربيين، من حروب الأفيون التي حرقت القصر الصيفي في بكين، واستخلص "أن السبب، الوحيد، أننا لم نلتهم لحمهم ونمنا على جلدوهم، لأن قوتنا لم تكن كافية".

وقد أظهرت اليابان كيف يمكن الحصول على هذه القوة، بالنسبة للعديد من الآسيويين الذين تعرضوا للتعذيب من الحكام المستبدين ورجال الأعمال الأوربيين النهابين، كان دستور اليابان هو سر قوتها ضد المسلحين بمساعد الناشطين السياسيين عبر آسيا في تغذية سلسلة من التطورات الدستورية ضد الأوتوقراطيين، وقد اتبع السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٤٢-١٩١٨) التحديث الياباني، ولكن العديد من المعجبين باليابان في العالم الإسلامي كانوا علمانيين، بل حتى معادين للدين وموهوبين مثل الكاتب التركي الشاب والمنفي عبد الله سيف، الذي كتب عن اليابان "كحالة السيف" تجاه المستبدين والغزاة وحاملي الشعلة للمستبعدين، وبتشجيع من الانتصار الياباني أجبر الأتراك الشبان Young Turks السلطان عبد الحميد على إعادة دستور كان قد أوقف منذ عام ١٨٧٦. أما الفرس، فقد شجعهم منظر

اليابان الدستورية وهي تهز روسيا الأوتوقراطية، فأقاموا جمعية وطنية عام ١٩٠٦، وفي نفس العام شهدت مصر أول مظاهرات شعبية ضد الاحتلال الإنجليزي، وبالنسبة للوطنيين المسلمين في مصر كانت اليابان "الشمس الصاعدة"، وهو عنوان كتاب كتبه قبل الحرب اليابانية الروسية الزعيم الوطني المصري مصطفي كامل (١٨٧٤-١٩٠٨)، وتوجه الطلاب من البلدان الإسلامية في كل مكان إلى طوكيو لتعلم أسرار تقدمها، وسرى التأثير الياباني حتى الأرخبيل الإندونيسي الذي كانت هولندا قد وحدته، حين أسست الطبقة العليا من جافا أول حزب وطني عام ١٩١١.

كذلك تدفق آلاف الصينيين على اليابان بعد عام ١٩٠٥، حيث كانت أكبر حركة جماهيرية طلابية في الخارج، ومن هذه المجموعة برز الجيل الأول من القادة، وفي عام ١٩١٠ تذكر صيني في المدرسة، هو ماوتس تونج (١٨٩٣-١٩٧٦) وهو في مدينته الصغيرة في ولاية هونان، أغنية علمها له مدرس الموسيقى الذي كان طالباً سابقاً في اليابان.

العصفور يغنى، والعندليب يرقص
والحقول الخضراء جميلة في الربيع
والرمان يكتب لونه القرمزي
وهناك صورة جديدة

وحين استعاد ماوتسي تونج هذه الكلمات بعد عدة حقب، حين هددت اليابان الصين، قال: "في هذا الوقت، علمت وشعرت بجمال اليابان وشعرت في هذه الأغنية، بانتصارها على روسيا، بشيء من كبريائها وقوتها".

وفي أماكن أخرى كذلك، دعم انتصار اليابان المشاعر الوطنية بل دفعها نحو التطرف، وكان من بعد هذه الخسائر القومية الليبرالية والتي دعت إليها النخبة

الوطنية التي تأثرت بالغرب، وكان المزاج في البنغال، والذي خطط الحاكم البريطاني لتقسيمه، أصبح بالفعل ضد البريطانيين بشكل متطرف، وشهدت الاضطرابات والجماعات الإرهابية على تشدد الشعور المعادى للاستعمار منذ عام ١٩٠٥، والذي عبر عنه بشكل خفيف المؤتمر الهندي الوطني، وبدأ المتطرفون في كلكتا وداكا يتبنون إيفاد طلاب في رحلات إلى طوكيو، وأقام المعادون للاستعمار في أوربا وأمريكا صلات مع الثوريين الروس والزعماء اليابانيين والصينيين من أجل تهريب السلاح إلى البنغال، كذلك بدأ الباحثون في الهند الصينية أيضاً يتبنون أفكاراً عن العنف الثوري، وعلم الفيتنامي الوطني الرائد Phan Boi chae (١٨٦٧-١٩٤٠)، والذي أقام في اليابان منذ عام ١٩٠٥ إلى عام ١٩٠٩، العديد من الطلاب من الهند الصينية الفرنسية تحت راية جمعية "تطلع إلى الشرق"، كذلك أثرت الأفكار الدارونية عن الحرب العنصرية، والنضال من أجل البقاء، في الخطاب السياسي في يلان البوذية، وكذا في الصين الكونفوشية ومصر الإسلامية، وفي القاهرة كتب رشيد رضا (١٨٦٥-١٩٣٥)، والذي ألهم عمله بعد ذلك الإخوان المسلمين في مصر، بشكل مثير عن إمكانية تحويل اليابان إلى الإسلام، وتحويل "الخطر الأصفر" في التصور الأوروبي إلى حركة وحدة آسيوية من أجل التحرر من غير المؤمنين، أما ما لم تستطع معركة توشيما أن تعكسه بشكل سريع فهو تفوق الأسلحة الأوربية والتجارة التي سيطرت على آسيا وأفريقيا لمعظم القرن التاسع عشر.

وفي عام ١٩٢٤م استعاد صين يات صن الحقبة الأخيرة من القرن التاسع عشر، حين ظنت الأجناس الملونة في آسيا، والتي تعانى من قهر الشعوب الأوربية، أن التحرر غير ممكن، وكتب:

"إن الناس اعتقدوا أن الحضارة الأوربية كانت متقدمة في العلوم، والصناعة، والإنتاج، والتسلح، وأن آسيا ليس لديها ما يقارن بها، ونتيجة لذلك افترضوا أن آسيا لا يمكن أن تقارن بأوربا، وأن القهر الأوروبي لا يمكن أن يزول، تلك كانت الأفكار التي سادت ثلاثين عاما مضت".

وقال صن يات صن إن هزيمة اليابان لروسيا عام ١٩٠٥ قد بثت في الشعوب الآسيوية "أملا جديداً" للتخلص من مذلة الاستعمار الأوروبي وسيطرته واستعادة موقعهم الشرعي في آسيا، وبعد أقل من حقبتين أضاف صن يات صن أن حركات الاستقلال في مصر وتركيا وفارس والهند وأفغانستان والصين قد نمت بشكل قوى، وكما تنبأ غاندي عام ١٩٠٥م "أن شعوب الشرق قد استيقظت أخيراً من حال النعاس" ومن أوجها في بداية القرن العشرين فإن يد أوربا على آسيا قد ضعفت، ومع عام ١٩٥٠م، وحيث أصبحت كل من الهند والصين دولتين ذات سيادة، انحسر الوجود الأوروبي إلى أطراف آسيا، وإن كانت الولايات المتحدة فقط هي التي ظلت، وأصبحت تعتمد على القواعد العسكرية والضغوط الاقتصادية والانقلابات السياسية، وسوف يجد الأوربيون ثم الأمريكيون أنهم قد أساءوا تقدير قدرة الآسيويين على استيعاب الأفكار الحديثة والتكنولوجية والمؤسسات والتي كانت تمثل "أسرار" القوة الغربية ثم تحولها ضد الغرب نفسه، كما فشلوا في أن يلاحظوا الرغبة الجادة للمساواة والكرامة بين الشعوب التي اعتبرها مفكرو الغرب، من هيجل وماركس إلى جون ستيوارث، غير قادرة على حكم نفسها، وللمفارقة أثبت هؤلاء المفكرون أنفسهم أنهم كانوا أكثر تأثيراً بين هذه "الشعوب الخاضعة".

واليومَ تبدو الشعوب الآسيوية من تركيا إلى الصين حيوية جداً ومتأكدة من ذاتها، ولم يكن هذا ما بدا لهؤلاء الذين أدانوا الإمبراطوريات العثمانية، باعتبارها

"مريضة" و"ميتة" في القرن التاسع عشر، وقد لا يتحقق التحول الشائع للقوة الاقتصادية من الغرب إلى الشرق، ولكن رؤى جديدة كانت قد اتضحت بالتأكيد في تاريخ العالم.

وبالنسبة لمعظم الشعوب في أوربا وأمريكا فإن تاريخ القرن العشرين ما زال يحدد بشكل كبير بالحربين العالميتين الأولى والثانية، وبالمواجهة النووية مع الشيوعية السوفيتية، ولكن ما هو واضح الآن أن الحدث المركزي للقرن الماضي، بالنسبة لأغلبية سكان العالم، هو اليقظة الثقافية والسياسية لآسيا، وبروزها من حطام الإمبراطوريات الآسيوية والأوربية.

وأن تعترف بذلك هو أن تفهم أن الألم ليس فقط كما هو قائم اليوم، ولكن كيف أنه مستمر في إعادة صنعه ليس على غرار الصور الأوربية بقدر ما هو وفق الآمال وتطلعات الشعوب الخاضعة السابقة.

فمن هم المفكرون الرئيسيون في هذه العملية الطويلة لإعادة صنع آسيا؟ وكيف تنبئوا بالعالم الذي تعيش فيه الأجيال القادمة؟ وعلى هذا فإن كتاب ميشارا ينشد تقديم نظرة واسعة حول كيف استجاب بعض أكثر المثقفين الآسيويين، وأكثرهم حساسية، لتوغل الغرب في آسيا- ماديا وثقافيا – في مجتمعاتهم، وهو يصف كيف تفهم هؤلاء الآسيويون تاريخهم وواقعهم الاجتماعي، وكيف استجابوا إلى توالى الأحداث والمحركات غير العادية مثل التمرد الهندي، الحروب الأفغانية، والتحديث التركي، والقومية التركية والعربية، والحرب اليابانية الروسية، والعسكرية اليابانية، وقومية ما بعد الاستعمار، وصعود الأصولية الإسلامية، والتي تصيغ بصورة حاسمة شكل آسيا.

ومن أبرز هؤلاء المفكرين الذين يعرض لهم الكتاب جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨-١٨٩٧)، وهو المسلم الذي ابتدع تاريخاً طويلاً في الصحافة اللاذعة

والتحريض السياسي في الشرق الأوسط وجنوب آسيا، في النصف الأخير من القرن ١٩، ولانج كيشاو Liang Qichao (١٨٣٧-١٩٢٩) ربما أول مثقف حداثي صيني، والذي شارك في العديد من الأحداث التي أدت إلى تدمير الثوابت الإمبريالية القديمة لبلده، وصعوده التالي. ويقف هؤلاء الأسيويون الأوائل في بداية العملية التي حولت الاستياء ضد الغرب، والسيطرة الغربية، مع القلق حول الضعف الداخلي والتحلل إلى قومية جماهيرية، وحركات تحرر وطموحات لبرامج بناء الدولة عبر آسيا، كذلك يشير الكتاب إلى عدد آخر من المفكرين الآسيويين والقادة الذين ظهروا في هذا الوقت، مثل العامل الفيتنامي هوشيمينه Ho Chiminh وهو يلتمس من الرئيس ويلسون في باريس عام ١٩١٩ إنهاء الاستعمار الفرنسي في الهند الصينية، وآخرين مثل صن يات صن، والشاعر الهندي رابندرات طاغور، والمفكر الإيراني على شريعاتي والأيدلوجي المصري سيد قطب، كذلك لعبت شخصيات رئيسية مثل غاندي أدوارًا مؤيدة في هذه الدراما، ووصفه للحضارة الغربية باعتبارها "شيطانية"، والذي سبقه فيها آخرون أكثر نفوذا في العالم الإسلامي والصين.

ويتعمد ميشارا رصد المثقفين والمفكرين الآسيويين المعروفين بشكل أقل، وكان يقصد بهذا أن يرى التيارات السياسية والثقافية الرئيسية التي سبقت وعاشت بعد الشخصيات المعرفة بشكل أكثر، والتي احتكرت وحدثت من إحساسنا بالهند والصين والعالم الإسلامي، وقد ورث ليانج كيشاوا إيمانه ببناء قوة الدولة إلى ماوتس تونج وخلفائه من القادة في الصين الشيوعية، كما مهد لاعتقاد الأفغاني العميق بأن يقوى العالم الإسلامي نفسه، الطريق إلى أتاتورك وجمال عبد الناصر وكذلك آية الله خوميني وما زال يحرك السياسة في المجتمعات الإسلامية.

وخلال حياة هؤلاء المفكرين الطويلة والمليئة بالأحداث بدت ثلاثة تيارات رئيسية: التيار الأول: الاعتقاد بأنه إذا كانت الشعوب الآسيوية مخلصة حقا لتقاليدها الدينية، والمفترض أنها أسمى من كل الحضارات الأخرى، فإنهم سوف يكونون أقوياء مرة أخرى، أما التيار الثاني: فهو الفكرة المعتدلة بأن أساليب غريبة قليلة مطلوبة من الآسيويين الذين تقدم تقاليدهم أساساً سليماً للتضامن المجتمعي، أما التيار الثالث: فهو التصميم القوى الذي تبناه العلمانيون المتطرفون مثل ماو وأتاتورك أن كل طرق الحياة القديمة يجب أن تتعرض للثورة، من أجل التنافس مع الظروف الشبيهة بالغابة للعالم الحديث.

ويستخلص ميتشارا أن الرجال الأول لآسيا الحديثة قد سافروا وكتبوا بشكل غزير، وقيموا بلا كلل مجتمعاتهم والمجتمعات الأخرى، وأمضوا التفكير في فساد القوة، وتحلل المجتمع وفقدان الشرعية السياسية وإغواءات الغرب.

بعد عدة سنوات من رفض جمال الدين الأفغاني ادعاءات بريطانيا عن تمدين الهند، كان طاغور يجادل مع اليابانيين حول رذائل القومية، وكان Liang Dieho يتأمل حول فساد الديمقراطية الأمريكية والرأسمالية، وبعدة طرق كانت بصيرة المفكرين الآسيويين، حول وضعهم والوضع الإنساني الأوسع في هذا الوقت، ما زالت تحول الفضاء الثقافي والسياسي العالمي وتشكل الوعي الضروري والجماعي.

وكانت مجموعة صغيرة من المفكرين في كل بلد آسيوي، الذين كان تعليمهم وخبرتهم معرضا لوجهة نظر أوسع عن مجتمعاتهم والعالم، وكانت فئة قليلة بفضل تعليمها وخبرتها حساسين بشكل خاص للتغير، ورغم أنهم منعزلون عن جماهير مواطنيهم ، فقد كانوا رغم هذا الأوائل لشرح مآزقهم العميقة وحاجاتهم وآمالهم.

وقد احتاج هؤلاء إلى الكثير من الجهد والعمل الجسدي لكي يتفهموا أنفسهم وبيئتهم، ومع هذا فإن المعرفة التي توصلوا إليها كانت مليئة بالألم ولم تقدم أملاً.

وكانوا دائما ما يعبرون عن أفكارهم ويناقضون أنفسهم، وباعتبار أنهم كانوا من بعد الأوائل فقد واجهوا بهدف سيزيف في أن يتحملوا العالم الجديد وإعادة توجيه عقولهم إلى مشكلات جديدة للهوية الفردية والجماعية.

وكانوا على وعى بانتمائهم إلى حضارات والتي لم تكن لفترة طويلة عظيمة ومكتفية بنفسها ولكنها الآن تنمو بشكل واهن ضد الغرب القوى الناجح، وهكذا فإن محاولاتهم المتعددة للتكيف مع وضع تاريخي جديد ومؤلم إلى حد كبير قادهم إلى عدم تماسك واضح، فشخصية مثل Liang Diehao مثلا دافع عن التقاليد الصينية ثم رفضها في كليتها ثم تبناها مرة أخرى، أما الأفغاني فقد مر بمراحل مريرة من محاكمة الإسلام ثم دافع عنه بحرارة، وكان سيد قطب علمانياً وقومياً متحمساً قبل التحول إلى إسلام لا مساومة فيه.. وحتى أكثر المثقفين الآسيويين والناشطين محافظة مثل غاندي Kang Youwel ومحمد عبده، قد أجبروا لكي يفسروا بشكل راديكالي تقاليدهم الخاصة: الهندية، والكونفوشية، والإسلامية.

وباعتبار أنهم كانوا شخصيات بلا قوة، فقد تراوحوا بين الأمل واليأس، ومن الالتزام القوى والإحساس بعدم الجدوى، ومع هذا فما زالت وحدة قوية يجب أن تلاحظ في تصوراتهم ، وهذا بسبب أنهم تقليديون وثائرون راديكاليون على العادات الموروثة، فإن هؤلاء المفكرين والناشطين كانوا يناضلون لكي يصيغوا إجابة وافية لنفس السؤال: كيف يصالحون أنفسهم والآخرين مع تضاؤل حضاراتهم من خلال التحليل الداخلي والتغريب في الوقت الذي يستفيدون فيه من المساواة والكرامة في أعين الحكام البيض والعالم ؟

وكان هذا هو التحدي الأساسي للجيل الأول للمثقفين الأسيويين الحداثيين، كما أن العديد من الأيدلوجيات التي تبنتها القوى الآسيوية القومية العربية، والوحدة الإسلامية، والشيوعية الثورية، واشتراكية الدولة، قد تطورت كاستجابة لنفس التحدي العنيد للغرب، وهذا لم يربط فقط جمال الدين الأفغاني بالصين Liang Qichao ، ولكن أيضاً ربط الأفغاني بأسامة بن لادن، وربط لينانج ماوتس تونج والإمبراطورية العثمانية بتركيا اليوم، والصين قبل الشيوعية بالصين الرأسمالية اليوم.

وقد حكم العديد من هؤلاء المفكرين على نوع السياسة والاقتصاد الأوروبي باعتبار أن العنف وقوى التدمير تكمن فيه، وأدركوا أنه باستعارة مهارات تكنولوجية من خلال نظام حديث للتعليم من أوربا ليس كافياً، فهذه الاستعارات جلبت معها طريقا جديداً للحياة كلية، وقد طالبوا مجتمعا جماهيريا منظماً والذي يمثل وحدته الأساسية الفرد الذي يعتمد على الذات والذي يتبع التزاماته الاقتصادية والدينية والتضامن المجتمعي الأمر الذي كان يفي بتحطيم النظام الأخلاقي القديم، وقد شعر هؤلاء المفكرون أن المجتمع الصناعي الحديث، رغم أنه لا يقاوم وضروري في الأغلب، والحركات الاجتماعية التي كانت أوربا هي رائدتها سوف تحطم الكثير من ثقافاتهم وتقاليدهم التي يحترمونها فيما جعلت في أوربا نفسها وخلفت وراءها الفوضى، وفي العشرينات لخص zhang Junmi تلميذ Liang Qichao والذي استضاف تاجور في الصين المخاوف المشتركة تجاه المواجهة القادمة بين نموذجين متعارضين للحياة:

أن المبادئ الأساسية التي بنت عليها أمتنا هي الهدوء في مقابل النشاط الغربي، والراحة كنقيض للنضال من أجل المزايا المادية، والإحساس الأخلاقي بالإخوة أكثر من التمييز العنصري.. فالأمة التي قامت على الزراعة تفتقر لمعرفة

فنون الصناعة، ولكنها بلا مطالب مادية، وهكذا، رغم أنها تعيش عبر فترة طويلة من الزمن، إلا أنها مازالت تحتفظ بمستوى من استقرار، والمساواة، والقدرة والسلام، ولكن كيف سيكون بعد ذلك؟ وشخصيات مثل zhang خافوا من عملية التحديث أن يكون العالم على الأقل أثراً ضروريا، فهي سوف تمزق الاقتصاديات القديمة للزراعة والصناعات اليدوية والمقايضة والتجارة، ويبعدوا الشباب إلى فساد المراكز الحضرية، وفقدان الارتباطات المجتمعية التي تعطي معنى لحياتهم وتعريض أعصابهم التي لم تنضج بعد للسياسات المتطرفة، وكل هذا يعود إلى عملية التي لا تؤدى مباشرة حتى في الغرب نفسه، إلى وجهة واضحة من السعادة والاستقرار ، والتي رغم ما تنتجه من تعليم جماهيري، وسلع استهلاكية رخيصة، والصحافة الشعبية وأدوات التسلية، إلا أنها أثارت تطورا عميقاً من افتقاد الحدود والتشويش والشذوذ.

وخوفاً أو شكّاً في هذا المصير لمجتمعاتهم، فإن العديد من المثقفين الآسيويين أصبحوا أكثر انتقاداً للحداثة مستخدمين مفاهيمهم التقليدية لمعنى وهدف الحياة البشرية لمواجهة الافتراض أن الاقتصاد الليبرالي، والمصلحة الفردية والتصنيع سوف تكون العلاج لكل مشاكل الوضع البشرى.

وفي الاعتماد دائماً على التقاليد الفلسفية والروحية في الإسلام والهندوسية والكونفشيوسية فقد طوروا شكلا مهذباً لـ "العالم الجديد الشجاع" للعلم والعقل ومصممين على المظاهر غير العقلانية وغير التعصبية للوجود البشرى، ومع حساسيتهم لمعاداتهم للحداثة والتي علت لأنماط السياسة والانقسامات التقليدية، توقعوا أن مفكري أوربا والدين أجبروا على إعادة فحص عقيدة القرن ١٩ في ألم عقلاني متقدم نتيجة مذبحة الحرب العالمية الأولى.

واستمر ثراء أفكارهم وخيالهم أن يكون مصدرا لمجتمعاتهم التي تواجه أزمة الحداثة، ومع هذا فإنه يجب الاعتراف أن مجرى التاريخ قد تعدى العديد من أعز آمالهم ، والحقيقة أن المبادئ الأوربية عن القومية والوطنية المدنية والتي تبنتها معظم النخبة الوطنية من أجل هزيمة (أو على الأقل الاقتراب) من الغرب فيما بدا نضالا داروينياً من أجل المستقبل، وحتى البعض ذوى العقليات الروحية، والمعادية للسياسة وناقدين بمفهوم بناء الدولة الحديثة مثل غاندي لم يستطيعوا تفادى أن يصبحوا زعماء وطنيين بل إنه غازل فكرة الوحدة الإسلامية في مرحلة مبكرة من حياته، ولعدم صبرهم لإعادة توجيه الجماهير الصينية التقليدية نحو القومية، شعر المثقفون الصينيون أنهم مجبرون على انتقاد قرنين من التقاليد الكونفشيوسية وذهب الأتراك العثمانيون إلى أبعد لإزالة منصب الخليفة العثماني، والتخلي عن قيادتهم للأمة الإسلامية، ثم خلع الإسلام نفسه من أجل تحويل تركيا إلى دولة حديثة .

وبدت أفكار أوربية أخرى أساسية في سرقة بعض ثروة وقوة الغرب، وفي البداية ظهر أن الليبرالية الديمقراطية ، والبرلمان المنتخب والقضاء والصحافة المستقلة هامة بشأن العلم والتكنولوجيا في تعبئة الاقتصاد الحديث وفقا لخطوط عقلانية وغريبة، وكما اعترف واحدٌ من دعاة التحديث بعد الآخر في اليابان والصين والهند، فإن مقاومة الغرب تتطلب التلاؤم مع الأفكار الغربية في تنظيم الدولة والمجتمع وفي النهاية دعت إلى الإطاحة السريعة بالإمبراطوريات والأسر الميتة في الشرق.

غير أن فكرة أوربية بوجه خاص أثبتت للمسلمين وكذلك الشيوعيين المعادين للإمبريالية أنها لا تقاوم، وحيث تدعمت بالنجاح الأوروبي فقد تبنتها نخبة ما بعد الاستعمار في كل مكان في آسيا، هذه الفكرة التي قدمت وصفة ثورية من أجل الدعم الذاتي، والكبرياء، والتي تكونت من مؤسسات وممارسات الدولة الحديثة، والحدود الواضحة، والحكومة المنظمة، والبيروقراطية ذات الولاء،

وقواعد الحقوق لحماية المواطنين، والنمو الاقتصادي السريع من خلال الرأسمالية الصناعية الاشتراكية، وبرامج محو الأمية الجماهيرية والمعرفة التكنولوجية وتطوير الإحساس بالأصول المشتركة داخل المجتمع الوطني.

وبالوفاء، إما ببعض أو بأقل مستوى من هذه الشروط، فإن مجموعة من الدول ملأت الفراغ الكبير التي خلفّه تفكك الإمبراطوريات الأوربية.. وفي الفترة التي تلت نهاية الحرب الثانية، نالت العديد من البلدان الآسيوية استقلالها من الحكم الاستعماري، وفي حقبتين بعد ١٩٤٥ ظهر أكثر من ٥٠ دولة بأسماء وحدود وعملات جديدة.

ولم يكن مجرد تصفية الاستعمار في ذاته ضمانا لسيادة وكرامة حقيقية للأمم الآسيوية، وفي الخمسينيات فإن نهرو دائماً ما كان يؤكد المهمة العاجلة التي تواجه قادة ما بعد العهد الاستعماري مثله، وكان يقول : ما فعلته أوربا في مائة أو مائة وخمسين عاماً ، يجب أن نفعله في عشرة أو خمسة عشر عاماً وظل اللحاق بالقوة الاقتصادية والسياسة أمراً ضرورياً لجمال عبد الناصر ، والذي تطلع بشكل يائس للمساعدة الأجنبية لمشروع السد العالي في الخمسينيات ، ومثل ماوتس تونج والذي حث الصينيين لكي يسايروا الطاقة البريطانية الصناعية في خمسة عشر عاماً خلال "الخطوة الكبرى إلى الأمام"، والتي قادت بلده إلى مجاعة كارثية في أوائل الستينيات وتم تعبئة أيديولوجيات مثل الشيوعية والاشتراكية لتمكين تكوين الأمم الجديدة، وزعماء بأسماء رنانة مثل نهرو، ماو، هوشيمنه، ناصر، سوكارنو، لم يشرفوا فقط على هذا التحول السياسي وحددوا أهداف التقدم المادي.

ولم يكن مجرد تصفية الاستعمار في ذاتها ضمانا لسيادة وكرامة حقيقة للأمم الآسيوية، وفي الخمسينيات فإن نهرو دائماً ما كان يؤكد المهمة العاجلة التي تواجه قادة ما بعد العهد الاستعماري مثله، وكان يقول: ما فعلته أوربا في مائة أو

مائة وخمسين عاماً ، يجب أن نفعله في عشرة أو خمسة عشر عاماً وظل اللحاق بالقوة الاقتصادية والسياسية أمراً ضرورياً لجمال عبد الناصر، والذي تطلع بشكل يائس للمساعدة الأجنبية لمشروع السد العالي في الخمسينيات، ومثل ماوتس تونج والذي حث الصينيين لكي يسايروا طاقة بريطانيا الصناعية في خمسة عشر عاماً خلال " الخطوة الكبرى إلى الأمام" ، والتي قادت بلده إلى مجاعة كارثية في أوائل الستينيات وتم تعبئة أيديولوجيات مثل الشيوعية والاشتراكية لتمكين تكوين الأمم الجديدة- وزعماء بأسماء رنانة مثل نهرو، ماو، وهوشيمنه، ناصر، سوكارنو لم يشرفوا فقط على هذا التحول السياسي وحددوا أهداف التقدم المادي لأممهم، ولكنهم أيضاً قدموا لهم رموز القومية المتطرفة والتضامن ضد الامبريالية الغربية، غير أن الانتقال من نقد الحكم الأجنبي وإثارة الحركات الجماهيرية لإقامة أساس مستقر لحق تقرير المصير أثبت أنه صعب جداً، فما لبثت الدوافع المثالية خلف الثورة والاستقلال القومي أن انحسرت أمام ضخامة أهداف بناء الأمة مثل النمو الاقتصادي المستديم والتكافل الإقليمي، والتعثر بعد عقود طويلة من الاستقلال الاستعماري إلى عام مقسم بمرارة بالحرب الباردة، فإن الدول الجديدة كان عليها أن تجبر بشكل عاجل المساعدة ورأس المال لنظم اقتصادية ضعيفة، وأن تقسم سياسة مالية، واحتلاله زراعياً، وبناء مثل هذه المؤسسات السياسية والبرلمانية، ولجان انتخابية وأحزاب، وجعل المواطنة أكثر جاذبية من الولاءات المحلية للجماعات العرقية والدينية واللغوية والتجمعات الإقليمية، ووضع نظام قانون، وجعل التعليم الأولي والعناية الصحية متاحة، ومهاجمة الفقر والجريمة، كما كان عليهم أن يزودوا بلادهم بجيش مهني وبيروقراطية، ويحد من النمو السكاني، وإقامة سياسة خارجية تنظم العلاقات مع العالم الامبريالي القديم كما تضمن أعلى قدر من المزايا من الممثلين الرئيسيين للحرب الباردة.

مثل هذه الأهداف المتعددة والشاقة، وخيبة الآمال المختلفة بالنجاحات، والنكسات التراجيدية، والصراعات الشريرة، ميزت الحقب الثلاث بعد عام ١٩٤٥ في كل الدول الآسيوية تقريباً، وقد لخص Ryszard kapuslinki "الدراما" التراجيدية للزعيم الأمين والوكن في حقبة ما بعد الاستعمار بقوله: إن كلا منهم أراد أن يفعل شيئا جيداً وبدأ يفعله ثم رأي، بعد شهر، أو عام أو ثلاثة أعوام أنه لا يحدث، وأنها تتزلق بعيداً وأنها تطمس في الرمال. وكان كل شيء في الطريق: قرون من التخلف، والاقتصاد البدائي، والأمية، والتطرف الديني، والعمى القبائلي، والجوع المزمن والماضي الاستعماري، ومساومات المستعمر، وجشع الفساد، والبطالة، وفي مثل هذا الطريق يتحقق التقدم بصعوبة شديدة. ويبدأ السياسي في الدفع بشدة بالغة، وهو ينظر إلى مخرج من خلال الديكتاتورية، ثم تولد الديكتاتورية المعارضة، وتنظم المعارضة انقلاباً، وتبدأ الدورة من جديد.

وقد زادت المشاعر الأيدلوجية المستوردة من الحرب الباردة من خطورة التوترات السياسية في العديد من البلدان مثل باقي السكان وأندونيسيا واشتعلت الحركات الانفصالية في كشمير، وشرق باكستان وتابيه وسيريلانكا وبررت المقدمة حكاما ذوى قبضة قوية مثل سوهارتو في أندونسيا، وأيوب خان في باكستان، وأنديرا غاندي في الهند وارتبطت صورهم غالبا بالعنف وغياب النظام، ولفترةٍ ما على الأقل فإن العالم الثالث بدا من وجهة النظر الغربية مقضياً عليه بالهلاك وموضعَ حروب أهلية ومصدراً للمهاجرين.

غير أن الصورة أصبحت أكثر وضوحاً ومتعددة الأنواع بعد أكثر من نصف قرن من التغيير حين لم يعد للغمامات الأيديولوجية للحرب الباردة وجود.

وبدت المثالية الأخلاقية أكثر من الفعالية والأسلوب العملي تحدد مثل هذه التجمعات عبر *القومية* مثل مجموعة عدم الانحياز والتي انضمت إليها مغظم

البلدان الآسيوية لما بعد الاستعمار في محاولة لتيار بديل لقطبية الحرب الباردة الخشنة، ونستطيع أن نرى التبني الكامل لأيديولوجيات تجريبية (الشيوعية الصينية) والامبريالية اليابانية لم تنجح، أمّا محاولات الأيديولوجيات المختلطة مثل ديمقراطية الهند البرلمانية، والدولة المدنية في تركيا الإسلامية، ورأسمالية الدولة الصينية كانت أكثر نجاحاً كما أن الرفض الصيني للغرب في صورة مصغرة لإيران الإسلامية والحركات الإسلامية استمرت في الحياة.

وثمة عديد من الأمم الجديدة مثل باكستان لم تشفَ من آلام الميلاد كما تبددت طاقات التحرير إلى حركات سياسية ودينية ذات طبيعة متطرفة بشكل متزايد. وبلدان أخرى مثل الصين والهند واندونيسيا ذات الكثافة السكانية، ورغم بعض النكسات الخطيرة، استطاعت أن تدير نموها الاقتصادي وسيادتها إلى الذي أصبح فيه تراكمها القوى يبدو وكأنه يفرض تحديا منيعا للغرب نفسه.

ويقول لنا التاريخ الحديث إن ثمة الكثير من هذه التحديات السياسية الاقتصادية والدبلوماسية مازالت تتوزع في أجزاء واسعة من آسيا، وفترة نصف قرن قبل أن تبدأ عملية تصفية الاستعمار فإننا نستمر في أن نعيش فيما أسماه الكاتب الأمريكي ارفنج هو Irving Howe "العصر الثوري" وقد تكون قوة الدفع الثورية قد أصيبت بالعدوى، والفساد، والانتقاص من شأنها ومن معنوياتها، ولكن الطاقة وراء قوة الدفع هذه ومازالت باقية وهي الآن تنفجر في جزء أو آخر من العالم ولا يمكن كبتها بشك كامل وفي كل مكان فيما عدا الولايات المتحدة، فإن ملايين البشر، وبالتأكيد أغلبية هؤلاء يأتي درجة من الوضوح السياسي، يعيشون نوعا ما من التغير الاجتماعي، وهذه هي الطاقات المسيطرة لزماننا والذي سوف يكسب السيطرة عليها سواء بشكل شرعي أو مشوه، سوف ينتصر.

وباستبدال قوة أوروبا بقوتها، ومثلما كتب Howe فإن أمريكا اقتنعت بإخلاص أنه فقط بفرض إرادتها فإن العالم يمكن إنقاذه، ولكن العالم قاوم هذه الإرادة.. وإذا كانت هذه الكلمات كتبت عام ١٩٥٤ فإن هذه الكلمات لا تبدو أقل إقناعا بعد عام من الربيع العربي وانهيار عدد من الديكتاتوريات الموالية للغرب.

وقد يبدو أن الفوضى وعدم التنظيم سوف تسود معظم العالم العربي لعدة أعوام ولكن سحر القوة الغربية قد انكسر بشكل نهائي، إذا كان المسلمون المنتزعوا الجذور قد تحدوها باحتقار، فإن آخرين مثل الصينيين قد تبنوا "أسرارها" أجيالاً، وقل بشكل كبير الإحساس بالإهانة الذي أشعل عدة أجيال من الآسيويين، وهكذا فإن صعود آسيا، وتأكيد الشعوب الآسيوية لنفسها أكمل ثورتهم ضد الغرب التي بدأت بأكثر من قرن مضى، أنها بعدة طرق حقاً انتقام الشرق.

ويعتبر الكاتب أنه رغم هذا فإن هذا النجاح يخفي فشلا ثقافياً ضخماً والذي كان له انعكاسات عميقة على العالم اليوم والمستقبل القريب وببساطة فإن استجابة مقنعة ذات طابع عالمي للأفكار والسياسة الغربية ليست موجودة اليوم ، رغم أن هذه الأفكار تبدو بشكل متزايد كالحمى وغير ملائمة بشكل خطير في أجزاء واسعة من العالم،حتى إن غاندي الأكثر تقدماً للأفكار الغربية هو شخصية منسية في الهند اليوم. كما فقدت الماركسية اللينينية مصداقيتها، ورغم أن حكام الصين يقدمون بشكل متزايد لفتات تجاه الأفكار الكونفوشية عن التناسق، فإن ميراث الصين الخاص للسياسات الأخلاقية والنظرية الاجتماعية الاقتصادية مازالت غير مستكشفة اليوم. وحتى لو كانت الحداثة الإسلامية لتركيا يمكن تصديرها لبلدان إسلامية أخرى إلا أنها لا تشير إلى نظام اجتماعي اقتصادي بديل، وقد كان المثقفون الآسيويون ممتنين للأقطار الأوربية، وحيث كانوا يعملون في عالم شكلته الأفكار

الأوربية، أو أنهم أعمتهم "العاصفة الترابية للتاريخ الحديث "، كما عبر طاغور، فإنهم قد تبنوا نموذج الدولة/ الأمة باعتباره الضرورة الأولية للحداثة.

ولم يكن من الممكن أن يكون أمراً سهلا لمجتمعات ذات تنوع داخلي مثل الهند وإندونيسيا أن تجد هوية اجتماعية وسياسية وثقافية بدون عنف وعدم نظام، فأوربا نفسها احتاجت مئات السنين لكي تطور وتطبق مفهوم الدولة ذات السيادة، بعد حربين عالميتين استهلكت بخسارة فظيعة الأقليات العرقية والدينية، وقد كان النموذج الغربي للدولة المتجانسة عرقيا ملائماً بشكل متغير في أوربا ذاتها. وكان هذا بوجه خاص بالنسبة للمجتمعات الآسيوية المتعددة الأعراق والذي تأكد بمحنة المسلمين في كشمير، وتايبيه، والصينيين في ماليزيا، والمسلمين السُنّة في العراق، والأكثر في تركيا. والتاميل في سيريلانكا، ونعتقد أن معظم العالم "البازغ" يقف الآن لكن يكرر، وعلى نطاق كريه أوسع، خبرة الغرب المعذبة بل حتى التراجيدية " للتطور" الحديث.. ففي الهند والصين فإن أتباع النمو الاقتصادي بأي ثمن خلق نخبة صارخة، ولكنها وسعت من تفاوتات اجتماعية واقتصادية منذرة وقائمة بالفعل. وقد أصبح واضحاً أن التنمية سواء قام بها السادة الاستعماريون أو الدول ذات السيادة لا تفيد الشعوب بشكل متساوٍ داخل إقليم واحد.

ويستخلص Pankaj mishra أن بعض المثقفين الآسيويين يشيرون إلى انتقال أوربا إلى حالتها الراهنة من الاستقرار والوفرة كانت أكثر من مؤلمة فقد تضمنت غزوات امبريالية، وتطهيراً عرقياً، ونزوح ملايين لا تحصى، وكما تصعد الصين والهند بطبقتها الوسطى الاستهلاكية في عالم من موارد الطاقة المحدودة، فإنه من السهل أن نتخيل أن هذا القرن الواحد والعشرين سوف يتهدد بالنزاعات الاقتصادية، والصراعات العسكرية والتي جعلت القرن الأخير على هذه الدرجة من العنف.

الثورات التي لم تكتمل في الشرق الأوسط

مارك لينش أستاذ العلوم السياسية بجامعة جورج واشنطن يعمـل مـديراً لمعهد دراسات الـشرق الأوسـط ومـن إصـداراته (Voices of New Arab Public) الذي اختير كأبرز كتاب أكاديمي، وفي كتابه الجديد الذي صدر مـؤخراً تحت عنوان

(The Arab uprising of the unfinished revolution of the new middle east)

وجوهر هذا الكتاب هو التساؤل عما إذا كان نضال العالم العربي من أجل التغييـر سوف ينجح في بناء مجتمعات مفتوحة أم لا، وهل تـستطيع القـوة الـسلطوية أن تستعيد قبضتها أم أن الحركات الإسلامية ستمتلك المبادرة لفرض نوع جديـد مـن الحكم؟

ويتتبع الكتاب الصراعات العربية من تونس ومصر إلى المعارك الـصعبة فـي اليمن، البحرين، سوريا وليبيا، والإصلاحات الحذرة من الملكيات في المنقطة فهو

يفحص المعنى الحقيقي للثورات في الديمقراطيات البازغة والآمال طويلة الأجل لجيل من الناشطين الذين يواجهون بحدود قوتهم .

ويبدأ مارك لينش بتسجيل الاحتجاجات التي انتشرت سريعاً وبقوة من الأطراف التي انتشرت في تونس حيث جرت في فضاء راديكالي عربي جديد فلقد نشأ الجيل الجديد من العرب وهو يشاهد الجزيرة ويرتبطون بعضهم ببعض من خلال قنوات التواصل الاجتماعي التي تشكل نوعاً من أنواع الهوية العربية، قد بدأت احتجاجاتهم في الظهور منذ عام ٢٠٠٠ منذ تأييدهم انتفاضة الأقصى في فلسطين والغزو الأمريكي في العراق عام ٢٠٠٣ ، ولقد راقبوا معا صمود اللبنانيين ضد الاحتلال السوري عام ٢٠٠٥، ثم عانوا من القذف الإسرائيلي عام ٢٠٠٦، ولقد ثاروا بشكل علني على قادتهم والاقتصاديات والسياسات الراكدة بعد أن ظلوا عقود طويلة صامتين، ولقد جاءت تعبئة التونسيين المفاجئة لكي يرى كل عربي نفسه في مكان هذه الصورة.

ويتساءل مارك لينش عن ماهية الانتفاضات العربية، ويعتبر أن أحداث عام ٢٠١١ هي بوضوح ليست قصة -بعد- تحولات ديمقراطية كما أنها ليست- بعد- قصة ثورات، وتعبير الربيع العربي الذي ساقه مارك لينش في مقال كتبة في ٦ يناير ٢٠١١ ليس منصفاً لطبيعة التغيير فالانتفاضات هي انفجار استثنائي سريع، حاد وتلقائي من العالم العربي الذي يشترك بإعلان عابر للدول وتربطه هوية واحدة، هذه الانتفاضات تتحرك بشكل مختلف عبر المنطقة ، ومن المحتمل أن تنتج سياسيات إقليمية مختلطة وبعض الديمقراطيات الجديدة، بعض الديكتاتوريات المتحكمة وبعض الملكيات الإصلاحية وبعض الدول المنهارة وبعض الحروب الأهلية، ومن المحتمل أن يكثفوا المنافسة الإقليمية ويدفعوا تحالفات وخصومات ويغيروا طبيعة سياسات القوى.

ويعتقد مارك لينش أن هذه الأحداث التي هزت العالم من ثورات سلمية في مصر وتونس والمعارك الوحشية في البحرين ، سوريا، واليمن هي من أولى المظاهر المبكرة للتغيرات التي سوف تحدث.

أن التغيرات التي سوف تأتي- وهي مدفوعة في جزء منها بتغير أجيال- سوف يواجه فيها الشباب المحيط والاقتصاديات الفاشلة ، بفساد منتشر وسياسات مغلقة ومؤسسات دولة لا مبالية وعنيفة.

ولقد نشا إحساسهم بالظلم من خلال تغيير هيكليّ حقيقي في طبيعة السياسات الإقليمية،نتيجة صعود ما أسماه مارك لينش عقب حقبة من الزمن بصعود (مجال الرأي العام العربي الجديد)، هذا التغيير سوف يتحدى بشكل أساسي السلطة ويعرض مطالب ومصالح ومخاوف الرأي العام المرتبط بجدول الأعمال السياسي ومثل هذا التغيير سوف يكون في بعض الأحيان سلمياً ولكن في بعض الأحيان دموياً حيث تتمسك النظم بسلطتها المعتادة، والنتيجة عند مارك لينش أن الشعوب العربية قد تمكنت، وأنها من الآن وصاعداً سوف تلعب دوراً أعظم في السياسات الإقليمية وأن كل من له اهتمام بمستقبل المنطقة سوف يجبر على أن يتواءم.

ويركز مارك لينش كثيراً على تأثيرات البيئة الإعلامية الجديدة، أولاً بتدفق المعلومات وبفكر الخطاب العام والجدل المفتوح والذي صدع أحد أعمدة النظم السلطوية العربية، والتي تطورت منذ السبعينات والثمانينات بمعنى قدرتها على السيطرة وتدفق الأفكار وفرض رأي عام متطابق.

هذا فضلاً على أن هذه البيئة الإعلامية الجديدة قدمت مهارات وتوقعات وقدرات إلى نشطاء اليوم والمواطنين العاديين، فهم يعملون داخل بيئة إعلامية جديدة بشكل جذري ويتوقعون أشياء مختلفة من مجتمعاتهم ودولهم، وهم يستطيعون التصرف بطرق جديدة للمطالبة بها، وجمعت كل الأقطاب في رواية جديدة في

مصير مشترك وفضاء الرأي العام الجديد، إنما ينتقد بشكل كبيــر معظــم الــنظم الحاكمة وهو عربي في توجهه وهو مدرك بشكل احتفالي القوة التي تــم تجاهلهــا طويلا للشارع العربي.

ومن المفهوم أن الرأي العام الذي تمكن أخيراً ــ وتأثيراته على سياســات القوة في المنطقة سوف يكرس أحد التحديات الكبيرة للسياسات القادمــة. كمــا أن الرأي العام الذي تمكّن سوف يخفض القدرة على التنبؤ بالسياسات الإقليمية باعتبار أن الوجوه الجديدة قد حلت محل القدامى وأن الاعتبارات الداخلية قد أشعلت مطالب الوضع الراهن وسوف تكون لهذا نتائج هامة لإسرائيل التــي شــهدت أن البنــاء الإقليمي الذي يشيّد بعناية ينهار. وقد أثبتت المظاهرات ضد السفارة الإسرائيلية في سبتمبر ٢٠١١ وحدة الغضب العربي تجاه إسرائيل والولايات المتحدة وحكومــاتهم وعلى هذا فإن النظم العربية سوف تؤخذ في الاعتبار أكثر من الماضي، وقد يظهر العداء الحقيقي تجاه إسرائيل وأن يطلق لغة خطاب استفزازي الذي ممكن أن يطلق تصعيداً نحو حرب مثل التي جرت ١٩٦٧ والتي لم يكن أحد يريدها.

ويعتبر مارك لينش أن أهم التغيرات التي وقعت في العالم العربي لن تصمد للفحص الدقيق. فلقد كان أمل معظم المتحمسين للثــورات أن غيــاب الــشعارات المعادية كانت تعنى أن الجمهور العربي سوف يركز على شــئونه الداخليــة وأن يترك القضايا الإقليمية مثل فلسطين. ولقد ثبت أن هذه النظــرة قــصيرة المــدى. فالرأي العام العربي ينظر إلى هذه القضايا باعتبارها تتعلق بشكل وثيق بنضالاتهم داخل الولايات المتحدة في دعم الوضع الراهن العربي الذي لن ينسى ولــن يــتم تجاهله في العهد القادم. ولقد اشتكى آخرون أن إدارة أوباما لم تثبت قيــادة كافيــة خلال هذه الأزمات وأنها كانت تقود من الخلف. ومثل هؤلاء النقــاد يــصرون أن

العرب يتطلعون للدور الأمريكي أكثر قوة ففي تأيد الثورات وأن أوباما قد افتقد في فرض السياسة. هذا التصور خاطئ بالتأكيد ، فلقد رأي أوباما بشكل صحيح.

أن هذه الثورات العربية لن تحتاج قيادة أمريكية فهي حقا قوة أصيلة من الداخل وسوف تنظر بشكل ضعيف للمحاولات الأمريكية التي تدعى ملكيتها للثورات وكما سوف يظهر الكتاب فإن الدور الأمريكي في ليبيا حين أخذت الولايات المتحدة بشكل متعمد مكانة خلفية فإذا كان أوباما قد حاول أن يجعل الانتفاضات العربية أن تتسم بالطابع الأمريكي.

أن هذا يمثل قراءة بينية للموقف ، الولايات المتحدة لم تخلق هذه الانتفاضات ولم تكن تستطيع أن توقفها إذا ما أرادت ذلك وأفضل ما تستطيع الإدارة الأمريكية فعلة هو أن تشكل البيئة بطرق تؤدى إلى فرض مصالح والقيم الأمريكية وهو ما حاولت الإدارة الأمريكية فعلة .

في هذا السياق يعتبر لينش أن الأخوان المسلمين في مصر والنهضة في تونس لا يمكن مقارنتهم بالقاعدة، فدخولهم في الديمقراطيات البازغة سيكون هاما لخلق نظم سياسية مستقرة وتمثلية وما هو أكثر من ذلك فإن النظم التي سيطر عليها الإسلاميون ليس من المحتمل أن تشكل كتلة إسلامية موحدة، الأكثر احتمالا أنهم سيسعون إلى أن يصبحوا منافسين ويستخلص لينش أن التحول ضد الديمقراطية العربية من خلال الخوف من الإسلاميين سوف يكون تراجيدياً.

ويخصص مارك لينش فصلاً يناقش فيه التطورات والتفاعلات التي حدثت وخاصة تلك الانتفاضات منذ الثمانينات حيث سيطرت سياسات الدول وقهرها كما أن السياسات الإقليمية قد سيطرت عليها حرب العراق مع إيران وغزو إسرائيل للبنان وتلاشى أي فكرة عن الوحدة العربية، غير أن الاعتراضات الشعبية لم تختفِ أبدا، فقد هزت التحديات الدولية الركود الاقتصادي في شمال إفريقيا، السودان،

ومصر ونظم عربية أخرى عبر الحقبة وقد استجمعت هذه التحديات قوتها في نهاية الثمانينات مع الانهيار السوفييتي والتحول الديمقراطي عبر شرق أوروبا والعديد من أجزاء أفريقيا جنوب الصحراء.

ولم يملك الشرق الأوسط إلا التأثر بهذه الاتجاهات العالمية، لقد بدأت الانتفاضة الأولى في نهاية ١٩٨٧، وظهرت مظاهرات الخبز في اليمن والأردن، ونزلت الملايين من المغرب في الشوارع احتجاجاً على الحرب التي قادتها الولايات المتحدة لتحرير الكويت، وضد سياسات حكوماتهم، وذلك أول مرة منذ عدة حقب، وعبر السنوات القليلة التالية، وتراجعت المكاسب الديمقراطية، سواء تأكيد القوة الحاكمة لسلطتها مثلما حدث في الأردن وتونس أو خلال حرب أهلية مثلما حدث في الجزائر وللمرة الثانية انتهت موجه الاحتجاج للنظم الديمقراطية التي أكدت سيطرتها بشكل عنيف، ولكن التمسك بالسلطة لم يعد أمنا كما كان من قبل، فالعديد من الدول العربية شهدت نمو مجتمعات مدنية مستقلة في نهاية التسعينات والتي لا تستطيع أن تواجه تحديات سياسية مفتوحة ولكنها فتحت المجال للعمل السياسي المستقل، وكل هذا أدى إلى تمهيد الأرض لتحولات زلزالية والتي بدأت تحدث مع بدايات الألفية الجديدة.

ولقد استمر الغليان، خاصة في شمال أفريقيا، وقد هزت مظاهرات الخبز مصر عام ١٩٧٧، واغتيال السادات وعلى يد الإسلاميين، وفي نهاية عام ١٩٨٣ بدأت مدن في جنوب تونس تحتج بعنف على الإصلاحات التي طلبها صندوق النقد الدولي، وبدأت الاحتجاجات عندما تلقى المواطنون الغاضبون خبراً، عبر راديو الدولة، أن إعانات الغداء سوف تُلغى، وانتشر التونسيون الغاضبون عبر الشوارع، بشكل غمر البوليس المحلي، ورغم جهود النظام لاحتواء عدم الاستقرار، سارت الاحتجاجات إلى مسافات بعيدة تفصل الجنوب، بدون أن يكون هناك فيس بوك أو

تويتر أو الجزيرة لنشر تلك الاحتجاجات، ولقد أنزل المحتجون تماثيل الرئيس السابق، والبطل الثوري الحبيب بورقيبة، مما يعنى أن ذلك ليس رفضاً للحكومة ،ولكن للنظام بأكمله، وفي ١ يناير انتشرت الاحتجاجات في القصرين، ثم قفصه، وهما مركزان صناعيّان مهمان في المنطقة الجنوبية، ولقد انتشرت الجماهير الغفيرة من المحتجين في الشوارع، في مواجهة مع البوليس و ضد الدبابات والسيارات المدرعة. وبانتشار التقارير عن موتى الاحتجاجات في البلاد تفجرت تونس نفسها، واُستُولِي على أقسام الشرطة، وهوجمت السيارات والمنشآت، وانتشر في الأمة الهياج الشديد ضد النظام، وانتشرت معارك الشوارع في كل جزء تقريباً من البلاد، وبعد عام تقريباً استعادت العسكرية التونسية والشرطة السيطرة ، وقُدمت تنازلاتٌ اقتصادية هامة للمحتجين، ولكن النظام قد اهتز بشكل سيء.

وفي مصر واجه مبارك عدم رضاء اقتصادي، وأحداث شغب خطيرة من جانب البوليس في فبراير عام ١٩٨٦، وأسقطت الاحتجاجات الحكومة السودانية ١٩٨٥ حيث اشتعلت الاحتجاجات بسبب زيادة أسعار الخبز والبترول والانتقالات العامة والاتصالات العامة، بالتزامن مع الجفاف المتزايد، وانتهت هذه التعبئة بخروج الرئيس السوداني جعفر النميرى بانقلاب عسكري بأبريل ،١٩٨٥ ثم الدهشة بتحول سريع إلى انتخابات متعددة الأحزاب في مايو ١٩٨٦.

وفي تطور يحمل تحذيرات للتحولات الجارية الآن فهذه الانتخابات قد سيطرت عليها جبهة إسلامية وطنية وحزب الأمة، في الوقت الذي تفتقد فيه الأحزاب الجديدة التنظيم والمبالغ لكي تشن حملات انتخابية فعالة، وقد جاء الاستقطاب السياسي، الذي تلا ذلك ،بالحروب الأهلية وانقلابات عسكرية وصعود نظام إسلامي كريه.

وقد عادت تلك الاحتجاجات إلى الحدوث عبر شمال أفريقيا، وكانت كل منها تغذى الأخرى عبر الحدود، في الوقت الذي كانت فيه الظروف المحلية تتدهور، ولقد استجابت كل حكومة بأسلوبها الخاص، الذي اختلط فيه القهر بالإصلاح السياسي، بتغيرات سياسية غير ذات معنى نسبياً، وقد ظل الاحتجاج الاقتصادي شكلا وقتيا، واستطاعت احتجاجات قليلة، كالتي جرت في البداية في منتصف الثمانينات، أن تفرض تغيرات أساسية، وقد ظلت بشكل واسع محتوية داخل الشمال الأفريقي، والذي كان يُرى بشكل متزايد يختلف عن بقية العالم العربي.

ويناقش لينش، في هذا السياق الإقليمي والدولي، تأثير سقوط النظم الشيوعية في شرق أوروبا، والتي قدمت فجأة الأمل بأن التغيير حقيقي، ويمكن حدوثه في العالم العربي، فسقوط الاتحاد السوفيتي قوّض أعمدة الهيكل الدولي، الذي سيؤيد النظم السلطوية، والذي ترك نظماً عديدة، بشكل مفاجئ، تبحث عن مصادر جديدة للتأييد الدولي.

وكان التحوّل المفاجئ في الميزان الدولي في صالح الغرب، حيث زاد من الجاذبية الأيديولوجية والمزايا المادية للديمقراطية والرأسمالية. في هذا السياق أيضاً يستدعى مارك لينش التشابه بين إشارة أوباما بأنه لن يحارب من أجل مبارك، بدور جورباتشوف من أجل التدخل لإنقاذ إيريك هونيكر بألمانيا الشرقية.

هذا التغيير العالمي ساعد على انتقال تحركات نحو الديمقراطية، ليست فقط في فضاء الاتحاد السوفيتي وجنوب الصحراء، حيث تحرك ديكتاتوريات ظلت لفترة طويلة، إلى ديمقراطية تنافسية انتخابية، ولقد شكل سقوط النظم الشيوعية لحظة عالمية تاريخية، بدا فيها كل شيء ممكنا، حيث سلطة الشعب بدت أعظم من المدافع ورقابة الدكتاتوريات المفلسة، لم تكن حتى الرقابة القوية للحكام الأوتوقراط

تستطيع أن تمنع توزيع هذه الصور، ولقد كان موت نيكولاي شاوشيسكو، على يد المحتجين، قد أرعب الحكام العرب، وزاد من نشوة شعبهم ،وقد بدأت موجة الاحتجاجات قبل سقوط جدار برلين. ففي تونس، ٧ نوفمبر ١٩٧٨؛ أُنهي حكم بورقيبة، الذي دام أكثر من ٣٠ عاما، بانقلاب سلمي، وقدم خليفته زين العابدين على إصلاحات سياسية جوهرية، وانفتاحاً على الديمقراطية، وفي ديسمبر ٨٧ اشتعلت الانتفاضة الفلسطينية، و ١ أكتوبر ١٩٨٨ حوّل احتجاج موجة جماهيرية على السياسة الجزائرية، دافعا إلى تحول ديمقراطي، الذي سوف يؤدى إلى ثلاث سنوات دامية بعد ذلك، وفي أبريل ١٩٨٩ دفعت أحداث الشغب في الأردن الملك حسين لكي يطلق أعمق انفتاح ديمقراطي منذ الخمسينيات، وكل ذلك قد سبق سقوط برلين.

ويتتبع مارك لينش التطورات والتحركات الاحتجاجية التي بدأت عام ٢٠٠٣ والتي كانت في الواقع موجة طويلة واحدة من التعبئة الشعبية الكثيفة التي شملت كل المنطقة، ولقد غذّى هذا الغليان وسائل الإعلام الحديثة وتكنولوجيا الاتصالات، كذلك بالغضب الشعبي، بتراجع الكفاءة المؤسسية للنظم السلطوية.

وقد شكلت الحقبة، بشكل عميق، الحرب العالمية ضد الإرهاب، وحروب إسرائيل مع فلسطين، وحرب العراق، وتدفقات اللاجئين، والدعم المتزايد للتحالف الضمني، لمعظم النظم العربية ضد إيران، وهكذا فإن الغليان الإقليمي قد عدا الغضب الداخلي، وحيث اتخذت النظم العربية مواقف تختلف عن اختيارات وتفضيلات شعوبهم، فلم يكن غريباً إذن أن يستمر الغليان الشعبي.

كانت الاحتجاجات الأولى في فضاء سياسي كثيف، تُشكّله تكنولوجيات ووسائل الإعلان الجديدة، في هذا السياق لعبت "الجزيرة" دوراً حاسماً، حيث جمعت، معا، اتصالات وطنية يائسة، إلى احتجاجات عربية شعبية متماسكة ضد

التدخل الأجنبي والقهر الداخلي، وأصبحت برامجها المحورية منبراً مفتوحاً للنقاش على نظام إقليمي، وجدل حول القضايا المشتركة والاهتمامات، وفي هذه الفترة، يذكر مارك لينش الحملة التي أطلقتها حركة كفاية، وهي الحركة الاحتجاجية المصرية، التي شُكِّلت عام ٢٠٠٣، لتحدى وراثة ابن مبارك للسلطة، كما عبر المثقف السوري برهام غليون بشكل بليغ فإن هذه الفترة قد شهدت (يقظة الشعب الذي حُكِم بنظم ديكتاتورية) وحتى الآن أن لم نكن قادرين على الفوز، إلا أنهم أزاحوا جانباً من المحرمات التي سيطرت في الحياة العامة لعدة حقب.

وكانت حركة "كفاية" نفسها جزءاً صغيراً من قصة إقليمية للمعارضة والموجات الاحتجاجية الأخرى بما فيها انتفاضات ٢٠١١ فقد استجابت كل حركة محلية إلى توافد الفرص السياسية والخصائص الداخلية، وإن كانت في نفس الوقت قد تجذّرت على المستوى الإقليمي الواضح وقد كان ثمة مقلدون مباشرون مثل الحركة الأردنية (قصيرة الحياة عام ٢٠٠٥) التي لم تعش طويلاً، والتي وصفها الصحفي الأردني سميح المعايطة (كفاية بلهجة أردنية)، وثمة حركات أخرى كانت مختلفة في دوافعها، ففي لبنان ،التعبئة الجماهيرية عام ٢٠٠٥، قد عكست غضباً سياسياً بعد اغتيال رئيس الوزراء رفيق الحريري، والاستقطاب الديني والطائفي والسياسي، وفي البحرين، فإن التعبئة حول قضايا حقوق الإنسان، كان عليها أن تصارع الواقع الطائفي للأغلبية الشيعية، التي سيطرت عليها.

وفي الجزائر وتونس قدمت الحركات الاحتجاجية غطاءً جديداً للسياسة التي يسودها الغليان، وكانت الشعلة لحركة كفاية ذات طابع دولي، حين تجمعت أعداد ضخمة لتأييد الانتفاضة الثانية ٢٠٠٢/٢٠٠٠، و ضد الغزو الأمريكي للعراق ٢٠٠٣/٢٠٠٢ ،مثل هذه الاحتجاجات، ركزت اهتمامها على قضايا المنطقة ونقاش سياسي موحد شكلته الجزيرة.

وقد كانت النظم سعيدة بأن ترى الطاقة السياسية موجهة للخارج، وهو ما جعلها تتسامح، وبل تشجع هذه الحركات الاحتجاجية، ولكن مع تحول التركيز السياسي إلى الداخل، رفضت هذه الحركات أن تتفرق، فقد أثبت الناشطون الشباب أنهم مصممون، وقادرون على المضي بخطوات تسبق السلطات، من خلال الاستخدامات الجديدة للتواصل الاجتماعي، وتكتيكات الاحتياج، وقد أبقى تدهور الظروف.الاقتصادية والفضاء السياسي المنغلق الإحساس بالمظالم عالياً ومتصاعداً، بدخول محتجين جدد من عمال في مصر ورجال القبائل في الأردن.

ويخصص مارك لينش فصلاً أسماه "الثورة المضادة" وهو في هذا الفصل يتتبع ردود أفعال القوى والدول في المنطقة، وخاصة في منطقة الخليج، في الانتفاضات العربية، ويعتبر أن الأسبوع الذي بدأ في ١٤ مارس ٢٠١١ كان نقطة تحول أساسية، عندما تحول الأمل إلى عنف، فقد قُتل أكثر من ٤٠ محتجاً بواسطة قوات الأمن، في صنعاء في اليمن ١٨ مارس ٢٠١١ ، كذلك وصلت من قِبل المحتجين السوريين في مدينة درعا، لإراقة الدماء، ووصلت الاحتجاجات البحرانية، التي جلبت معظم سكان البلد للشوارع، إلى نهاية وحشية بتدخل قوات مجلس التعاون الخليجي، كما داهمت قوات القذافي بني غازي، الأمر الذي حرك نقاشاً حاداً، عبر المنطقة، وعبر التدخل الدولي، وكانت أعمال السعودية في البحرين، ودعم مجلس الأمن الخليجي لضربات الناتو في ليبيا، أكثر الأفعال المكشوفة، كذلك دعا مجلس الأمن الخليجي المغرب والأردن للانضمام للمجلس بهدف بناء كتلة ملكية محافظة مذكرة بالحرب الباردة العربية الكلاسيكية عما قدمت وعود مالية ضخمة مع عدد من الحكومات العربية ابتداء من مليون دولار للأردن إلى ٤ مليون لمصر الثورية كذلك استعانت بوسائل إعلام راسخة وشبكات دينية لتقدم قوة محافظة أكثر من البيئات الجديدة المفتوحة ويعتبر لينش أن هذا لم يكن

مفاجأة فمع اندلاع الثورات فأن الديكتاتوريين العرب الباقين لم يكونوا مستعدين للتنازل بالسرعة عما فعل بن على ومبارك.

فإذا كانت الحركات الاحتجاجية قد تجمعت معاً، وإن كانت بشكل غير منظم، إلا أنها شكلت قضية مشتركة، أما بقية النظم العربية فقد التفت حول سعيها وهدفها الأساسي هو بقائها السياسي.

بشكل سريع تعلم القادة العرب دروس زملائهم الذين سقطوا، والدرس أنهم يرحلون، وقد أخذ مجلس التعاون الخليجي المبادرة، وجعل جامعة الدول العربية، باعتبارها المحرك الأول في السياسات بين الدول العربية وعبر المنطقة، حيث طورت النظم استراتيجيات البقاء، لما يسحق الحركات الاحتجاجية أو التواؤم معها، بشكل يحفظ سلطتهم، وهكذا فإن الجهود أصبحت تعترف بالثورة المضادة في الخطاب العربي، وثمة عدم اتفاق حول مدى كون هذه الثورة المضادة منسقة وفعالة ومركزية حول أهدافها النهائية.

ويتناول مارك لينش كل دولة من دول الانتفاضات العربية على حدة، ويبدأ بالبحرين باعتبار أنها أول مسرح كبير للثورة المضادة، والتي انطلقت ١٤ فبراير، متوافقة مع الذكرى العاشرة لإعلان الملك حمد لميثاق الإصلاح الوطني، وفي هذا جزء كبير من حركة الاحتجاج التي طالبت بالإصلاح أكثر من الثورة، وفي هذا تبنت حملات حقوق الإنسان، التغيير الديمقراطي والذي مضى على مدى أكثر من حقبة وبنيت على شبكات نشطة قوية، والتي تطورت عبر سنوات، وأصبحت البحرين أكثر وسائل الاتصال النشطة في العالم العربي، وأكثر الحركات ديمقراطية والتزاما بحقوق الإنسان في الخليج فاحتجاجاتها المتفرقة ومجتمعها المدني قد خلق جيلاً من الناشطين ذوى الخبرة والإدراك، وباعتبار أن السعودية العربية مارست تداخلاتها الدفاعية فيما وراء منطقة الخليج، لكي تضمن ملكيات محافظة وموالية

للولايات المتحدة، فقد قدمت الأردن ومراكش إصلاحات محدودة في محاولة للتهدئة، وقد ذهب الملك محمد السادس إلى أبعد من ذلك بالتغييرات الدستورية، وطرحها للاستفتاء، الذي شق المعارضة، وخلق مناخاً موائماً داخلياً وخارجياً، أما ملك الأردن فقد كان لديه القليل لكي يقدمه لشعبه، ولكن لعدة شهور استمر يبحر في الفضاء، الذي تميز بالغليان مستخدماً أدوات تقليدية للسيطرة، ففي المغرب حركة ٢٠ فبراير قد اكتسبت اهتماماً ملحوظاً، فقد امتدت الجماهير في ما وراء العاصمة، وفي ٩ مارس، وفي خطاب على التليفزيون، استجاب الملك بتعيين لجنة إصلاحات دستورية، ووعد بالتنازل عن بعض السلطات، واستجاب للشكاوى المشروعة، ورغم الخطبة التي أُستُقبلت بشكل جيد، فإن التغييرات الدستورية التي أدخلها الملك كانت قاصرة بشكل أساسي، وإن كانت أبعد من أن تكون بشيء من الديمقراطية وليس واضحاً أنها تقدم نموذجاً لأي أحد آخر، وإن كانت الأردن قد حاولت بعد قليل.

يورد مارك لينش سؤالاً يطرحه الكاتب العربي بلال حسن والذي تساءل فيه: هل فشلت الحركات العربية للتغيير؟ وأجاب: إن الحركات قد فشلت في التوصل لأهدافها، حتى وإن كان الزعماء قد سقطوا. في الوقت الذي زادت فيه الصراعات الداخلية في كل بلد، والتدخلات الخارجية أصبحت سراً مكشوفاً.

ومع حالة التشويش والانقسام في الساحات، فإن قوة الاندفاع الثورية في الرأي العام العربي الموحد قد تصدعت، وبدا أن محور المركز الملكي والمحافظ قد صمد للعاصفة، وقد كانت قوة الاندفاع التي توقفت واضحاً ليس فقط في الملكيات، فقد تسرب نفس الإحساس بالإحباط في تونس ومصر اللتين كانتا قصص النجاح المبكرة في الانتفاضات العربية، فقد لعبت الثورتين في مصر وتونس إلى الحرب

بينهم حول إذا ما كانوا يهجرون سياسة الشارع لصالح الانتخابات أو الاستمرار في سياسة التعبئة الشعبية.

ويخصص مارك لينش فصلا أسماه " بالتحدي الأمريكي" ويعنى به التحدي التي تواجهه الولايات المتحدة في بلدان الانتفاضات العربية، وهو يتساءل: أين تقع الولايات المتحدة في الشرق الأوسط الجديد؟ وما هي أفضل الوسائل التي توائم نفسها للوقائع الإقليمية الجديدة بطرق تؤدى إلى تقدم مصالحها وتتفق مع قيادتها؟

إن إدارة أوباما لم ترضِ الكثيرين بأسلوبها أو بمقارباتها المتواضعة، والحريصة من أجل إعادة وضع أمريكا في المنطقة الجديدة، ورغم هذا وباستثناءات أساسية قليلة خاصة الصراع الإسرائيلي الفلسطيني وفي البحرين، فقد تفاعلت بشكل جيد ومعقول مع التجاوزات مع شلالات التطورات والأحداث، بشكل يحمى جوهر المصالح الأمريكية، في الوقت الذي أنتجت به، التحول الديمقراطي والسيل المتدفق من الأحداث.

وفي رأي مارك لينش أن هذا الاقتراب البرجماتي لن يكون كافياً للأعوام القادمة، فالولايات المتحدة تحتاج بشكل يائس لنظرية جديدة لوضعها في الشرق الأوسط، علما بأن أي من الاقترابات الحاضرة لن تكفي، ولقد كانت أكثر النظريات الأمريكية قواماً حول التعامل مع الشرق الأوسط خلال حقبتين وهما الواقعية والمحافظة الجديدة، وأن كلتيهما لم تقدم مرشدا للمرحلة الجديدة، فالواقعية لم تقدر بشكل كافٍ القوة الممزقة لرأي عام قد تمكّن، وكيف أن هذا سوف يغير الديناميكيات العربية.

أما المحافظة الجديدة New conservatism فلقد فهمت بشكل سيء هذا الرأي العربي الجديد، ويعتقد مارك لينش أنه من الممكن أن تلعب الولايات المتحدة دوراً بنّاءً في تشكيل التوجهات أو اتجاهات الانتفاضات العربية، والتي تؤيد

آمال معظم العرب، والمصالح الأمريكية التي تحافظ علىٰ القيم الأمريكية، وهو ما لن يكون سهلاً، ويقول مارك لينش إنه أمضى وقتا كافياً مع الرسميين، لاعتقاده أنهم يريدون بشكل عميق ومخلص أن يحققوا الديمقراطية، وأن يصيغوا علاقات جديدة وإيجابية مع رأي عام عربي جديد، إلا أن لينش لم يرَ إلا استعداداً قليلاً، أو قدرة لوضع، وإجراء تواؤم، أو تخضع للهيمنة الإسلامية لكي تلتقي أو تستجيب بشكل فعال للمنطقة الجديدة، برغم أنها تحتاج أن تجعل أفعالها تتماشى مع كلماتها عبر المنطقة، وأن تكون مستعدة أن تستقبل، بأمان، عملية الانتقال التي كانت تتميز بالغليان.

لقد تبنت إدارة أوباما، تجاه الانتفاضات العربية، أسلوباً يتناول حالة بحالة، وقد تبينت الحجة القائلة بأن التغيير أمر حتمي، وأن الشرق الأوسط أكثر ديمقراطية، والذي سوف يخدم المصالح الأمريكية، وأنها يجب أن تكون على (جانب صحيح من التاريخ)، ولقد أصر أوباما أنه كان حريصا تجاه التغييرات في الخليج، وقام بتشكيل نظرية متماسكة، تفرض عملاً مثل البحرين وسوريا، أما اقترابها للصراع الإسرائيلي الفلسطيني فلقد قوض بشكل سيئ وضعها، سواء مع القوة القديمة للوضع الراهن في المنطقة أو،كذلك، مع الرأي العام الجديد.

ويعتقد مارك لينش أن العالم العربي يتغير، وأن الولايات المتحدة لا تستطيع إيقافه، وسوف تكون التغييرات الكثيرة معالم كبيرة لسياسات دول الشرق الأوسط، التي سوف تتحدى العديد منها، والوضع الراهن الذي حافظت عليه الولايات المتحدة الأمريكية طويلاً، إن الوهم المشترك في واشنطن أن هذه الثورات كانت حول قضايا داخلية، ولم يكن اهتماماً بالقضية الفلسطينية، أو السياسة الخارجية الأمريكية، ولقد كانت إحدى أفضل تحركات أوباما هو الاعتراف بأن الانتفاضات العربية لا تعتمد أو تريد القيادة الأمريكية.

ويستخلص مارك لينش أن الولايات المتحدة يجب أن تعامل صعود رأي عام جديد كقضية وجودية للسياسة الأمريكية، والتي سوف تتطلب إعادة توجيه رئيسي لاقترابها بالمنطقة، ونقطة البداية الجيدة هي القبول بأن العرب ليسوا أغبياء أو حمقى، فالرأي العام العربي تكونت لديه الخبرة في فك شفرة دعايات نظمهم، ولديه شك اكتسبه تجاه كل شيء تقريباً تقترحه الولايات المتحدة.

ولقد كان الرأي العام العربي دائماً وبشكل واضح لديه رؤية حول السياسة الأمريكية لسنوات طويلة، ولديه أفكار ثابتة لم تتغير، لسهولته سواء من خلال دبلوماسية عامة، أو من خلال أجمل الخطب الرئاسية، ما لم تساير السياسات الأمريكية كلماتها، ولقد تكون لدى الرأي العام العربي حساسية فائقة تجاه ازدواجية المعايير، وخاصة حول القضية الفلسطينية، وهم يتساءلون: لماذا تحصل جميع الشعوب على حقوقها الديمقراطية باستثناء الفلسطينيين؟ ولماذا هناك حماية لليبيين وليس لسكان غزة؟ إنهم يفهمون مكان أمريكا في المنطقة أكثر من الأمريكيين، وليس لديهم صبر على العبارات المعسولة للخطاب الأمريكي، إن الأمريكيين قد يعتقدون أنهم يمكنهم أن يحافظوا على السياسات الإقليمية الرئيسية أو الإنسانية، في الوقت الذي لا يستطيعون تحقيق ذلك، أم أن العرب يعتقدون في ذلك.

إلى أين يذهب العرب ؟

رؤية ثلاثين مفكراً في مستقبل الثورات العربية

الانتفاضات العربية نجاح أم إخفاق؟

بعد عامين من الثورات والانتفاضات التي اندلعت في تونس، ومصر وليبيا، واليمن وسوريا، وقوضت نظماً ترسخت على مدى حقب ثلاث، وجرت ،منذ اندلاعها وسقوط هذه النظم، تفاعلات اتسم معظمها بالعنف وعدم الاستقرار، بل بالفوضى، أصبح السؤال الذي يفرض نفسه سواء بالنسبة لمجتمعات هذه البلدان أو للعالم: هل كانت هذه الثورات أو الانتفاضات نجاحا أم إخفاقاً؟ ومثل هذا السؤال المركزي لا يقصد لذاته بل لما يترب على الإجابة عنه، وتشخيصه، من التعرف على مستقبل هذه الانتفاضات ومآلاتها، لا على أسس انطباعية سريعة، وإنما على أسس منهجية ومعرفية، وقد أصدرت مؤسسة الفكر العربي كتاباً تحت عنوان "إلى أين يذهب العرب" تضمن رؤية ٣٠ مفكراً عربياً حول القضايا التي تثيرها الثورات

العربية، ومع أهمية هذه القضايا التي أُطْرحت على هؤلاء المفكرين، فإننا نعتبر أن أكثرها إلحاحا اليوم هو السؤال المتعلق بمآلات هذه الثورات حتى الآن، وهل كانت نجاحاً أم إخفاقاً؟

حول هذا السؤال أجابت ابتسام الكتبي أستاذة العلــوم الــسياسية بجامعــة الإمارات بأنه "لا يمكن الجزم بنجاح أو إخفاق هذه الحركات الآن، وبشكل عام فإن الثورات تقبل التقييم بعد مرور سنوات عديدة، ولا يمكن لأي مراقــب للأوضـــاع السياسية، في كل من مصر وتونس وليبيا، أن يجزم بنجاح الثورة فــي أي منهــا بشكل كامل، كما لا يمكن في الوقت ذاته إنكار حجم الإنجازات التي حققتها تلــك الثورات، إذن ما حدث ليس بنجاح كامل ولا بإخفاق كلــى، ولكنــه شــيء بــين الأمريْن، فمثلما نجحت تلك الثورات- كما أُصطلِح على تسميتها- في فرض واقع جديد على المشهد السياسي ساعد دفع عجلة الحريات، ومن ثمّ إجراء أول انتخابات على قدر من الديمقراطية، في الحالتين التونسية والمصرية أخفقت الثورات نفــسها في إقناع نسبة كبيرة من الأغلبية الصامتة بإنجازاتها(في الحالة المصرية بــشكل أوضح) وأستطيع القول،عن البلدان التي تقوضت أنظمتها، إنها لــم تتجــاوز بعــد العتبات الانتقالية، وعلى الرغم من ظهور ملامح لاتجاهات الحكم القــادم، الــذي أسفرت عنه صناديق الاقتراع، فإن الصورة ليست كاملة الوضوح، يشوبها الارتباك والفوضى، ولعل أخطر ما حدث هو حالة الإحباط والإحساس بالخيبة، التي أعقبت حالة الانتشاء بالانتصار لدى الجماهير، التي خرجت إلى الميادين العامة، وقــدمت الشهداء.

وتساءل جمال خاشقجى (السعودية): ما المقــصود بالإخفــاق؟ إن كـــان المقصود فشل الثورة وعودة النظام القديم، فهذا لن يكون، قد تحاول بعض الأنظمة القديمة، التي لم تنهَر تماماً، إعادة إحياء نفسها، في هيئة تتوافق مع أحوال ما بعــد

الثورة، (مثلما يحصل في مصر واليمن)، بل أحيانا تزايد بأنها مع الثورة، وتنجح في أن يكون لها موقع في " النظام الجديد"، ولكنها لن تستطيع أن تعطل الحركة نحو الحكم الديمقراطي، قد تتعثر الحركة نحو الديمقراطية، أو تتعطل، ولكنها سوف تستمر، لأنها تعبر عن التحرك الطبيعي لقوة التاريخ، حينها يجب أن تُلغى كل احتمالات عودة الأنظمة القديمة في صيغتها الشمولية التي أُنتُفِض عليها .

اليوم أقول إن الثورات العربية تعثرت، إلا أنني لا أحكم عليها بالفشل، فهي قد تنهض من عثارها، ثم أعترف بأنني لم أرَ، حتى الآن، سببا يشجع على التفاؤل، وأسجل، قبل أن أكمل، أن الثورات العربية ليست كماً واحداً، فهي تختلف من بلد إلى آخر، وقد أعطى تونس علامة نجاح بسيطة حتى الآن، إلا أنني أجد ألف سبب للقلق على مستقبل مصر الثورة، وليبيا بعد معمر القذافي.

واعتبر حسن حنفي أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة أنه "لا يمكن الحكم بنجاح أو فشل حركة في التاريخ، لأنها ليست لعبة حظ، بل هي جدل وصراع لا يُحسم مسبقاً، ولا يوجد نجاح أو فشل، فالتاريخ ليس أبيض أو أسود،خيراً أم شراً، ما قد يكون فشلاً في الظاهر قد يكون نجاحاً في الباطن، وما قد يكون فشلاً على الأمد القصير قد يكون نجاحا على الأمد الطويل.

واعتبر حسين إبراهيم مدير مركز الدراسات السودانية أن "ما تحقق هو في الواقع نصف ثورة، فمن الصعب الحديث بصورة مطلقة وجدية عن نجاح أو إخفاق الثورة، في تحليل ما ارتحنا لتسميته بالربيع العربي ، فمن المعروف أن أي ثورة لها سيرورتان متلازمتان: الأولى هي هدم أو إسقاط النظام القديم، والثانية بناء بديل جديد لإنجاز أهداف الثورة المعلنة، والتي قامت من أجلها، وفي هذه الحالة، قد نعتبر صفة الثورة التي نتداولها الآن مجرد تجاوز يفتقر للدقة، ومن الممكن أن نكتفي بصفة الانتفاضة الشعبية، وذلك من دون أن نبخس الناس أشياءها، أو أن

نظلم المنتفضين، وبهذا المعنى فهي قد أحدثت تغييرات قد يكون بعضها عميقاً، ولكن من دون أن يمس الجذور والأسس التي تجعلها كاملة، وبالتالي تهيئ الأرضية للجديد القادم".

وعن رضوان السيد الكاتب والمفكر اللبناني أنه "لا يمكن الحديث الآن ولا بعد عام عن إخفاق أو فشل.. وإنما يمكن الحديث عن مقادير النجاح ودرجاته، بالنظر للشعارات والأهداف، وقد كانت الشعارات هي التغيير باتجاه الحرية والكرامة والديمقراطية ، والوسيلة لذلك شعار: الشعب يريد إسقاط النظام، والنظام بالطبع غير الدولة، لكن الدول العربية التي قامت فيها الثورات مثل ليبيا واليمن وسورية، ما عادت فيها مؤسسات دولة على وجه التقريب، وإنما هناك جهات عسكرية تراجع طابعها الوطني، وتحولت إلى ميليشيات بعد قيام الثورات، وهناك مئات الألوف من الأعضاء العاملين في الأجهزة الأمنية السرية والعلنية "

أما سليمان العسكري رئيس تحرير مجلة " العربي" الكويتية فقد قال إنه " من المؤكد أنه بعد أكثر من عام على الإطاحة بالأنظمة الحاكمة في كل من مصر وتونس وليبيا قد حدثت تغيرات، تتفاوت في كل من الدول الثلاث، وفقاً لتباينات الظرف السياسي والاجتماعي في كل منها .ولنتفق بداية أن ثمة تغييرات قد حدثت، أبرزها خلق حراك سياسي واجتماعي هائل في الدول الثلاث، تختلف من دولة إلى أخرى، ونجاح حركات التغيير أو إخفاقها يرتبط بالعديد من العوامل، أهمها مدى الوعي الذي تتمتع به شعوب هذه الدول، والذي يمكن أن يسهم في إنجاح عملية التغيير أو إبطائها .

مع ذلك، يمكن القول إن المناخ العام للأنظمة الشمولية، التي سبقت الثورات في تلك الدول الثلاث، قد خلقت الكثير من الآفات الاجتماعية والاقتصادية، التي تفجرت جميعاً عقب سقوط الأنظمة الديكتاتورية في الدول الثلاث".

وفي رأي الأستاذ السيد يسين المستشار الأكاديمي لمركز الأهرام للدراسات أنه " لا يمكن الآن تقييم الثورات التي حدثت في كل من تونس ومصر وليبيا من زاوية نجاحها أو إخفاقها ، وذلك لقصر المدة التي مرت على وقوع الأحداث الثورية في هذه البلاد، نعرف من الدراسة المقارنة للثورات العالمية أن العملية الثورية التي تتمثل في إسقاط النظام القديم وتأسيس نظام سياسي واجتماعي جديد، تحتاج إلى سنوات طويلة، وذلك لأن التغيير الجذري لبنية المجتمع لا بد له أن يعمل على إعادة صياغة التوجهات الأساسية، من خلال صياغة نسق جديد من القيم، يتفق مع أهداف الثورة في كل البلاد التي قامت فيها".

وأما صالح المانع أستاذ العلوم السياسية فقد ذكر أنه "في ظني، فإن الثورات العربية الحالية مثلها مثل الثورات الكلاسيكية السابقة، سيجنى ثمارها أشخاص وفئات منظمة أكثر من أن يجنى ثمارها أبناء الثورة الذين قادوها، واستُشهِد جزء منهم في غمارها، ولا يمكن تقييم الثورات خلال عام أو عامين من عمرها، فلا زلنا في غمار العاصفة، وحين تهدأ العاصفة بعد سنوات عدة، يمكننا الحكم بنجاح هذه الثورات من عدمها، على أن التوقعات من شرائح عديدة من الشعوب العربية تفوق بكثير قدرات هذه الأنظمة، مهما حسنت نيات قادتها، على الوفاء بمطالب هذه الشعوب.والثورات بحسب المفهوم "الهيجيلى" عبارة عن صراع بين قوى متضادة، ولن يكون الوليد بالضرورة صورة من الوالد، ولا يمكن الحكم منذ الآن على شكله وهيئته".

أما صلاح فضل أستاذ النقد الأدبي بجامعة عين شمس قال " أحسب أن ثورات الربيع العربي، ودعونا لا نبخل عليها بهذا الوصف مهما كانت مواقعنا منها أو رؤيتنا لها، فهذا على الأقل أصبح وصف العالم الخارجي لها، وما انتهت إليه حتى الآن في كل من تونس ومصر وليبيا واليمن لا يمكن اختزالها في أنها مجرد

إطاحة آلية بالنظم الحاكمة في هذه البلاد، بل كانت أعمق من ذلــك بكثيــر.هـــي استجابات عارمة ودرامية لدينامية إيقاع التحولات التاريخية الكبرى فـــي العـــالم المعاصر، عندما فوجئت باستعصاء التحقيق العاجل لهذه الأهداف أُصيب بكثير من الإحباط الجديد، فعمدت إلى الفوضى والعنف، وأطفأت قدراً مـــن بريـــق الثـــورة الخاطف".

وعند طارق بعثرى الأستاذ بالجامعة الأمريكية في بيروت: ففي رأيه أن " حركات التغيير قد نجحت: على نحو مذهل، في إسقاط المستبدين ومعهم الأنظمـــة التسلطية، وفتحت أمام المواطنين كل المواطنين، مسالك الحرية والكرامـــة التـــي حرمتها عليهم تلك الأنظمة أو سلبتها منهم".

وفي اعتقاد عبد الإله بالقزيز أستاذ العلوم السياسية بجامعة الحسن الثـــاني في المغرب أن" حركات التغيير " نجحت في إطاحة النظم القائمة : رأس النظـــام، وبطانته وأخدانه، غير النظام السياسي الذي لا يتجسد في أفراد بعينهم، وإنما فـــي مؤسسات، وفي علاقات : نحتاج هنا، إلى تدقيق نظري عميق في مفهـــوم النظـــام السياسي نتوسل قيه مفاهيم علم السياسة، وعلم الاجتماع السياسي، حتى لا ننـــساق وراء اللغة اليومية السيارة، ونخطئ تقدير الموقف السياسي، في الأحـــوال كافـــة، مازال هناك من يجادل في مصر، مثلا في وجاهة مقولة سقوط النظـــام ، حاشـــداً لجدله قرائن عدة لا تعدم الحجية، في صيغة ثانية لسؤال "النجاح" (في بناء ســـلطة شرعية)، نحن أمام الحاجة الفكرية والأخلاقية إلى ملاحظة جملة أمـــور: الفجـــوة الخرافية بين الشرعية الثورية لميدان التحرير، وقواه الشبابية والمدنية، والـــشرعية الافتراعية للسلطة الجديدة وقواها السياسية، فقدان روح التوافق والتشارك بين قوى التغيير وغياب مؤسساتها وظواهرها".

وعند عبد الحسين شعبان أستاذ القانون الدولي أن " الأمر يحتاج إلى وقت لتقديم حكم أقرب إلى الدقة بعيداً عن التفاؤل المفرط والتشاؤم المحبط، وهما القراءتان اللتان سادتا بُعيد الربيع العربي، بعدما تم النظر إليه بلحظته الراهنة وتداعياته، وما أعقب ذلك من فوضى وانفلات، وإذا كانت حركات التغيير التي بدأت شرارتها الأولى في تونس وانتقلت إلى مصر ومنها إلى العام العربي، سواء تمكنت من تغيير الأنظمة الحاكمة أم لم تتمكن، فقد رفعت شعارات الحرية والكرامة الإنسانية ومحاربة الفساد وتحقيق العدالة الاجتماعية، وإن هذه الشعارات تمثل مساوئ طويلة الأمد بحاجة إلى تراكم وتطور تدريجي.

أما عبد السلام المسدى أستاذ القانون الدولي فقد اعتبر أنه " لم يمضِ على انفجار الأوضاع في عدد من الأقطار العربية إلا وقت وجيز جداً، بمقياس زمن الثورات، إذ يقرئنا التاريخ أن الثورة التي تهدأ الأوضاع سريعاً عقب حدوثها هي ثورات كاذبة، والهدوء الذي يتلوها إن هو إلا نذير بانفجار جديد، إننا نعيش في هذه الأيام برهة استثنائية، ووعينا بحركة التاريخ متماهٍ مع وعينا بالزمن التاريخي".

أما على أومليل المفكر وسفير المملكة المغربية في لبنان، فقد اعتبر أن" تعثرات حركة التغيير لا ينبغي أن تنسينا إنجازاتها التي تحققت لحد الآن، فقد أسقطت أربعة أنظمة استبدادية دامت لسنوات طويلة، في تونس ومصر وليبيا واليمن، وجعلت الاحتكام إلى صناديق الاقتراع، بغض النظر عن الرضى أو عدم الرضى بنتائج الانتخابات، وجعلت الناس يجربون ممارسة الحريات على الرغم من الانحرافات في ممارستها هنا وهناك، إلا أن هناك زمانين : زمان الثورة، وهو زمن كثيف تحصل فيه أشياء خارقة لم يكن توقعها متصوراً، حتى في الأحلام، وعلى رأسها إسقاط أنظمة راسخة في الاستبداد، والزمان الثاني هو زمن بناء

الدولة الديمقراطية والتنمية الاقتصادية، وهو زمن طويل المدى قد تتخلله انتكاسات وتعقيدات سلبية ، وقد ينجح في تحقيق أهداف الثورة وقد لا ينجح".

وعند على حرب الكاتب والفيلسوف اللبناني "نحن إزاء تحـولات جـسيمة وخطيرة، شكلت نقلة نوعية، تغيرت معها المعطيات، وانقلبت المعـادلات، فتغيـر مجرى الأشياء، بقدر ما تجددت معاني الكلمات والمصطلحات، ولذا تـدخل معهـا المجتمعات العربية في طور جديد، ولا عودة بعدها إلى الوراء، ثمة فاعلون جـدد ظهروا على المسرح شكلوا نماذج مختلفة بأنماطهم في التكفير والتخيل، وأساليبهم في العمل والتواصل بهذا المعنى، فما حدث، مع سقوط الأنظمـة، لـيس بـالأمر اليسير، وإنما هو إنجاز، لا سابق له، تغيرت معه الصورة النمطية الـسلبية عـن العرب في العالم، ومن العسف أن ننكر ذلك، ولكن الثورات، بوصـفها لحظـات استثنائية، هي أشبة بشهر العسل، فبعد سقوط النظام السياسي، على وجه السرعة، وكما حصل في تونس ثم في مصر: كشف المجتمع عن مساوئه وآفاته، ومن هنـا فإن عملية تغيير بنية مجتمعية، لا تتم بين ليلة وضحاها ، ولا أحد يملـك بـشأنها وصفات جاهزة، تنقلنا من وضع إلى آخر، في واقع كوني يزداد تشابكاً والتباسـاً، بقدر ما يزداد تسارعاً وتأزما، في علاقاته ومصائره، كما في قضاياه ومشكلاته".

أما المفكر البحريني على فخرو فقد أوضح أن "مسار حركة التغيير ونتائج الثورات والحركات الإصلاحية اختلف من قطر إلى قطر آخر، نظـراً لاخـتلاف ظروف كل قطر، من جهة، لكن هناك جوانب مشتركة، لقد كسرت حركات الربيع العربي الشعبية حاجز الخوف والوهن التاريخي، الذي عاشته المجتمعات العربيـة عبر القرون، وهذا مهم للغاية، كذلك خرج المواطنون العرب من حالة اللامبـالاة بشأن العام والانشغال بالذات، وهذا أمر سيقود إلى مزيد من الحيوية في الـساحات السياسية العربية، هل كان ذلك كافيا لإنتاج مسار حركة تغيير ناجحة بعد الحركات

الثورية؟ الجواب لا يُوصف بالنجاح أو الإخفاق، الجواب هو أن الثورات الكبرى هي عبارة عن سيرورة، تمتد عبر زمن طويل، وتتميز بالصعود والهبوط ، بالنجاحات والإخفاقات، بالتردد والإقدام، بالأمل واليأس، حتى تستقر على حال متوازن معقول، من هذا المنطلق يجب أن نحكم على فترة ما بعد الثورات في الأقطار الثلاث المذكورة وفي غيرها من الأقطار".

وفي اعتقاد عمر كوش الكاتب والباحث السوري "أن من المبكر الحكم على مسار حركة التغيير التي أحدثتها الثورات العربية في كل من تونس ومصر وليبيا واليمن، ذلك أن مرحلة جديدة من التاريخ بدأت في التشكيل، وتحتاج إلى سنوات عديدة للحكم على مسارها، وتحديد مواضع النجاح والإخفاق، لكن ذلك لا يمنع من تبيان وتلمس ما أنجزته الثورات بعد أكثر من عام على إسقاطها الأنظمة الاستبدادية الحاكمة، وما لم تتمكن من استكماله وتحقيقه، إذ مازالت تحديات وصعوبات كثيرة تعترض طريقها، ولن يكون من السهل التخلص من إرث وتبعات الاستبداد ومواطنه ومركباته".

وعند فالح عبد الجبار الباحث والأكاديمي العراقي أن "عملية الانتقال الجارية حالياً تنطوي على طورين، أو مرحلتين، الأولى هي " فك النظام القديم، أي فتح المجال السياسي المغلق ليصبح مجالات تنافسياً، أي تعدديا بالتعريف، وهذا ما حصل في أغلب الحالات، المرحلة الثانية هي إرساء قواعد المجتمع الحديث الديمقراطي الدستوري، هنا تبدأ المشكلات ".

واعتبر فهمي جذعان أستاذ الفلسفة الأردني أنه " باستثناء الحالة التونسية- التي ما تزال تعانى من صعوبات حقيقية- تشير كل القرائن إلى أن مسار الحراك في كل من ليبيا ومصر يشهد أحوالاً بالغة التعقيد، ومن المؤكد أن حالة " العقم " هي التي تتلبس الوضع الليبي، وان حالة " العبث" هي التي تتلبس الوضع المصري، أما الليبيون

فإنهم ما يزالون يسيجون أنفسهم بقيود التناحر القبلي والمراوحة في المكان وغياب الرؤية والهدف، وأما المصريون فإنهم يعانون من وطأة الاستبداد العسكري وإغراءات الاستبداد الديني، وفوضى الاجتهادات القانونية والقضائية، والتمترس خلف المصالح الخاصة وتقديمها على مسألة " الخلاص الوطني".

أما ليلى شرف وزيرة الإعلام السابقة في الأردن، فقد اعتبرت أن "مثل هذا التقييم الذي يطلبه السؤال لا يمكن أن يكون دقيقاً، في هذه المرحلة المبكرة، وعلينا الانتظار سنة أخرى لكي تستقر الأنظمة الجديدة بصورة أكثر وضوحاً، فالثورات تحتاج إلى وقت لتحديد مسارها بعد نجاحها، بخلاف ما شهدناه في السابق في زمن الانقلابات العسكرية، الأمر المقلق في مصر هو الهوة الواسعة في المنظمات والتصورات لشكل الدولة المستقبلي، ونوعية نظامها ومضامينه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتربوية، والصراع بين الحداثة والمحافظة أخذ في التأزم، ولا يمكن أن نستقرئ مستقبل العلاقة بين التيارين في هذه المرحلة، وهذا ينعكس بالطبع على صورة المجتمع المصري المستقبلي".

وفي اعتقاد محمد الرميحى الكاتب والمفكر الكويتي أنه " لا يستطيع أن يعطي– حول ما إذا كان التغيير الذي حدث في كل منِ مصر وتونس وليبيا، أو حتى اليمن، هو في طريق (النجاح) أو (الإخفاق) – رأياً قطيعاً ونهائياً، فلا زال الوقت مبكراً على إصدار حكم نهائي، لأن الحديث ما زال يتشكل، وهو في صيرورة انتقالية متغيرة يفاجئنا كل بضعة أيام بمستجدات لم نكن نتوقعها، نتيجة لكل ما سبق، فإن التخلص من إرادة السبات السياسي الطويل ليس بالسهل أو اليسير بعد حراك ربيع العرب، فالتحقت تلك الشوائب بالممارسات الحالية السريعة في ضوء الوقت اليسير الذي مر بعد أحداث الربيع".

واعتبر محي الدين عميمور المفكر والسياسي الجزائري أنه "مما لا شك فيه أن سقوط نظام ما، حتى بفرض اعتبار أن سقوطاً أصاب رأس النظام فقط ، وليس كل النظام، هو إنجاز يجعل العودة إلى الخلف عملية شبة مستحيلة، لكن عدم العودة السريعة للوضع العادي في البلدان التي أسقطت قياداتها لا يبرر استعمال تعبير" الإخفاق"أو الفشل، وربما أمكن استعمال كلمة" التعثر".

وفي رأي مراد وهبه أستاذ الفلسفة المصري أن " التغيير في مصر وتونس وليبيا لم ينجح، والرأي عندي أن التغيير يقع بين"وضع قائم" يعانى أزمة و"وضع قادم" يحاول رفع الأزمة، وإذا كانت الأزمة تنطوي على وجود تناقض، فالسؤال إذن : ما هو التناقض الذي كان كامناً والمطلوب رفعة أو إزالته بوضع قادم، أي برؤية مستقبلية؟ التناقض الذي كان كامناً في الوضع القائم في مصر وتونس وليبيا هو وجود رئيس دائم لا يتغير، مع زعمه بأن سبب دوامه مردود إلى أنه: بفضله ، وليس بفضل أحد سواه، يتمتع للشعب بالرفاهية، ومع ذلك كان الشعب محروماً من توفير الحاجات الأساسية، لأن الرئيس الدائم، وما لديه من سلطة مطلقة، كان ينهب منتجات الأمة هو وأعضاء حزبه، ومن هنا قامت حركة التغيير، إلا أن هذه الحركة وقفت عند حد تدمير الوضع القائم، من دون أن تقدم بديلاً عنه، وهو ما أسميه (الوضع القادم) السبب الأول مردود إلى أن الشباب هم الذين انفردوا بتفجير التغيير، ولكن من دون قيادة فكرية، أما السبب الثاني فمردود إلى غياب الأحزاب المواكبة لحركة التغيير، وسبب غيابها أنها حديثة النشأة، إذ نشأت في مصر، على سبيل المثال، في النصف الثاني من الأربعينيات في القرن الماضي، وبقرار من الرئيس السادات، ومن هنا تكون حركة المثقفين في الأحزاب محكومة بمنشئها، أي بالسلطة السياسية".

أما مصطفي ألفقي الدبلوماسي والكاتب السياسي فقال إنه" يجب أن نعلم أن الانتفاضات الكبرى تأتى من رحمها نظم جديدة، وهذا تأكيد لفكرة الخلّاقة، فإذا

كانت وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة قد أشارت إليها في سياق الأحداث الدولية والتغييرات الإقليمية، فإن الأمر ينسحب أيضاً على الأوضاع الداخلية، إلا أن هناك محظورا ينبغي أن يتنبه إليه الثوار في كل الأقطار، خصوصاً في مصر وتونس وليبيا، وهو أنه ليست كل فوضى خلّاقة بالضرورة ، فهناك نوع من " الفوضى السوداء" التي تهدم ولا تبنى، تحطم ولا تشيد، تتفرغ للانتقام، ولا تسعى للبناء، تتصرف بالدفاع وفقاً لخيالات وأوهام ليست دائما صحيحة ".

واعتبر معن بشور المفكر والسياسي القومي العربي أنه "في مصر وتونس فأعتقد أن الضمانة لنجاح حركة التغيير تكمن أولا في أن يسود منطق الائتلاف بين كل قوى الثورة ،أيا كانت انتماءاتها ومنابتها الأيديولوجية والسياسية، على قاعدة أن الثورة لا تنتهي بمجرد الإطاحة برأس النظام، فهذه الإطاحة هي بداية الثورة التي تحتاج إلى تماسك بين القوى الثورية كافة، وإلى مراجعة دائمة للمسيرة وإسقاط لمنطق التفرد والإقصاء والاستئثار والاحتكار، وهو منطق مسؤول عن إجهاض الكثير من الثورات" .

وفي اعتقاد ميشال كيلو الكاتب السوري " أن من المبكر الحديث، بالمعنى السياسي، عن نجاح مشروع التغيير العربي، وأظن أنه ستمر فترة غير قصيرة، ستتفاوت من بلد عربي لآخر، وستتخذ أشكالا جد متنوعة، قبل أن يقوم الواقع السياسي على الحرية كمبدأ وكضرورة ، وقبل أن يتماهى معها وينطلق منها، وينبني عليها، إلى الحد الذي يصير من الصعب معه العودة عنها وعنه، لأن هذه العودة ستحدث خللا هيكيا خطيراً في توازن المجتمع والدولة، نحن في بداية مسار تاريخي هائل الأبعاد، سيأخذنا نجاحه إلى ما حققه العالم الحديث، كما سيؤدى بنا فشله إلى انتكاسة تاريخية، قد تمتد لحقب طويلة وكارثية".

أما السيد هاني فحص من لبنان فقد قال إنه "في تقديري أن النجاح والفشل مفهومان مركبان ونسبيان، فليس هناك نجاح مطلق وناجز ونهائي أو تام، كما أنه

ليس هناك فشل كذلك، وعليه فهناك نجاح نسبي لحركة التغيير في كل من مصر وتونس وليبيا.. والنسبة عموماً عالية ومتفاوتة في علوها بين هذه البلدان، وعليه فإنني لا أعتقد أني أغامر عندما أعتبر مثلاً أن نسبة النجاح في تونس، تفوق نسبة النجاح في مصر وليبيا، وأن احتمالات استمرار النجاح في تونس أكثر منها في مصر وليبيا".

ونبه هشام نشابة رئيس جامعة المقاصد في بيروت إلى إنه "لا يجب أن ننسى، ونحن نستعرض الأوضاع في مصر وتونس وليبيا منذ أكثر من عام، أن ما يجرى في هذه الدول لم يكن ثورة بالمعنى الصحيح، وإنما هو " تغيير" في النظم الحاكمة وإطاحة بالقيادة التي كانت تتحكم بالبلاد، كما لابد من الإشارة إلى أن حركة التغيير في هذه البلاد لم تبنَ على نظرية في الحكم، ولا على عقيدة سياسية واضحة الغايات والأهداف، أو رسالة للأمة وعتها القيادات وسعت إلى تحقيقها في البلد ذاته، أو على صعيد الأمة العربية أو على صعيد الإنسانية جمعاء، فحركة التغيير في تونس ومصر وليبيا نجحت حتى اليوم نجاحاً سلبياً، إذا جاز التعبير، بمعنى أنها غيرت الحكام ومهدت لقيام مجتمعات جديدة، ولكنها لم تعط للشعوب قضية تلتف حولها وتستقطب طاقاتها".

وهكذا نجد أن ثمة اتفاقاً بين أغلبية الثلاثين مفكراً على أنه من المبكر الحكم على الثورات العربية بالنجاح أو الإخفاق، فالثورات في حالة جدل وصراع، وفي حالة صيرورة وانتقالية متغيرة، وأنه على الرغم من أنها تتجاذبها تيارات شد وجذب، يدفعها بعض إلى الأمام، ويشدها البعض الآخر إلى الخلف، أما موضع الاتفاق الثاني فهو أنه على الرغم من حالة عدم اليقين حول الثورات إلا أن الثابت أنها لن تعود إلى العهود الديكتاتورية التي ثارت عليها وأسقطتها.

رؤية جديدة لمصر

في أعقاب ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ كان الاتجاه السياسي والفكري الذي ساد في المؤسسات الثقافة والتعليمية هو ما يشبه إنكار العهد الليبرالي الذي شهدته مصر منذ ثورة ١٩١٩ ثم دستور ٢٣، وما حرّكه من انطلاقات ثقافية وفكرية وفنية وسياسية، بمثلث في تعدد الأحزاب، هذا فضلاً عن إطلاق جهود في مجالات العمل الاجتماعي، والاقتصادي، وإصلاح التعليم بل والسياسة الخارجية.

هذا الكتاب الذي أصدر المركز القومي للترجمة مؤخراً ترجمته العربية، وألفه مجموعة من المؤرخين وترجمته الأستاذة عايدة الباجوري في ترجمة دقيقة يعيد النظر في هذه الرؤية لكي يسجل أن ثورة ٢٣ يوليو لم تكن انقطاعا عن هذه المرحلة التي مرت بها مصر ١٩١٩-١٩٥٢، وأن العديد من الأفكار والإجراءات التي قامت بها الثورة كان لها جذورها في المرحلة الليبرالية، وبداءة يناقش الكتاب المفهوم المصري بأن" مصر أم الدنيا" وإن كان هذا المفهوم يتنافس مع تلك البلدان الشرق أوسطية الأخرى: حيث يدعى بعض الإيرانيين أن بلدهم هي"محور الكون"،

في حين أن الأتراك قد يؤكدون أن أسلافهم نشروا الحضارة من آسيا حتى جميع النقاط الموجودة على البوصلة، ومع ذلك، ورغم هذه الادعاءات، إلا أن مصر قد أثبتت مركزية وضعها، مما يفيد أنها كانت القوى المحركة الرئيسية لمنطقة الشرق الأوسط، في المائتين وخمسين سنة الماضية، فقد كانت أول منطقة شرق أوسطية تتعرض للتعدي الأوروبي على أراضيها الإقليمية وذلك أثناء غزو نابليون لمصر عام ١٧٩٨-١٨٠١، ثم جاء حكم محمد على (حكم ١٨٠٨- ١٨٤٩) فوضعت مصر نمطاً لنظام ناجح نسبيا للإصلاح البيروقراطي تحت قيادة عسكرية استبدادية، وهذا الإصلاح كافح أيضاً من أجل إقامة دولة يحركها اقتصاد اكتفاء ذاتي ذو سلطة سياسية جلبت إيرادات مربحة.

جاءت نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بالاحتلال الأوروبي، وشهدت مصر خلالها حركة ديناميكية، ظهرت فيما بعد في أجزاء أخرى من شمال أفريقيا والمشرق العربي، وشملت العلاقات بين القوى المحلية والمثقفين الوطنيين المناهضين للاستعمار والأسياد الأجانب، والنخبة المحلية التي توافقت معه، وساعدت كذلك على انبثاق درجة عالية من التنوع الاجتماعي السياسي، والصحافة التعليمية، وازدهار الحركة من أجل الإصلاح، وزيادة الطلب المجتمعي على تطبيق تحديث الإسلام، وبالنسبة للحالتين الأخيرتين، فقد قامت مصر بتأدية دورها كمركز تجمع للأفراد من ذوى التفكير المماثل، الذين جاءوا من أراضٍ أخرى في الشرق الأوسط، لتصبح بذلك مركز إشعاع لمثل تلك الأفكار.

فقد أصبح من الشائع عند القيام بمناقشة الفترة التاريخية والسياسية والتغيير الاجتماعي والاقتصادي في الشرق الأوسط، أن تبدأ تلك المناقشات بمصر، حيث أن انقلاب الضباط الأحرار الذي تحول إلى ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، جاء إلى العالم العربي بعصر التحرر الوطني، ليحل محل السياسة غير الفعالة، وحكم النخبة التي

أهملت الجوانب الاجتماعية ليضع بدلاً منها أنظمة واعية وتقدمية من نتاج الطبقات الاجتماعية الشعبية، التي جاءت عبر الأكاديميات العسكرية، آخذة من دور جمال عبد الناصر، والعسكريين الشباب في العراق وسوريا وليبيا وأماكن أخرى، نماذج لها في سعيها لإعادة تشكيل المجتمعات والسياسات والاقتصاد.

وبالمثل : كان فشل مصر في حرب يونيو ١٩٦٧ رمزاً لدى احتياج بقية العالم العربي إلى إعادة تقييم أسس المفاهيم والأخلاق في السياسة، وفي حين أن تجربة مصر ما بعد ١٩٧٣، وإن كانت تختلف في بعض الجوانب عنها في سوريا والعراق وبقية دول شمال إفريقيا، فإنها لا تزال تجسد أنماط شرق أوسطية أكبر، وفي نهاية المطاف فقد تحاشى أنور السادات الدخول في صراع عسكري مباشر مع إسرائيل، وقد احتذت به الدول العربية الأخرى، تماما مثل ما فعلت فيما يتعلق بخطوات الانفتاح الاقتصادي والخصخصة، التي طبقت في اقتصاديات دول شرق أوسطية أخرى، وفي الآونة الأخيرة ، وربما الأكثر أهمية، فقد أدى تحجر النظم السياسية إلى ظهور طائفة إسلامية نشطة تعمل على تحدى الدول غير الكفء، في جميع أنحاء العالم العربي، وإن ظهرت أكثر تلك الطوائف ضراوة في مصر.

ويجد الكتاب أنه إذا كان صحيحاً أن مصر تجسد الاتجاهات في الشرق الأوسط، فإنه من الصحيح أيضاً أن هذه الرؤية تتجاهل فترة بالغة الأهمية من تاريخ مصر، وربما تفوق في أهميتها مراحل أخرى مرت بها مصر، ونعنى بذلك فترة الأعوام ١٩١٩-١٩٥٢ ، عندما تشكلت نخبة من المصريين (الوفد)، وقامت بزيارة المندوب السامي البريطاني، وكانت حافزاً لإشعال ثورة، ثم انقلاب ١٩٥٢ بعد ذلك، وغالباً ما يفسر الانقلاب على أنه مؤشر على فشل النظام الملكي الاجتماعي والسياسي والفكري والاقتصادي في مصر، ومع أن الفترة من ١٩١٩ حتى ١٩٥٢ ، التي يشار إليها بأشكال مختلفة على أنها "التجربة الليبرالية "أو"

الحقبة البرلمانية" و"الفترة الملكية" أو "سنوات الملكية الدستورية"، ما زالت لا تتلقى ما يكفي من اهتمام العلماء، فإن هذه الفترة تعرض ثقافة تنبض بالحياة والديناميكية المجتمعية، بجانب إرث فكرى سياسي يتطلب ثقافة متجددة من التركيز، ويقدم هذا الكتاب عرضا لهذه الكثافة المتجددة، مع التركيز على الوسائل التي جعلت من تلك الفترة مرحلة مهمة بالنسبة لإحداث لاحقه في القرن العشرين مواجهة التحديات الكبيرة في مجال التنمية الاقتصادية، والتعليم والرعاية الاجتماعية.

ويؤكد الكتاب مفهومة حول هذه المرحلة أنه إذا نظرنا من منظور آخر، فإن فترة الملكية الدستورية تعد أكثر أهمية، وتظهر إنجازات رئيسية، إضافة إلى تحديات مستمرة، وإذا قارننا بين الدول التي انضمت إلى جامعة الدول العربية في عام ١٩٤٥، ومقرها القاهرة، فإن مصر الملكية كانت أكثر الدول سيادة، وعلى وجه الخصوص بعد إنهاء المعاهدة الإنجليزية المصرية " معاهدة ١٩٣٦ " الأمر الذي زاد من تقليص الدور البريطاني في السياسة المصرية، فمنذ عام ١٩٢٣ كانت بريطانيا قد منحت مصر استقلالاً محدوداً- بموجب تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢- بما يعنى أن جميع مجالات الشئون الداخلية، والتي لا علاقة بها بالأمن والاتصالات الإستراتيجية، أصبحت حكرا على المصريين أنفسهم، وهكذا أصبحت مصر تختلف تماما عن غيرها من الدول العربية، باستثناء المملكة العربية السعودية، وبالمثل، وعلى الرغم من أن الثالوث الحاكم المتمثل في الملك وبريطانيا والأحزاب السياسية، جعل من الحكم النيابي حكماً مختلاً ، فإنه كان يوجد بالفعل نظام برلماني.

ويواصل الكتاب تسجيله لما شهدته هذه المرحلة بأنه في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى واصلت مصر تقدمها بتواضع، وإن كان حقيقياً، وقاد القطاع الخاص عملية التنمية الاقتصادية، مع الحفاظ على مبدأ الكفاية المالية،

وعلى نقيض من وضعها الحالي، فقد استمرت مصر خالية مــن الــديون نظــراً للظروف العالمية، ونشاط السكان الأصليين، إضافة إلى ذلك فقد نبتــت مجموعــة صغيرة من رجال الأعمال المصريين، بجانب بعض الصناعات الوليدة التي لبــت الاحتياجات المحلية والإقليمية، وقد نتج عن التوجهات الاقتصادية الجديــدة ومــا صاحبها من التنقل عبر الحدود الجغرافية لبعض المصريين مزيداً مــن تــشكيلات اجتماعية جديدة برزت على الساحة، شملت الطبقة العاملة الحــضرية، والقطــاع العمالي في المناطق الريفية، وحديثاً المثقفين ذوى الياقات البيضاء، الــذين ســعوا لتشكيل مفاهيمهم الخاصة بالنسبة للتقاليد والحداثة، وقد عملت كل من لوسي ريزوفا وسامية خلوصي على تحليل كل من هذه الطبقات الاجتماعية الجديدة، في حين أن الفصل الذي كتبه أندرو فليبر يستكشف جانباً واحداً من مشاريع توسع الأعمال في تلك الآفاق الجديدة.

يعتبر الكتاب أن من الإنجازات التي تمت في الفترة من ١٩١٩-١٩٥٢ ولم تأخذ حقها من الدراسة، كانت معنية بالتعليم.

فضلاً عن أنه تعد المبادرة التي وقعت فــي مجــال الــسياسة الخارجيــة والإصلاح الاجتماعي ذات دلالة على أهمية تلك الحقبة من التــاريخ المــصري، والتي أهملها معظم الكتاب، ورغم أن القادة المصريين لم يتمتعوا باســتقلال غيــر مقيد في هذا المجال، فإنه ومن الفصل الذي كتبه فريد لوسن يشير إلى أنهم بدءاً من الثلاثينات كانوا يبدون على وجه الخصوص اهتماماً متزايداً بالأحداث في شــمال إفريقيا والمشرق والخليج العربي، وبالتالي فمع تأسيس الجامعة العربية بالقاهرة في منتصف الأربعينيات، كانت الحقبة الملكية قد رأست معالم نظام مــا بعــد ١٩٥٢، الذي كان يبحث عن التدخل والهيمنة الإقليمية .

وكان الانتقاد الذي لا يتغير لمصر البرلمانية قد تركز على عدم اهتمامها الواضح بالشئون الاجتماعية، والاندماج الكامل للقطاعات المختلفة من السكان، ورغم أن النخبة المصرية كانت في المعظم تعتبر مقصرة في هذا الصدد، فإن التعرض لهذا التاريخ يحتاج إلى مراجعه ورؤية معتدلة، فمنذ العشرينات، يحث التربويون المصريون عن الحاجة لأن يستهدف التعليم احتياجات المصريين في المناطق الريفية والفقيرة على وجه الخصوص، وذلك لمصلحة الأمة ككل، كما أن الاشتراكية واتجاهات الفكر الماركسي، كما أظهر الفصل الذي كتبته سامية خلوصي، يدل على أن مثل هذه المخاوف كانت واضحة خارج الوسط التربوي، ونتج عن ذلك تأسيس وزارة الشئون الاجتماعية في عام ١٩٣٩، بالإضافة إلى تشريعات أساسية في الأربعينيات وبداية الخمسينيات، اهتمام متجدد بهذه القضايا، وكما يبين كل من إيمى جونسون وسكون دافيد ماكينتوش في الفصل الخاص بهما، فإن النخبة الاجتماعية نفسها بدأت بطرح مبادرات نشطة بالتعاون مع الدولة للنهوض بالمستوى الاقتصادي والاجتماعي بين جميع شرائح المجتمع المصري، وهنا أيضاً يجد المرء أن الأنماط التي تبناها نظام عام ١٩٥٢ استعان فيها ببعض هؤلاء الأشخاص.

كان ازدياد الفرص أمام المرأة، وتنامي قوتها المستقلة متمما للإصلاح الاجتماعي، وعلى الرغم من انعكاس التقدم النشط في الدراسات الخاصة بالنوع (ذكر-أنثى) فقد كان أكثر التركيز على الفترة ١٩١٩-١٩٥٢ نفسها، فالحركة النسائية في مصر خلال هذه الفترة نالت اهتماماً كبيراً .

وفي هذا السياق كانت مصر تعتبر كذلك رائدة في هذا المجال خلال النصف الأول من القرن العشرين، وكان الجدل دائرا بين الرجال والنساء حول دور كل منهما، وهويته في بلد حديث، يقع تحت السيطرة الاستعمارية الأوروبية.

وهناك سمة دائمة في مصر منذ القرن التاسع عشر وهي تنوع التعبير الثقافي والفكري، أما من خلال مصادرها أو من المجالات المحلية، وفي الواقع فإن كل فصل في هذا الكتاب يكشف أن الحقبة الدستورية في مصر هي بالتأكيد الأكثر حيوية في هذا الصدد، وقد أظهرت التأكيدات والمصادر التي استخدمتها ريزوفا، وخلوصي، ولوبيز وآخرون أن حرية الصحافة واستمرار ظهور وسائل إعلان جديدة هيأت الساحة لتنوع المجالات الاقتصادية، والسياسية والاجتماعية والسلوك الثقافي الديني، كما خدمت هذه السبل الجديدة عدداً كبيراً من القطاعات المجتمعية، حيث أظهرت مجموعة من الكتّاب من ذوى الخلفيات الأكثر اتساعاً، وكذلك الدوريات والمجلات، التي على الرغم من أنها كانت مثيرة للجدل إلى حد بعيد، فإنها عبرت عن تزايد حدة الفكر، خاصة فيما يتعلق بمسائل التعليم والرعاية الاجتماعية والعلوم، وكما بين آرثر جولد شميدت فإن المؤرخين المصريين كانوا أيضاً نشيطين خلال هذه الفترة وورثوا الطلبة اللاحقين لهم مجموعة غنية من المعرفة، وأيضاً نظرة ثاقبة في الاتجاهات للمفكرين الوطنيين.

ويدعو هذا الكتاب القراء لإعادة النظر في الحكم الذي كان مقبولاً في مصر خلال الفترة من ١٩١٩-١٩٥٢، فبدلاً من أن تكون فترة زحف للاضمحلال، تظهر هذه السنوات وكأنها جزء لا يتجزأ من تشكيل الدولة الحديثة، والتحول الاجتماعي، فالكثير مما هو مرتبط بمصر ما بعد ١٩٥٢، مثل الانطلاق من الماضي، ترجع جذور عملياته إلى الثلاثينات وبالمثل فإن الأعوام ١٩١٩-١٩٥٢ تملك كثيراً من الموروثات التي يجب أن يعاد تصورها في مصر اليوم، فالفكر الديناميكي لثورة ١٩١٩ نفسها، كما حلله جيمس ويدان، قد واصل تردد صداه خلال الخمس وثمانين سنة الماضية، كما جاء في تغطية لوسون للعلاقات الخارجية المصرية التي تكشف عن نواة لنهج أكثر تطوراً في الفترات الأخيرة، وكان معظم

أعمال وأيديولوجية المربين في مصر منذ الثلاثينات قد استقاها معلمـو الـضباط الأحرار، الذين كانوا هم أنفسهم معلمـي عهـد الخمـسينيات والـستينيات، هـذه الاستمرارية من العهد الدستوري إلى الناصرية واضحة في أولوية القضايا الريفية، كما هو واضح أيضا في أعمال جونسون، سواء هنا أو في مكان آخر، وبالطبع كما حقق فيها جيداً توفيق اكليمندوس فإن تخول فيلق الضباط المصريين ليصبحوا أداة حرة جاهزة كانت عملية طويلة الأجل، وذات خلفية اجتماعية تعود إلى الثلاثينات ، وأخيراً كما ذكرنا سابقا فإن كربوف تشير إلى أن الأحداث التي أدت إلى انقـلاب ١٩٥٢ نفسه مثل حريق القاهرة الكبير، ما زالت تلقـى صـدى عنـد الطبقـات الاجتماعية الرئيسية في مصر اليوم.

وفي الفصل الثاني يقدم فريد لوسـون للقـراء الأرض البكـر العريـضة المجهولة للعلاقات الخارجية المصرية خـلال العـشرينات والثلاثينـات، مناقـشاً مصداقية افتراض العلماء التقليدين قلة اهتمام القاهرة بالدول المحيطة بها خلال هذه الأعوام، وعلى النقيض يحدد لوسون عدة مناسبات قامت فيها الحكومة المـصرية بعرض مبادرات إقليمية مهمة، بما في ذلك التعامل مع القضية الفلـسطينية، وفـي تحقيقه لاعتراض القاهرة على محاولات إيطاليا إعادة رسم الحدود مع ليبيـا فـي أوائل ١٩٢٥، وكذلك جهودها في الوساطة بين اليمن والـسعودية خـلال أزمـة ١٩٣٤-١٩٣٥، يوضح النشاط الدبلوماسي المصري في ذروة النظام الملكي، كما يلقى الضوء على الحسابات الإستراتيجية التي اتسمت بها الدبلوماسـية المـصرية على الرغم من محدودية استقلالها عن بريطانيا.

وقد سهلت الإصلاحات العسكرية عام ١٩٣٦ لجمال عبد الناصر وأنـور السادات الالتحاق بالأكاديمية العسكرية، وبدراسة تمهيدية عن الأثر طويل المـدى لهذه الإصلاحات على الضباط المصريين يتحدى اكليمندوس القول المسلم به من أن

الجيش قبل ١٩٣٦ كان مؤسسة شركسية–تركية تولتها فيما بعد البرجوازية المصرية الصغيرة، ويكشف أنه حتى قبل ١٩٣٦، وفر المواطنون المصريون، من العائلات الغنية، وكذلك الجنود، من الأصول المتواضعة، العنصر الأكبر من الضباط.

وعلى هذا النحو أفرزت إصلاحات ١٩٣٦ نسبة من الديمقراطية في القبول في الأكاديمية العسكرية، ولكن ليس بالقدر الكافي لتعزيز صفوفها، وما يقابله من ارتفاع قابلية الضباط للانغماس في السياسة، كذلك درس اكليمندوس ديناميكية التنظيم السري لمجموعة الضباط التي أدت في نهاية المطاف إلى سقوط النظام الملكي في ١٩٥٢، وبينما أشار العلماء إلى وجود مجموعة كبيرة واحدة، يكشف اكليمندوس، عن مجموعات أخرى تكتلت مع الضباط الأحرار الذين قادوا انقلاب ١٩٥٢ ليشكلوا في نهاية الأمر مجموعة تضم القوميين والضباط الموالين للإخوان المسلمين، وهكذا بالإضافة إلى توفير معلومات تصحيحية تشتد الحاجة إليها، يحلل الكاتب آثار الديناميكية العسكرية لما قبل ١٩٥٢ التي ميزت النضال في السنوات الأولى لنظام عبد الناصر بعد ١٩٥٢ .

ومع ذلك فهذه فقط إحدى مكونات القصة، ومن خلال نظرة ثاقبة لرؤية مصر في سنوات ما قبل عبد الناصر، تشير كيربوف، في الفصل الذي كتبته، إلى أن حنين النخبة الليبرالية للزمن الماضي الجميل يحفزها إلى إحياء ذكرى الحريق كنهاية درامية للملكية، وليس بوصفة يوماً ثورياً شاملاً نزع شرعية النخبة المصرية نفسها.

الفصول في الجزء الثالث " العمل الاجتماعي، والخطاب الاجتماعي تعيد توجيه نظرتنا إلى مصر قبل ١٩٥٢، وذلك بتسليط الضوء على اهتمام المصريين بالإصلاح الاجتماعي والاقتصادي وحق الاقتراع، وتعود مياسكو إيكيدا في الفصل

الثامن إلى مجال التعليم، بحجة أنه على الرغم من سياسات عهد عبد الناصر بشأن مجانية التعليم وتوحيد برامج التعليم الابتدائي التي نالت الكثير من الاهتمام، فــإن جذور هذه الاتجاهات قد ظهرت في الثلاثينات والأربعينــات، وكانــت مناقــشات البرلمان والصحافة والتربويين المهنيين تجادل لتحقيق المساواة في فرص التعلــيم واستخدام التعليم في التقليل من الفجوات الاجتماعية والاقتصادية، كذلك تبين إيكيدا التنوع اللافت للنظر في الآراء، بينما تذكر القارئ بديناميكيــة تعبيــر التربــويين المهنيين فضلاً عن دور الوفد في هذه المناقشات، وكما أن نظام الحكم بعد ١٩٥٢ استفاد في كثير من الأحيان من المجهودات السابقة، فهذا الفصل يجبرنا على إعادة تقييم الحقبة الملكية الدستورية، ولا يقتصر هذا الفصل على تقديم عزيــزة حــسين للقراء كرائدة في مجال الإصلاح الاجتماعي المصري، ولكنه يظهر أيضاً كيف أن هذه الأنشطة تشكل نموذجاً للإصلاح الاجتماعي الذي تم إتباعه بعد ١٩٥٢.

في كشف الدور المهم للمرأة العاملة في المجال الطبي (الحكيمــات) فــي مصر الحديثة ويرتبط ذلك بالموضوعات التي عالجها جونسون وماكينتوش، فقــد دخلت المرأة في مصر مجال المهن الطبية والصحية في وقت مبكر عن نظيراتهــا في البلدان الأخرى بالشرق الأوسط، باعتبارها نتاجاً ثانوياً لبرنامج محمــد علــى للتحديث، وفي وقت لاحق، وفي النصف الأول من القرن العشرين، وبنفس الالتزام الاجتماعي عملت عزيزة حسين في العيادات والمستشفيات وبرامج الصحية العامة، وفي سياق المراجعة العريضة للأدب ذي الصلة، قيّمت جال اجر المساهمات الطبية للمرأة المصرية، مدافعة عن هذه الإنجازات التي تحتل مكاناً أكثر بروزاً في القالب الجديد المعاصر للديناميكية الاجتماعية المصرية في الفترة ١٩١٩-١٩٥٢.

أما على المستويات الفنية والثقافية فإن العصر الذهبي للــسينما المــصرية سبق إلى حد ما الخمسينيات التي لا تزال أفلامها تحظى بشعبية حتى يومنا فــإن

هذا الكتاب بتقديمه لنهج تحليلي جديد (لكل من الفئات المهشمة والشعبية) يشمل السياسة الداخلية،و السياسة الخارجية، والجيش والتعليم، والإصلاح الاجتماعي، والنوع، والطبقة، ووسائل الإعلام الشعبية، والفن والأدب، وأن رؤية جديدة لمصر تطرح فترة ١٩١٩-١٩٥٢ كأساس لمنحى البلاد في القرن العشرين، مشجعاً على مزيد من الدراسة لهذه الفترة

وينبه الكتاب إلى أن الحكم الثوري بعد ذلك استفاد من مجالات ثقافية وتعليمية عديدة كانت تتميز بها فترة حكم الملكية، وعلى الرغم من إبعادها لبعض الرموز المتألقة في تلك الفترة مثل القانوني الضليع عبد الرازق السنهوري، فإن بعض كبار المفكرين والمثقفين مثل نجيب محفوظ أو الكاتب الصحفي محمد حسنين هيكل لا زالوا جزءً ممن المشهد الثقافي في القاهرة.

ويستخلص الكتاب أنه والآن، وبعد خمسين عاماً، على التخلص من الحكم الملكي- فقد حان الوقت أكثر من أي وقت آخر لمحاولة إعادة تقييم شاملة لهذه العقود الثلاثة الحيوية في تاريخ مصر، حان الوقت لطرح أسئلة جديدة، وتحدي كثير من المعتقدات التقليدية التي تدعى المعرفة التامة بتلك الفترة، حان الوقت للمقارنة بين ما حدث من قبل وما أتى بعد ذلك. وهذا الكتاب بداية موفقة بلا شك، فالمعلومات الواردة به كانت نتاج اهتمامات واسعة، ونظرة شاملة واسعة للتاريخ تتجاوز حدود النظرة السياسية أو الاقتصادية الضيقة لتشمل إسهامات مهمة في تاريخ مصر التعليمي، والثقافي والنوعي، كما يتضمن أيضاً غزوات مهمة في رؤى مرجعية لممارسات البرلمان والسلطة العسكرية، بالإضافة إلى أعمال المفكرين في مجالات عديدة من فنون المعرفة ومن دول أخرى من ضمنها وأهمها مصر نفسها.

النظام القديم والثورة

يرتبك اليكسى دو توكفيـــل، Alexis De Tocqueville هـــو المفكـــر والمؤرخ الفرنسي الذي عاش في القرن ١٩ وهو أحد أبناء الارستقراطية الفرنسية بكتابة الشهير "الديمقراطية في أمريكا" Democracy in America والذي وضعه خلال رحلته الأمريكية عام ١٨٣١، يرتبك حين جذبته هذه التجربة التاريخية التي تأسست في العالم الجديد، وجذبه أكثر أساسها ونظامها الديمقراطي، الذي انـــصبت دراسته عليه، وقاس جميع جوانب الحياة الأمريكية ومؤسساتها من منظور وهـــو تأثرها به، وقد أصبح هذا الكتاب مرجعاً كلاسيكياً لكل من يناقش الديمقراطية فـــي أمريكا، بل أصبح المرشحون لرئاسة الأمريكية يستـــشهدون بـــه فـــي حملاتهـــم الانتخابية غير أن مالا يقل أهمية هو كتابة " الثورة الفرنسية والنظام الجديد " الذي أصدره مؤخراً المركز القومي للترجمة ونقله إلى العربية في ترجمة دقيقة وتقـــديم لكل فصول الكتاب الأستاذ خليل كلفت، وبداءة يحدد اليكسى دو توكفيل موضـــوع كتابه "النظام القديم والثورة"

L`Ancien Regime et la revolution منذ الجملة الأولى في مقدمته، قائلاً: " الكتاب الذي أقدمه الآن ليس أبداً تاريخاً للثورة الفرنسية، فذلك التاريخ مكتوب بصورة أروع من أن أفكر في إعادة كتابته، إنه بالأحرى دراسة عن هذه الثورة".

وعلى أساس" دراسته" ونتائج تلك الدراسة، يبرز توكفيل جوهرها الحقيقي الذي لا تقتصر أهميته على فهم الثورة الفرنسية، بل تمتد لتشمل مفهوم الثورة الاجتماعية بوجه عام، ما إذا كان لنا أن نعرف الثورة الاجتماعية باختصار بأنها الانتقال من نظام اجتماعي إلى نظام اجتماعي آخر، فإن الجوهر الحقيقي لبحث توكفيل هو أن هذا الانتقال لا يتمثل في ضربة عنيفة واحدة هائلة تفتح الباب أمام تحول تاريخي (مثلا: ثورة ١٧٨٩ أو بالأحرى ثورة (١٧٨٩- ١٧٩٤)، بقدر ما يتمثل في عملية تاريخية كبرى تسبق وتعقب مثل هذه الضربة العنيفة الواحدة على مدى عقود وأجيال قبلها وبعدها، فنحن نعلم، اليوم علِم اليقين، أن فرنسا قد انتقلت من الإقطاع إلى الرأسمالية، ولا شك في أن هذا الانتقال حدث خلال عهد بالغ الطول عن طريق أداة اسمها الثورة، أو بالأحرى فإن هذا الانتقال هو الثورة ذاتها، ولكن ما هي الثورة ؟ هل هي "حدث" ١٧٨٩؟ أو " حدث" ١٧٨٩-١٧٩٤؟ هنا يأتي توكفيل بحدسه وعمله ومنهجيته ومعرفته وعبقريته ليقول لنا إن الثورة الفرنسية هي ما قبل وما بعد حدث ١٧٨٩، فالثورة هي النظام القديم كما أنها حدث ١٧٨٩ كما أنها نتائج هذا الحدث على المدى الطويل، الثورة ثورتان ومرحلتان وطوران، أو بكلمات توكفيل :" ذلك أن الثورة كان لها طوران متميزان تماماً: الطور الأول الذي بدا خلاله أن الفرنسيين يريدون إلغاء الماضي تماماً، والطور الثاني الذي اتجهوا فيه إلى محاولة أن يستعيدوا من الماضي جانباً مما كانوا قد تركوه فيه، ذلك أن هناك الكثير جداً من قوانين النظام القديم وأعرافه السياسية التي

تختفي هكذا دفعة واحدة في ١٧٨٩ والتي تعاود الظهور بعد ذلك بسنوات قليلة، تماماً كما تغوص بعض الأنهار تحت الأرض، لتعاود الظهور في مكان أبعد قليلاً، لتظهر نفس المياه على شواطئ جديدة " .

وكان هذا المفكر السياسي المحافظ، كما يصفه ماركس، والمعادى للأفكار الاشتراكية، كما يؤكد هو ذاته كثيراً، ورجل الدولة، أعنى توكفيل، يتخذ موقفا مزدوجاً من النظام القديم، وكذلك موقفاً مزدوجاً من ثورة ١٧٨٩، لتشريح نظام استغلالي يقوم على الامتيازات والحقوق الإقطاعية والملكية في سياق دفاع عميق عن الشعب وحقوقه وحريته، ورصد دقيق لواقع أننا لسنا إزاء مجتمع إقطاعي وسطى، بل إزاء مجتمع انتقالي تنمو البرجوازية والرأسمالية في رحمه، وفيما يتعلق بحدث ١٧٨٩، كان موقفه المزدوج يتمثل في تقدير دوره في إزالة العراقيل أمام اكتمال خروج مجتمع جديد عصري من ذلك المجتمع القديم، حيث عاش من جديد مع الفرنسيين توقهم إلى التحرر والحرية، مع إدراكه، فيما كان يكتب بعد ستين عاماً، أن وعود الحرية قد تبخرت ليحل محلها واقع الديكتاتورية والإمبراطورية وعهود جديدة من الاستبداد والاستعباد.

ويقول توكفيل متحدثاً عن الفرنسيين الذين عاصروا الثورة :" وسأعبر معهم في البداية هذه الفترة الأولى من ثورة ١٧٨٩، عندما كان حب المساواة وحب الحرية يعمران قلوبهم، عندما كانوا يرغبون في أن يقيموا ليس فقط مؤسسات ديمقراطية بل مؤسسات حرة، ليس فقط في القضاء على امتيازات، بل في القرار وتكريس حقوق".

وبعد أن تدهورت الثورة وانحطت جارفة معها المجتمع "الجديد" بأسره، يرصد توكفيل هذا المسار: "وفيما أتتبع بسرعة مسار هذه الثورة ذاتها فأنني سأحاول أن أبين ما هي التطورات والأخطاء وخيبات الأمل التي انتهت بهؤلاء

الفرنسيين أنفسهم إلى التخلي عن هدفهم الأصلي، فلم يعودوا يريـدون، متنكـرين للحرية، سوى أن يصبحوا العبيد المتساوين لسيد العالم، وكيف أن حكومـة أقـوى وأكثر أوتوقراطية بكثير من تلك التي كانت الثورة قد أطاحت بها تـسلمت مقاليـد الحكم عندئذ، وركزت كل السلطات في يدها، وألغت كافة هذه الحريات التي دفـع ثمنها غالياً، وأحلت محلها مظاهرها الوهمية الخادعة، وهكذا أصبحت سيادة الشعب تعني أصوات ناخبين لا يمكنهم أن يستفسروا، ولا أن يتداولوا، ولا أن يختـاروا، كما أصبح التصويت الحر على الضرائب يعني موافقة مجالس خرساء أو خانعـة، ورغم تجريد الأمة تماماً من حقها في أن تحكم نفسها، ومن الـضمانات الرئيـسية لهذا الحق، حرية التفكير والتعبير والكتابة، أي ما كان يمثل الثمن، وأسمى مكاسب ١٧٨٩، فإن حكومة الثورة ما تزال تتجمل بهذا الاسم الكبير".والفكرة المهمة هنـا هي أن الثورة الاجتماعية ليست عاصفة عاتية تنقض فجأة تحت سماء صافية.فمن فرنسا جاءت عبارة " النظام القديم" وهي تشير، عند تطبيقها على تاريخ فرنسا، إلى طريقة حياة ثلاثة أو أربعة أجيال سابقة لثورة ١٧٨٩، ولعل مما يحق لنا أن نمـد استعمالها لنصف بها المجتمعات المتنوعة التي نشأت منها ثوراتنـا (page ٢٧) على أن أي استعادة لاحقة للنظام الملكي لم تكن تعني مطلقاً استعادة ما دمرته ثورة ١٧٨٩ من ذلك " النظام القديم" السابق عليها، ويستشهد بقول مأثور فرنسي :

"Toute restauation est revolution"

(كل استعادة الثورة) page ٢٢٥

الواقع أن توكفيل يسرد في حدود التفصيل الملائم لموضوع كتابـه قـدراً هائلاً من الوقائع والتطورات التي تثبت مسيرة فرنسا، مثل باقي أوروبا الغربيـة، في طريق الحضارة الجديدة أي الرأسمالية، والتي تكشف واقع العقبات والعراقيـل

والحواجز والكوابح التي تعترض طريق تلك المسيرة والتي تتمثل في بقايا الإقطاع بكل أعبائها على الشعب والنظام الملكي بكل.

والحقيقة أن كون " النظام القديم "(أو: العهد البائد) يمثل الثورة الأولى، على حين تمثل ثورة ١٧٨٩ الثورة الثانية، لا يعني أن هذا المفكر السياسي يقلل من أهمية هذه الثورة الثانية، فقد قامت بالفعل، باعتبارها ثورة جذرية، بدور كبير بجوانبه المجيدة والسلبية: " ورغم أن النظام القديم لا يزال قريباً جداً منا، إذ أننا نلتقي كل يوم برجال مولودين في ظل قوانينه، فإنه يبدو الآن أنه غرق في ليل العصور، والحقيقة أن الثورة الجذرية التي تفصلنا عنه قد أحدثت تأثير قرون : لقد حجبت كل ما لم تدمره".

ويطرح توكفيل أسئلة ملحة متكررة متواصلة تناولها في القسم الأول من الكتاب بفصوله الخمسة، وهذه الأسئلة هي: " ماذا كان الموضوع الحقيقي للثورة؟ وما هي طبيعتها الخاصة في نهاية المطاف؟ ولماذا على وجه التحديد تم القيام بها؟ وماذا حققت؟ وهو يفند الأحكام المتناقضة عن الثورة، مبينا أن موضوعها لم يكن تدمير السلطة الدينية المسيحية ولا إضعاف السلطة السياسية، وأنها كانت ثورة سياسية، وإنما اتخذت مظهر الثورات الدينية بحكم طابعها الفكري العالمي وتبشيرها بمبادئ تنسجم مع روح العصر، أما ما حققته الثورة الفرنسية بالفعل فقد تمثل في كونها تكملة لعمل طويل سابق عليها وبدونها كان يمكن أن يتحقق هذا العمل ذاته بصورة تراكمية تدريجية طويلة لاحقة لما كان النظام القديم قد أنجزه بالفعل"

ومهما كانت الثورة جذرية فإنها مع ذلك جددت أقل كثيراً مما يفترض عادة: وما يصح قوله عنها هو أنها دمرت بالكامل أو بسببها إلى أن تدمر (ذلك أنها ما زالت مستمرة) كل ما كان يتفرع، في النظام القديم، عن المؤسسات الأرستقراطية والإقطاعية، كل ما كان يرتبط بها بطريقة ما، كل ما كان يحمل

منها، بأية درجة كانت، أدنى سمة، وهي لم تحتفظ من العالم القديم إلا بكل ما كان دائماً غريباً على هذه المؤسسات، أو استطاع أن يوجد بدونها، والحقيقة أن الثورة لا يمكن وصفها أبدا بأنها حدث عرضي..وصحيح أن الثورة أخذت العالم على غرة، ومع ذلك فإنها لم تكن سوى تكملة لعمل أطول، النهاية المفاجئة والعنيفة لعمل ظلت تمارسه قبل ذلك على مدى عشرة أجيال من البشر.

ولعل من الجلي أن التقاطع بين مجموعة من الشروط الموضوعية والذاتية هو الذي رشح فرنسا لذلك الحدث الكبير لاندلاع ثورة ١٧٨٩ منها: ضعف الإقطاع، إفقار وتدهور النبلاء، تطور الملكية العقارية الفلاحية، نمو الصناعة والزراعة والعلاقات السلعية النقدية، تبلور طبقة واحدة، بتدمير كل القوانين الأخرى، الأعمال الأحدث للسلطة الملكية، التي جردت الأمة من التمتع الحر بحياتها، ووضعت الحكومة إلى جانب كل فرنسي، لتكون معلمة، والوصية عليه وعند الضرورة، مضطهدة ، ومع الحكومة المطلقة، سقطت المركزية " .

وهناك مسألة دقيقة يطرحها توكفيل ويعيد طرحها المرة تلو المرة : المفارقة المتمثلة في التناقض بين ما أراد الفرنسيون أن يحققوه عندما قاموا بثورة ١٧٨٩ وما حققوه بالفعل، بين الهدف المنشود والمحصلة، وبكلمات توكفيل: " قام الفرنسيون في ١٧٨٩ بأكبر محاولة كرس لها شعب نفسه في يوم من الأيام، ليحدثوا، إن جاز القول، انقطاعاً في حظ مصيرهم، وليحفروا هوة يفصلون بها بين ما كانوه، إلى ذلك الحين وما أرادوا أن يكونوه منذ ذلك الحين فصاعدا، وبهذا الهدف، اتخذوا كافة أنواع الاحتياطات لئلا ينقلوا شيئاً من الماضي إلى وضعهم الجديد، لقد فرضوا على أنفسهم قيوداً من كل نوع لكي يعيدوا تشكيل أنفسهم بصورة تختلف عما كان عليه أجدادهم، وباختصار فإنهم لم ينسوا ما من شأنه محو سماتهم المميزة السابقة"

ويعلق على هذا بقوله:"وقد اعتقدت دائما أنهم كانوا أقل نجاحاً بكثير في هذا المشروع الفريد مما كان يفترض في الخارج، ومما افترضوه هم أنفسهم في بداية الأمر، وكنت مقتنعاً بأنهم، دون أن يدروا، احتفظوا من النظام القديم بأغلب ميوله، وعاداته، وحتى بالأفكار التي قادوا بها الثورة التي دمرته، كما كنت مقتنعاً بأنهم، دون رغبة منهم استخدموا هذه الأنقاض لتشييد صرح المجتمع الجديد".

فكتاب توكفيل ليس مديحا للنظام القديم الذي يقوم بتشريحه بمشرط الجراح حيث يفرز بداخله الوعود التقدمية الحقيقة للمستقبل والمعوقات التي تتمثل في البقايا الإقطاعية والقروسطية في آن معاً ، كما أنه ليس انتقاما من ثورة ١٧٨٩ التي يمجدها ويحتفي بها ويقدر مغزاها التاريخي التقدمي ويسجل إخفاقاتها وشرورها ومآسيها على المدى الطويل، وبهذا يتجاوز توكفيل في وقت واحد إطاره الفكري والسياسي المحافظ، من جهة، ومحنته العائلية مع الثورة، من الجهة الأخرى، إلى أفق أرحب .

وجوهر كتاب توكفيل في النهاية، هو تتبع بدايات ثورة ١٧٨٩ "وسأعبر معهم في البداية هذه الفترة الأولى من ثورة ١٧٨٩، عندما كان حب المساواة وحب الحرية يعمران قلوبهم، عندما كانوا يرغبون في أن يقيموا ليس فقط مؤسسات ديمقراطية بل مؤسسات حرة، ليس فقط في القضاء على امتيازات ، بل في إقرار وتكريس حقوق، زمن الشباب والحماس والشهامة والعواطف النبيلة الصادقة، ذلك الزمن الذي – رغم أخطائه- سوف يحتفظ الناس بذكراه إلى الأبد، والذي سوف يقضّ- على امتداد وقت طويل قادم- مضاجع كل أولئك الذين سوف يسعون إلى إفساد هذه الأشياء أو كبحها، والانتقال من هذه البدايات إلى رصد التطورات والأخطاء وخيبات الأمل التي انتهت بهؤلاء الفرنسيين أنفسهم إلى التخلي عن هدفهم الأصلي فلم يعودوا يريدون، متنكرين للحرية، سوى أن يصبحوا العبيد

المتساوين لسيد العام، وكيف أن حكومة أقوى وأكثر أوتوقراطية بكثير من تلك التي كانت الثورة قد أطاحت بها تسلمت مقاليد الحكم عندئذ ، وركزت كافة السلبيات في يدها، وألغت كافة هذه الحريات التي دفع ثمنها غالياً، وأحلت محلها مظاهرها الوهمية الخادعة، وهكذا أصبحت سيادة الشعب تعنى أصوات ناخبين لا يمكنهم أن يستفسروا، ولا أن يتداولوا، ولا أن يختاروا، كما أصبح التصويت الحر على الضرائب يعني موافقة مجالس خرساء أو خانعة، ورغم تجريد الأمة تماما من حقها في أن تحكم نفسها ومن الضمانات الرئيسية لهذا الحق، حرية التفكير والتعبير والكتابة، أي ما كان يمثل أثمن وأسمى مكاسب ١٧٨٩ فإن حكومة الثورة ما تزال تتجمل بهذا الاسم الكبير".

وفيما يستخلص توكفيل أنه سوف يتوقف عند اللحظة التي يبدو فيها أن الثورة حققت شيئا فشيئا مهمتها وخلقت المجتمع ذاته، وسأحاول أن أوضح فيما يشبه هذا المجتمع ذلك الذي سبقه، وفيما يختلف عنه، كما سأحاول أن أوضح ماذا خسرنا في سياق هذا الحراك الهائل لكافة الأشياء، وماذا كسبنا في سياقه، وسأحاول أخيراً أن استشف ما يدخره لنا المستقبل.

هل كان لباراك أوباما "نظرية"

في تاريخ السياسة الخارجية الأمريكية، بعد انتهاء الحرب الثانية، عدد من الوثائق التي كانت استجابة لمخاوف ومطامع الولايات المتحدة، وخاصة في تعاملها مع القوة الخصم وهي الاتحاد السوفيتي، وقد استمرت هذه الوثائق بعد انتهاء الحرب الباردة، لكي تعكس التقدير الأمريكي للبنية الدولية وإخطارها الجديدة وكيفية التعامل معها.

من هذه الوثائق التاريخية تلك التي صدرت في أعقاب الحرب الثانية وبزوغ الحرب الباردة بين الغرب والشرق، والتي عرفت بمذكرة مجلس الأمن القومي NSC٦٨، وقد أصبحت هذه المذكرة هي أساس السياسة الخارجية الأمريكية عبر السنوات العشرين التالية، وقامت على تصور أنه في الوقت الذي تنتظر فيه الولايات المتحدة أن يلين النظام السوفيتي، فإنها يجب أن تعيد تسليح نفسها، وهكذا تمنع أي توسع سوفيتي، ولم يكن البرنامج الذي قدمته المذكرة يتطلع إلى تحرير الصين أو شرق أوربا، وإنما كانت تدعو أن تقوم الولايات المتحدة

بشكل منفرد بالدفاع عن العالم غير الشيوعي، وقدمت المذكرة التبرير لإتباع أمريكا رجل البوليس الدولي، وفصلت هذا على أساس تحليلها لسياسة الاتحاد السوفيتي، حيث اعتبرت أن السوفيت يكرسون أمتهم ليس لحماية قوتهم وسلطتهم فقط وأيديولوجيتهم، وإنما بمد هذه القوة باستيعاب دول تابعة جديدة وإضعاف أي نظام منافس.

وإذا كانت هذه الوثيقة قد صدرت مع بدايات الحرب الباردة، وحددت الإستراتجية الأمريكية لتتعامل مع هذه الحرب، فإن ثمة وثيقة أخرى صدرت بعد انتهاء الحرب الباردة، ومع بروز الولايات المتحدة كالقوة العظمى الأولى والوحيدة في العالم، وأكثر من هذا مع الأخطار الجديدة التي تتعرض لها، وكان أبرزها وأخطرها أحداث ١١ سبتمبر، وقد جاءت استجابة الولايات المتحدة في عهد إدارة بوش الابن في شكل الوثيقة الإستراتيجية للأمن القومي، التي صدرت في سبتمبر ٢٠٠٢، وقد اعتبرت الوثيقة أن البيئة الأمنية الدولية قد تغيرت، وأن الولايات المتحدة تواجه أخطاراً وتحديات جديدة، تتطلب إستراتيجية جديدة تختلف عن إستراتيجية الاحتواء، التي اعتمدت عليها السياسة الأمريكية خلال الحرب الباردة، وكان أهم أركان الإستراتيجية الجديدة لعام ٢٠٠٢ هو مفهوم الضربات الاستباقية Pre-emptive strikes وهو المفهوم الذي بمقتضاه يمكن للولايات المتحدة أن تواجه الأخطار، وأن تتصرف بمفردها إذا اقتضت الضرورة لإجهاض هذه الأخطار قبل أن تتحقق، وقد فسر الرئيس بوش الابن هذا المفهوم بقوله " إننا لا نستطيع أن ننتظر حتى تتجمع الأخطار " وقد كانت هذه النظرية وراء حربين شنتهما في الولايات المتحدة في أفغانستان والعراق، بكل تداعياتهما على الولايات المتحدة، وبكل تكاليفهما المادية والبشرية.

وحتى خلال إدارة حملته الانتخابية للرئاسة ،إدارة باراك أوباما، أدارت هذه الحملة على أساس أنه كرئيس سوف يصحح أخطاء إدارة بوش في العراق وأفغانستان، بل وفي إدارة علاقات أمريكا مع العالم وخاصة العالم الإسلامي، وعندما انتخب رئيساً بدا خطوات في هذا الاتجاه، وبعد قرابة ٤ سنوات من إدارته، شرع المؤرخون والمحللون في تقيم سياسة أوباما الخارجية، حيث انقسموا بطبيعة الحال بين المؤيدين والمنتقدين، فالذين تعاطفوا مع أدائه اعتبروا أنه أنهي تورط أمريكا العسكري في العراق، وخطط لنفس الشيء بالنسبة لأفغانستان، وحصل على دعم مجلس الأمن لفرض عقوبات اقتصادية على إيران، كما أطلق العلاقات مع الصين، ورسم العلاقات مع الحلفاء الأوروبيين، ووقع معاهدة خفض الأسلحة الإستراتيجية مع روسيا، في إطار ما عُرف بإطلاق العلاقات، وإعادة توجيه العلاقات الأمريكية إلى ما أصبح الآن هو مركز الخطورة العالمي، ونعني بها منطقة آسيا باسيفيك، وقطع شوطاً في تفكيك منظمة القاعدة خاصة بعد اغتيال بن لادن، أما منتقديه فهم يركزون على فشل مشروعه في إحياء عملية سلام الشرق الأوسط، وبالتالي عدم تحقيق تحسن ملحوظ في صورة أمريكا في العالم الإسلامي، كما اتهموه بأنه أضعف وضع أمريكا كقوة قائدة في العالم الإسلامي والنظام الدولي، كما أن كلاً من إيران وكرويا الشمالية ما زالتا تواصلان برامجهما النووية فضلاً عن توتر العلاقات مع باكستان.

غير أنه في الجدل حول سياسة أوباما الخارجية كان السؤال المحوري هو التساؤل حول ما إذا كان أوباما قد شيد وتبنى نظرية Doetrine توجه سياسيه، مثلما فعل الرؤساء الأمريكيون منذ انتهاء الحرب الثانية، حيث كان لكل منهم " نظرية " ارتبطت باسمه وبإدارته .

في هذا الشأن اعتبر عدد من الخبراء والمحللين أن البيئة الدولية التي واجهها أوباما والتطور الجاري والتعقد الشديد في علاقات القوى، لم تكن تسمح لأوباما أن يصيغ ما يمكن اعتباره نظرية محددة المعالم، شبيهة مثلاً بنظرية" الاحتواء" Containment التي تبناها ترومان مع بدء صراع وتنافس الحرب الباردة، واعتبر هؤلاء أن أوباما لا يصدر في السياسة الخارجية، شأن السياسة الداخلية، عن دافع أيديلوجى، وهو ينهج في الحالتين سياسة حذرة وواقعية، يزنها بدقة وعناية، ويشارك النخب الأمريكية في انتقاد واعتماد الولايات المتحدة على الاستخدام المفرط للقوة العسكرية وازدراء الدول والقوى الأخرى، ورغم هذا فإن عدداً من المحللين يعتبرون أنه من خلال رفض أوباما لسياسة بوش الابن في العمل الأمريكي المنفرد، وعدم الاعتماد، على الحلفاء أو المنظمات الدولية، فإن أوباما في رأيهم قد بنى" نظرية" عمادها هو المشاركة Partnership، والعمل والبحث عن شركاء، وقد انطلق هذا المفهوم من إدراكه أن الولايات المتحدة رغم أنها مازالت قيادية في العالم إلا أنها لا تستطيع أن تواجهه قضايا العالم التي تزداد تعقيداً: الإرهاب، والانتشار النووي، الاحتباس الحراري، الأمراض المعدية، والهجرة غير الشرعية، لا تستطيع أن تواجهها أو تتعامل معها منفردة بل هي في حاجة إلى العمل والتنسيق مع شركاء آخرين.

غير أن محللين آخرين ينسبون إلى أوباما " نظرية " بلورها في خطابه عندما ما تسلم جائزة نوبل للسلام عند قال :" إن البناء القديم للتفكير حول الحرب والسلام يتعقد، والمطلوب الآن هو التفكير في طرق جديدة حول أفكار الحرب العادلة Just war والسلام العادل Just peace"، وقد رأي هؤلاء المحللين أن من هذا الخطاب تبرر "نظرية أوباما" حول الحرب والسلام وهي متضمنة في ما أسماه " الطرق الجديدة" وليس المفهوم القديم حول الحرب العادلة، والذي سبق أن طوره القديس

أوغسطين في بداية القرن الخامس، والذي ظل موجوداً لفترة طويلة، وهكذا فإن لغة الحرب العادلة كانت جزءًا هاماً من خطاب أوباما، وقد استخدمت بشكل خاص لوصف أنواع العنف البنيوي مثل " المجزرة في دارفور"، والاغتصاب المنظم في الكونغو، أو القهر في بورما، وفي مقابل نظرية " الحرب العادلة"، طور أوباما مفهوم" السلام العادل"، وهو المفهوم الذي يمثل مشروعاً يذهب أبعد من الحرب العادلة "، إلى تحديد كيف تصنع" السلام الدائم"، وهي تتضمن ليس فقط الأساليب التي تبث فعاليتها حول حل المنازعات، ولكن أيضاً التركيز على حقوق الإنسان والحرية الدينية ، والتنمية الاقتصادية العادلة والمستدامة ودعم الأمم المتحدة، ومؤخراً نسب بعض الخبراء إلى أوباما " نظرية" تتصل بانخراط أمريكا في الصراعات المسلحة، وعماد هذه النظرية هو أن تنخرط الولايات المتحدة بسرعة في هذه الصراعات، وتنسحب بسرعة دون أن تتورط في حرب أرضية ممتدة، وقد طبق أوباما هذا المفهوم بنجاح في حالة ليبيا، ولكنه مازال متردداً في تطبيقه في الحالة السورية.

تحديات القيادة الصينية الجديدة

على مدى العام الماضي، كانت الصين، ومعها العالم ترقب القيادة الصينية الجديدة التي سوف ينتخبها مؤتمر الحزب السنوي الصيني في ٨ نوفمبر من هـذا العام، وخلال هذا الترقب كان التوقع أن الرئيس الجديد سيكون هو شى جينيج xiji nping (٥٩ عاماً) وسيمثل في ذلك القيادة الخامسة منذ تأسيس جمهورية الصين الشعبية: ماوتس تونج ،جيان زيمين، دينج تشاوبينج، والرئيس الحالي هو جينتاو، ومع ما عانته القيادة الجديدة من الثورة الثقافية ١٩٦٦-١٩٧٦، إلا أن أهم ما سيميزها هو أنها عاصرت وتابعت صعود الصين غير المسبوق الذي جعل منها القوة الاقتصادية الثانية في العالم، وأهلتها لكي تنافس على المكانة الأولى في النظام الدولي، غير أن القيادة الجديدة وهي تشهد صعود الصين تشهد أيضاً معضلات ومآزق هذا الصعود وتحدياته على المستويين الداخلي والدولي، فعلى المستوى الدولي فإن أبرز هذه المآزق الوضع الذي تجد الصين نفسها فيه بين عالمين، فإذا ما سارت وتعاونت مع الغرب فإنها بذلك سوف تنفر منها حلفاءها في العالم الثالث،

وهي يمكن أيضاً أن تثير غضب الجماعات الإرهابية، ومن ناحية أخرى فإن الصين إذا ما أسست علاقات قوية مع العالم الثالث فإنها قد لا تستطيع التعاون مع العالم المتقدم بل قد تعاقب باعتبارها صديقة مع " أول مأزق"، وفي السنوات الأخيرة أنّبت الدول الغربية الصين لعلاقاتها مع إيران والسودان، بل إن مواطنين صينيين قد تعرضوا للهجوم في بلدان العالم الثالث.

أما المأزق الآخر فهو يبدو في وضع الصين وسط التغيرات السريعة التي تتجه نحو عالم متعدد الأقطاب، يتضمن الكثير من التنوع والترابط وعدم اليقين والعوامل غير المعلومة، وهو الوضع الذي يفرض على الصين أن لا تتمسك بعقلية الحرب الباردة التي ترى الايديلوجية كمعيار لتقييم الدول وفي تقرير طبيعة العلاقات بينها، وفي التمييز بين العدو والصديق، وبالنسبة للصين فإن أكثر التغيرات الصارخة ليست في العالم الخارجي ولكن في نفسها وفي تفاعلها مع البيئة الخارجية، فقد تطورت الصين لكي تكون مرجعا أو مثالا للبلدان الصاعدة وحيث ينظر إليها باعتبارها أهم متغير في عالم متقلب بشكل غير مسبوق، وعلى هذا فمن الآن وصاعداً لا تستطيع الصين أن تقف موقف المتفرج، أو كما عبرت إحدى أشعار ماوتس تونج " تراقب العالم فيما وراء السحاب بعين باردة" ، ولكن عليها أن تتصرف كطرف داخلي بل وأحد الفاعلين القياديين على المسرح العالمي، وفي مثل هذه اللحظة التاريخية من التحول فإن انقلاباً تاماً يصبح مطلوباً لكي تعيد الصين تحديد دورها العالمي ووضعها الاستراتيجي وأهدافها المتوسطة والطويلة الأجل، في هذا السياق من التغيرات يتنبأ الفكر الصيني أنه في الحقب الثانية من القرن ٢١ سوف تشهد تقدم هذه التغيرات سواء في نطاقها أو عمقها، وفي هذا يطرح نبؤتين حول هذا الموقف العالمي سريع التقلب، الأولى: أن إمكانية الحرب بين القوى الكبرى سوف تتناقص، ومع هذا فإن المزيد من المواقف المعقدة والتحديات سوف

تنتظر الصين في تطورها السلمي، والثانية: أنه في الحقبة القادمة فإن العديد من الأمم بما فيها جميع القوى الكبرى سوف تواجه بتغيرات سياسية واقتصادية كبيرة تحتاج إلى التكيف معها، فسوف يواجهون تحديات مخيفة للإصلاح السياسي والاقتصادي أو الصعاب المنيعة ،المصاحبة لعملية الانتقال والتحولات، وبشكل تؤدى إلى مرحلة تتصف بإعادة توازن القوة والتغلب العالمي ويستخلص الفكر الصيني أنه لن يكون غريباً أن صعود مكانة الصين سوف يثير التوتر والصراع مع أمم أخرى، وبشكل ما يصبح مركز الاهتمام العالمي ولهذا فإن الصين يجب أن تتعامل مع هذه الاحتمالات بعقل بارد وأن تركز على القيادة المركزية " التغيير" وأن تقيم علاقاتها مع العالم الخارجي بأفكار جديدة وتفكير خلاق وأن تكون مستعدة للمناورة المرنة، في تناول هذه القضايا العملية، وهي يجب أن تشعر بالواجب في أن تتحمل المسئولية، على أن تكون متواضعة وحصينة، وأن تكون مستعدة أن تتقدم بمشاريع، وبشكل أكثر إيجابية من الأسلوب المتواضع Law profile الذي أسيء فهمه في الخارج، باعتباره إخفاء لقدراتها، انتظاراً للوقت المناسب التي تمارس فيه قوتها، أما على المستوى الداخلي، وكما عبر هنري كيسنجر، مهندس العلاقات الأمريكية الصينية، فإن التحدي الرئيس الذي سيواجه القيادة الصينية الجديدة هو أن تجد الطريق للتعامل مع مجتمع يمر بتحولات ثورية تتمثل في الظروف الاقتصادية المتغيرة والاتصالات التكنولوجية غير المسبوقة واقتصاد عالمي ضعيف وهجرة مئات الملايين من الريف الصيني إلى المدن".

ويسجل المراقبون للوضع الصيني، وخاصة على مدى العقد الماضي وولاية هوجينتاو، أنه في الوقت الذي ازدادت فيه الدخول، كذلك ازدادت المتفاوتات بين الغنى والفقير، وانتشر الفساد، وفي نفس الوقت الذي قدم الانترنت للمواطنين بدائل لمصادر المعلومات من وسائل الإعلام التي تشرف عليها الدولة، وبدائل لكي يسجلوا عدم

رضاهم، وعلى هذا تزايدت عدد الاحتجاجات وما سمى بالحوادث الجماهيرية بشكل جذري، ويشكل سبّب إزعاجا للسلطات الصينية، التي أوقفت نشر أعداد هذه الاحتجاجات منذ سبع سنوات مضت: باعتبار أنهم غير قادرين على الاعتماد على المحاكم، فقد نزل المواطنون إلى الشوارع، رغم التهديد بالسجن على هذا العمل الجريء .

وعلى الرغم من هذا فإن أحداً لا يتوقع أن هذه الاندلاعات العديدة، وإن كانت منعزلة، سوف تتحول إلى انشقاق مشتعل، ورغم هذا فإن عدم الرضا المتزايد يحوم كالشبح على القادة الصينيين، الذين يسيطر عليهم مفهوم الاستقرار، ليس لأن الربيع العربي قد أظهر كيف يمكن أن تتجمع الثورات بسرعة، وإنما كذلك أنه إذا نظرت إلى الاحتجاجات الصينية سوف تجد أن دافعها هو إساءة استخدام السلطة الحكومية، وهذا هو ما يجعل القادة الصينيين قلقين جداً، باعتبار أن هذا هو مصدر عدم الاستقرار السياسي.

ورغم هذا فإن المؤشرات لا توحي أن الزعيم الجديد وفريقه سوف يخففون قبضة النظام، وإن كانوا من الممكن أن يعيدوا تنظيم قنوات صنع القرار، ولكن في كل الأحوال ستظل الأولوية الأولى للحزب الشيوعي الصيني هي التمسك بالسلطة، ولكي يفعلوا ذلك فإن الحزب يعلم أن المجتمع يجب أن يكون مستقراً، ومع صعود الصين اقتصادياً، وكنتيجة للإصلاحات الاقتصادية التي أطلقها دنج تشاوبنج، كانت الأصوات في الخارج والداخل ترى أن الإصلاح الاقتصادي يجب أن يتوازى معه إصلاح سياسي، ينهي أو على الأقل يخفف من قبضة وسيطرة الحزب الشيوعي، وعلى مدى العقد الماضي بوجه خاص، وعندما تولى هو جين أو، كان المراقبون للصين يتنبأون أن الصين سوف تشهد إصلاحات سياسية لكي تتمشى مع السياسات الليبرالية الاقتصادية، غير أن هذه الآمال قد تحطمت ولكن أحداً لم يتصور أن هو جين أو سوف يكون على هذا المستوى من الإصرار على التمسك بالماضي وبدلا من السياسات الليبرالية ازدادت

السيطرة السياسية، وربما كان هذا وراء التهديد الذي وجهه مؤخراً رئيس الوزراء وينجياوباو أمام البرلمان مذكراً بمأساة الصين من أنه بدون إصلاح سياسي ستواجه الصين تكرار مأساة الثورة الثقافية، وخلف المشهد الصيني تقع مؤشرات سياسية وسط نخبة الحزب الشيوعي، تمثلت في طرد بوشى لأي الرئيس الطموح للحزب في مقاطعة شونجكينج، والتي انبعثت من التحقيقات حول فساد، خلف موجات هزت مختلف أركان النظام، حيث كانت شبكة أصدقاء المقربين منه شديدة الاتساع جعل كثيراً من كبار المسئولين في الحزب والجيش يخشون أن يطالهم الأمر، غير أن أكثر ما تخشاه النخبة الصينية هجرة القوى الهائلة والتي تقدر بـ ٣٠٠ مليون عامل يعيشون غالباً في هوامش المدن الساحلية الضخمة، ويكون مصدراً محتملاً للاضطرابات، ولذلك ستكون السيطرة على الاستياء الداخلي وقمعه أكبر التحديات التي تواجه القيادة الصينية، وتضاعف من هذا التحدي أنه حتى لو ظل الاقتصاد الصيني في مرحلة الازدهار الكبير إلا أن ثمة توقعات أن يكون النمو فاتراً، حيث أصاب التباطؤ كلاً من الصادرات والواردات الصينية منذ العام الماضي.

وهكذا فإن الاقتصاد الذي نما بأعجوبة خلال العقود الثلاثة الماضية بدأ يعانى من عدد من القيود: فقد انخفضت الاستثمارات الأجنبية، واقتراض البنوك، وارتفاع الدين، وكذا عدد الاحتجاجات للفلاحين وعمال المصانع، وكل هذا يجعل قادة الصين يدركون وعورة الطريق الذي عليهم أن يقطعوه، والسكان الذين مكنهم الانترنت من أن يرفعوا صوتهم ويتصرفوا جعل العام ٢٠١٢ يتميز بتغير في العقلية الصينية، فالزهو في السنوات الأولى لهذا القرن قد حل محله القلق حول المستقبل، فعلى الرغم من الازدهار الصيني الطويل فإن المراقبين للمشهد الصيني يسجلون أن الصينيين اليوم أقل سعادة عما كانوا عليه منذ حقبتين، ويتملكهم شعور بعدم اليقين أو إلى أين يتجهون.

دنج تشاوبنج

كيف تحولت الصين ؟

أزرا فوجل EZRA FOGET الأستاذ في جامعة هارفـــارد الأمريكيـــة والمتخصص في الشئون الأسيوية ، وهو الذي وضع عام ١٩٧٩ كتاب : Japan as Number one [١]

وقد كتب هذا الكتاب مع صعود اليابان، وبدأ الحديث عن منافستها للولايات المتحدة، ومكانها المحتمل في النظام الدولي، ويقول فوجل إن هذا الكتاب قد ساعد في إعداد بعض قادة الولايات المتحدة في الحكومة، وبين رجال الأعمال لـــصعود اليابان في الثمانينات، الأمر الذي كان يمثل صدمة للكثيرين في الغرب.

هذه السابقة هي التي جعلت فوجل يتساءل عن أفضل ما ســوف يــساعد الأمريكيين على فهم التكورات المقبلة في آسيا مع بداية القرن الواحد والعشرين.

---

١ - EZRA Fogel. "Deng Xiaoping and the Trans Formaion of China "Belknap Harvard ٢٠١١

وعندما أبلغ صديقه Don Oberdirfer وهو واحد من أعظم الذين كتبوا عن آسيا في القرن العشرين، عن عزمه اعتزال التدريس وتفكيره في أن يكتب كتاباً يساعد الأمريكيين على فهم التطورات في آسيا، وبدون تردد نصحه أوبردورفر، والذي غطى آسيا لمدى نصف قرن، أن يكتب عن دنج تشاوينج، وبعد عدة أسابيع من التأمل، قرر فوجل أن صديقه على صواب، فالقضية الأعظم في آسيا هي الصين، والرجل الذي كان له أكبر أثر في تحول الصين المعاصر هو دنج تشاوبنج ، إضافة إلى أن تحليلا غنيا لحياة دنج وسيرته يمكن تنير القوى الرئيسية التي شكلت التطورات الاجتماعية والاقتصادية الحديثة في الصين.

ويلاحظ فوجل أن دنج انتقد سيرة الحياة التي أسرف كتابها في الثناء على أنفسهم، ولهذا اختار أن لا يكتب سيرة حياته الذاتية، وأصر على أن كتابته عن سيرة حياته يجب، أن لا تكون مبالغاً فيها، والواقع أن دنج لم يكن يتحدث كثيراً عن حياته بشكل علني وعن خبراته وتجاربه السابقة، وكان معروفاً عنه أنه لم يكن يتكلم كثيراً وكونه حذراً حول ما يقول .

ويأسف فوجل أنه لم تتح له فرصة لقاء مع دنج شخصياً، فحين ذهب إلى بكين للمرة الأولى عام ١٩٧٣ كجزء من وفد أمريكي قابلوا شواين لأي وغيره من كبار الرسميين، لم يكن دنج من بينهم، وكان من أقوى انطباعات فوجل الضجة في المراكز العليا حول عودة دنج الحديثة إلى بكين من منفاه خلال الثورة الثقافية، والتوقع العالي أنه سوف يتولى دوراً كبيراً سوف يحقق تغيرات ضخمة، فأي دور؟ وأية تغيرات؟ كان ما يتنبأ به الغربيون، لكن أحداً لم يتنبأ بالثغرات الواسعة في الصين التي سوف تقع خلال الحقبتين التاليتين، وإلى أي حال سوف يتقدم مستقبل الصين بجهود هذا القائد الفرد .

ويقول فوجل إن دنج كان على وعى فعلى أن الصين في حالة كارثة، فمع بداية الحقبة السابقة، وخلال "القفزة الكبرى إلى الإمام"، مات أكثر من ثلاثين مليون صيني، وكانت البلد تكاد تخرج من الثورة الثقافية التي عبئ فيها الشباب لمهاجمة كبار الرسميين تأييداً من ماو، وتنحيتهم في الوقت الذي كانت فيه البلد ذات البليون صيني تدخل في حالة من الفوضى، وكان متوسط دخل الفلاحين الصينيين الذين يشكلون ٨٠% من السكان فقط ٤٠ دولاراً شهرياً ، وانخفض مقدار الحبوب التي ينتجها الفرد إلى ما كان عليه عام ١٩٧٥، ونقل العسكريون الرسميون والثوار لكي يحلوا محل كبار الرسميين في الحزب الذين أطيح بهم ، ولكنهم لم يكونوا غير مستعدين وغير مؤهلين للمناصب التي تولوها، وكان العسكريون الذين يتولون مناصب مدنية يتمتعون بامتيازات مناصبهم دون أن يقوموا بعملهم، وكانت المواصلات والبنية التحتية في حالة تفكك وأكبر المصانع تعمل بتكنولوجيا مستوردة من الاتحاد السوفيتي في الخمسينات.

وكان بعض الرسميين من الجرأة بما فيه الكفاية لكي يقترحوا أن المشكلة الحقيقية التي تواجه الصين هي ماوتس تونج نفسه، ولكن دنج كان يعتقد أن فرداً واحد لا يجب أن يعتبر مسئولا عن فشل الحقبتين الماضيتين، وكان يقول " نحن جميعاً ملومون".

لقد أرتكب ماو أخطاء ضخمة بالتأكيد، ولكن من وجهة نظر دنج فإن المشكلة الأكبر هي النظام الخاطئ الذي تسبب في هذه الأخطاء، وأن جهود التحكم في النظام حتى أبسط المستويات قد تفاقمت بشكل خلق الخوف والافتقار إلى المبادرة، كذلك تفاقمت جهود التحكم في النظام الاقتصادي بشكل سبب الجمود الذي خنق الديناميكية.

وقبل حقبة من الثورة الثقافية، لم يكن هناك أحد أكثر مسئولية في إدارة النظام القديم من دنج تشاوبنج وخلال سنواته الثلاث والنصف في الريف من ١٩٦٩-١٩٧٣، لم يكن هناك من تقلد منصباً عادياً قد فكر بشكل أكثر عمقاً،حول ما حدث من خطأ مع نظام الصين القديم وما هو مطلوب عمله، من دنج تشاوبنج، وفي عام ١٩٧٨، وهو العام الذي بدأ فيه دنج وفكره الجديد للصين، لم يكن لديه مشروع متكامل حول كيف تحقق ثروة للشعب الصيني والقوة للصين، ولكنه كان لديه إطار للتفكير حول كيف تتقدم.

فسوف يتفتح البلد بشكل واسع للعلوم والتكنولوجيا وإدارة التنظيم وللأفكار الجديدة من أي مكان في العالم، بغض النظر عن النظم السياسية، وكان على وعى أن القوى المحركة الجديدة في آسيا: اليابان، كوريا الجنوبية، تايوان، وسنغافورة، كانت تنمو أسرع من أي بلد، ولكن دنج كان متحققاً أنه لا يستطيع ببساطة أن يستورد نظاما من الخارج ، ذلك أن أي نظام أجنبي لا يستطيع أن يلاءم الحاجات الأساسية للصين والتي تمتلك تراثاً ثقافياً ضخماً ومتنوعاً، وأنه لن يمكن حل المشكلات لمجرد فتح الأسواق، فالمطلوب هو بناء مؤسسات بشكل تدريجي، وهو سوف يشجع الرسميين على توسيع آفاقهم، وللذهاب إلى أي مكان لتعلم ما يحقق النجاح، ولجلب التكنولوجيا الواعدة وأساليب الإدارة وتجربة ما يمكن تطبيقه في الداخل وهو سوف يمهد الطريق بتطوير علاقات جيدة مع الدول الأخرى لكي يستجيبوا للعمل مع الصين.

ولكي يدخل النظام في عملية إعادة البناء هذه، اعتقد دنج أن هناك منظمة واحدة فقط تستطيع أن تدير هذه العملية وهي: الحزب الشيوعي الصيني، وأن أكثر القادة خبرة المُحتاجين للصين في ١٩٧٨ هم قادة الحزب الذين ارتقوا إلى مستويات المسئولين في الخمسينات والستينات، والمطلوب هو عودتهم، كما أن الشباب يجب

أن يدربوا في الخارج وأن يجلبوا أفضل الأفكار، وأفضل العلوم، وأفضل التكنولوجيا من أي مكان، ولكنه كان يرى أيضاً أن أفكاراً جديدة سوف تكون مأزقاً بشكل كبير، وحتى الحزب الشيوعي يجب أن تتغير بشكل أساسي أهدافه ومناهجه في العمل.

وهو كان يريد أن يقدم الأمل ولكن دون أن يرفع التوقعات غير الواقعية، كما فعل ماو في عام ١٩٥٨، وعملية أن يشرح المواقف الرسمية للجمهور وأن يجرى التغيرات بصورة يمكن للشعب أن يقبلها، وحتى لا تتقسم البلاد، ورغم السلطة الكبيرة التي يمثلها دنج إلا أنه كان يعلم أن عليه أن يكون حساسا للمناخ السياسي بين زملائه، إذا ما كان عليهم أن ينفذوا توجيهاته.

وكان يحتاج إلى قدر من الاستقرار في الحياة اليومية، حتى ولو كان النظام يتعرض لتغيرات أساسية، وباختصار كان دنج قد واجه مسئولية كبيرة، بل وغير مسبوقة، فمع هذا التوقيت لم يكن هناك بلد شيوعي قد نجح في إصلاح نظامه الاقتصادي، وأن يحقق نمواً سريعاً ومستداماً، وأن يكون شعب هذا البلد في حالة من عدم النظام.

ورغم حجم دنج الضئيل إلا أنه وقد أصبح قائداً بارزاً فإنه حين يظهر في القاعة يصبح له وجود مسيطر، وأن يصبح في مركز الانتباه.

وكان لديه من التصميم على حل المسائل الهامة، وكان يمتلك الوضع الطبيعي لقائد عسكري سابق، وكذلك تأكيد الذات التي تتأتى من نصف قرن من التعامل مع قضايا الحياة والموت، قرب مركز السلطة وعندما لم يكن لا يعرف عن شيء فإنه مستعد للاعتراف بذلك .

وكان قادراً على أن يدرك وقائع السلطة، وأن يعمل في حدود ما هو ممكن.

وكان بعض الغربيين المتأثرين بالأسلوب المباشر لدنج ونهجه العملي، إلى درجة أنهم ظنوا خطأً أنه رأسمالي في قلبه، وأنه سوف يقود العمل نحو النموذج الديمقراطي الغربي، وكان دائماً مستعداً لأن يتعلم، ولكن في النهاية كان يعتقد أنه يعلم أفضل منهم فيما يتعلق بما هو في صالح الصين.

ومن سنواته الخمس في فرنسا، وعامه في الاتحاد السوفيتي، حصل دنج على فهم أفضل للتطورات حول العالم ، ومنظور أبعد للصين أفضل مما حصل ماو، وقد حصل دنج على فرصة أن يرى الصناعة والتجارة في بلد حديث، وقد منحة العام في الاتحاد السوفيتي فرصة كيف استطاع بلد شيوعي أن يتعامل مع عملية التحديث.

وفوق هذا فقد كان وجوده في مركز السلطة من ١٩٥٢-١٩٦٦ هو ما منحه الفرصة لكي يعمل بشكل لصيق مع ماو للنظر في استراتيجيات نمو الصين، وفي التعامل مع الدول الأجنبية، وقد حدد ماو دنج كأحد خلفائه المحتملين، وخلال حياته كان دنج مسئولاً عن التطبيق وليس عن النظرية.

ومع الوقت الذي تولى فيه دنج السلطة، كان ماو بالفعل قد وحد البلد وبني بناء حاكماً قوياً وأدخل الصناعة الحديثة، وهي المزايا التي كان دنج يستطيع أن يبنى عليها، في وقت تحقق فيه العديد من الرسميين الكبار أن نظام ماو في التعبئة الجماهيرية لا يعمل، وأن الصين متخلفة كثيراً وراء دول أجنبية في العلم والتكنولوجيا وأنها في حاجة لأن تتعلم من الغرب ولهذا فإن تغييراً جذرياً كان مطلوباً، وكان في استطاعة دنج أن يعتمد على المساعدة من كبار الرسميين الذين أبعدوا من السلطة، ولكن لم يصغوا، هؤلاء الثوريون العائدون كانوا مستعدين لأن يتحدوا تحت حزب دنج والحزب الشيوعي مقدمين مصادر جاهزة للمهارات

والطاقة، وتحولاً مغيراً إلى جيل جديد أفضل تدريباً في العلم الحديث، والتكنولوجيا والإدارة.

ومع التوسع العالمي للتجارة التي تلت ذلك أصبحت الصين تمتلك مسالك الأسواق الجديدة والتكنولوجيا المتقدمة من اليابان، وتايوان، سنغافورة، وكوريا الجنوبية والنماذج الغربية، لكيف يمكن للقادمين المتأخرين للمسرح الدولي أن يتحدثوا بسرعة، وعلى عكس بلدان شرق أوربا الشيوعية، كانت الصين قد أصبحت مستقلة تماماً عن الاتحاد السوفيتي، والذي كان يعنى أن قادتها أحرار في صنع قرارات تقوم على ما يعتقدون أنها في أفضل مصالح الصين.

ومع هذا فإن جميع الظروف الملائمة التي تمتعت بها الصين في عام التحول ١٩٧٨ لم تكن كافية بدون قائد قوى وقادر يستطيع أن يجمع البلد معاً وأن يقدم اتجاهاً استراتيجياً، وكان دنج أكثر استعداداً لمثل هذا الدور أكثر من صن- يات صن، تشاينج شيك أو ماوتس تونج.

وكان هو الذي حقق في النهاية المهمة التي حاول الآخرون لمدة قرنين أن يحققوها وإيجاد الطرق التي تجعل الصين غنية وقوية.

وهكذا فعندما ترك دنج السلطة عام ١٩٢٢ كان قد حقق المهمة التي راوغت قادة الصين على مدى ١٥٠ عاماً، فهو وزملاؤه وجدوا الطريق لإغناء الشعب الصيني وقوة الصين، ولكن خلال عملية تحقيق هذا الهدف أشرف دنج على تحول أساسي للصين ذاتها بما يعنى طبيعة علاقتها مع العالم الخارجي، ونظام الحكم فيها ومجتمعها.

وبعد ترك دنج السلطة استمرت الصين في التغيير بشكل سريع واستمرت التغييرات الهيكلية التي تحققت تحت قيادة دنج لمدة عقدين، ومع بعض التكيفات فإنها قد تستمر لمدة أطول في المستقبل، والحقيقة فإن التغيرات الهيكلية التي جرت

تحت قيادة دنج تقف بين معظم التغيرات الأساسية منذ أن أخذت الإمبراطورية الصينية شكلها خلال أسرة هان عبر الألفي عام السابقة.

ويلاحظ فوجل أن التحول في فترة انتقالية منح فيها القادة في القمة حرية كبيرة لكي يرشدوا العملية السياسية واتخاذ القرارات النهائية كذلك تشكلت بدور القائد، دنج تشاوبنج الذي لعبه شخصياً، والحقيقة فإن الأفكار التي تميز هذا البحر من التغيرات جاءت من الشعب لم يتوقع أحد كيف سوف تتطور الأحداث.

ولم يبدأ دنج الإصلاح والانفتاح، فقد بدأا في ظل Hua Euafeng قبل أن يجيء دنج إلى السلطة، كما لم يكن دنج هو المهندس الذي يمتلك تصميماً كبيراً للتغيرات التي ستجرى تحت حكمه، فلمُ يكن هناك في الحقيقة تصميماً شاملاً واضحاً قائماً خلال عهده.

ورغم أن ماو قد بدأ الانفتاح على الغرب بعد الصدامات مع الاتحاد السوفيتي، وتولى الصين مقعدها في الأمم المتحدة عام ١٩٧١، وإن كان هذا الانفتاح ضئيلا ، وبعد وفاة ماو كان Hua Xieoping مستجيباً لفتح البلد، ولكن ترك لدنج تشاوبنج مهمة الانفتاح وقيادة الصين لكي تأخذ دوراً نشطاً في الشئون الدولية، ولم يكن في عهد دنج حيث كانت الصين جزءاً من النظام العالمي الجديد الذي بزغ بعد الحرب العالمية الثانية.

وتحت مبادرة دنج التحقت الصين بحق بالمجتمع الدولي، وأصبحت جزءاً نشطاً من المنظمات الدولية، ونظام التجارة العالمي والمالي، وعلاقات مع مواطنين من كل مناحي الحياة، وأصبحت الصين عضواً في البنك الدولي وصندوق النقد الدولي، وبدأت الصين تلعب دوراً نشطاً في نشاطات منظمة الصحة العالمية، وركزت جهودها في جميع المنظمات الدولية في كل مجال، ورغم أن الأمر قد

احتاج إلى حقبة، بعد ترك دنج السلطة لكي تتصل بمنظمة التجارة العالميـة، فـإن الاستعدادات له حول الصين قد بدأ في عهد دنج.

وخلال السنوات الأولى من اشتراك الصين في المنظمات الدولية وحيـث كانت تتعلم كيف تعمل هذه المنظمات كانت الصين مازالت أمة فقيرة جداً وتركزت جهود الصين أولاً على الدفاع على مصالحها.

وترك لخلفاء دنج الذين أدركوا فوائد النظام الدولي للصين أن يبدؤوا فـي تفكير عما يمكن للصين أن تفعله كشريك Stakeholder فـي النظـام الـدولي والمؤسسات العالمية لدعم هذه المؤسسات.

وقبل التحاق الصين بمؤسسات مثل البنك الدولي، وصندوق النقـد، كـان البعض قلقين من أن اشتراك الصين يمكن أن يكون ممزقاً بـشكل يجعـل عملهـا صعباً، وفي الحقيقة فإن اشتراك الصين قد دعم هذه المنظمات حتى وهـي تقـدم مصالحها الخاصة، فقد التزمت بقواعد هذه المنظمات.

وحين تولى دنج الزعامة عام ١٩٧٨ كانت تجارة الصين مع العالم تبلغ أقل من ١٠ مليون دولار، وخلال ثلاثة عصور تضاعف هذا الحجم مائة مرة، وفـي نفس الوقت كانت الصين تشجع الولايات المتحدة على قبول عدة مئات من الطلاب الصينيين، وبعد حقبة من وفاة دنج كان ١,٤ مليون طالب قد درسوا في الخـارج، ومن بين هؤلاء عاد ٣٩٠,٠٠٠ إلى الصين ، ومع عام ١٩٩٢ كانت الصين قـد قطعت شوطاً بعيداً في نحو دور نشط في النقاشات الثقافية العالميـة وكـذلك فـي النظام التجاري العالمي، وكان الاختراق الأساسي قد حدث خلال عهد دنج.

وفي الوقت الذي تخلى فيه دنج عن السلطة، كان على الرسميين الشباب في الحزب أن يثبتوا قدرتهم من خلال النجاح في امتحانات في أفضل المدارس العليـا والجامعات.

فقد ركز دنج على الجدارة meritgcracy والتي لها جذور عميقة في الصين والتي كانت البلد الأول في العالم التي تختار الرسميين على أساس من أدائهم في الامتحانات.

وخلال حياة ماو كان من المستحيل استخدام ما يتحقق في التعليم كمعيار أساسي لاختيار الرسميين، فالعديد من هؤلاء الذين قدموا مساهمات لقضية الشيوعية وبرزوا في المراكز العليا لم يكونوا قد حصلوا على فرصة للتدريب الجامعي خلال سنوات الحرب والثورة في الثلاثينات والأربعينات، وزيادة على ذلك فقد اعتبر ماو الالتزام السياسي (Redness) أكثر أهمية من الخبرة، وفضل الفلاحين والعمال عن المرشحين من" الطبقة الرديئة" من ملاك الأرض والعائلات الرأسمالية، والذين كانوا بوجه عام أفضل تعليماً، لهذا السبب لم يكن التعليم هو المعيار الرئيسي للاختيار وترقية الرسميين والحقيقة أن العديد من الرسميين بعد عام ١٩٤٩ كانوا من المحاربين القدماء في الجيش الشيوعي أو قوات العصابات والذين كانوا أميين تقريباً.

وبعد موت ماو رفض دنج بشجاعة مفهوم " الخلفية الطبقية الجيدة" كمعيار لاختيار الرسميين وبدلاً من هذا اعتمد بشكل صارم على المؤهلات كما تقاس بامتحانات القبول، وفي ظل الخطوط التوجيهية التي أدخلها دنج عام ١٩٧٧، فإن العديد من أطفال هؤلاء الذين كانوا يسمون " الطبقة الرديئة" ونجحوا في الامتحانات حصلوا على القبول في أفضل الجماعات وأصبحوا من الرسميين .

بالإضافة إلى مستويات النمو العادية التي بدأت تتحقق في ظل مبادرة دنج، فإن من أهم الظواهر الاجتماعية التي تميز بها حكمه أنه مع الوقت الذي ترك فيه السلطة كان ٩٠% من العائلات الصينية قد امتلكت أجهزة تليفزيون والتي أدخلت الثقافة في الحال في المناطق الريفية ، وكان الشباب الذين عادوا من المناطق

الساحلية لزيارة عائلاتهم في القرى قد أحضروا معهم آخر صيحات الموضة، والأجهزة الكهربائية والطعام الذي عرفوه في المدن، وباختصار فإن المناطق الريفية قد أصبحت مدنية في الثقافة .

وانفتاح المناطق الحضرية المغلقة واختلاط السكان من مناطق مختلفة تراجعت الاختلافات المحلية واستبدلت بثقافة مشتركة بشكل أكثر .

وفي إدارته لعملية التحول كان دنج كالعادة أكثر اهتماماً بتحقيق النتائج أكثر من إتباع عملية محددة، وكان يعتقد أن بعض الفساد كان لابد منه، وكما قال" حين تفتح الباب فإن الذباب سوف يتسرب منه" وكان يريد الرسميين الذين يجرؤون على أن يتحركوا بجرأة وكان مستعداً لرفع ثمن السماح لبعض الذباب أن يدخل.

وقد اتهم بعض أبناء دنج باستخدام صلاتهم لأغراض شخصية، ولكن ليس هناك أية شهادة على أن دنج قد فكر أبداً في ثروة لنفسه أو عائلته.

وكان دنج يعلم أنه إذا كان الرسميون المحليون سوف يؤيدون بنشاط لإصلاحيات فإنه يجب إعطائهم بعض الفرص لتحسين ظروفهم المعيشية، وكان درك أن الإصلاحات التي توقفت تماماً بل وحتى أرتد عنها في الاتحاد السوفيتي شرق أوربا كانت بسبب البيروقراطيين، الذين لم يروا كيف سوف تخدم لإصلاحات مصالحهم الشخصية، وكان يريد رسميين ملتزمين بالإصلاح المصلحة العامة وعلى هذا فقد سمح لبعض الرسميين أن يغتنوا إذا ما حققوا جاحاً اقتصادياً لمناطقهم، وكان يقدر أهمية المحافظة على سلطة رسمية حزب محليين في عيون الجمهور، ومن رأيه أنه يجعل أخطاء الرسميين علنية في أعين جمهور فإن هذا يجعل مهمتهم أصعب، غير أن دنج لم يبذل أي مجهود لحماية رسميين الذين يغضبون الجمهور وكان مستعداً أن يتعامل بشكل حازم مع أي سئولين ينتقدهم المواطنون المحليون بسبب عدم اهتمامهم بالمصلحة العامة، وقد

استخدمت عقوبة الإعدام في الصين أكثر من العديد من البلدان لتحـذير الآخـرين الذين قد يتعرضون للإغراء أن يتورطوا في نشاطات إجرامية مماثلة.

إن المستوى والنطاق والمدى غير المسبوق الذي وضع دنـج تـشاوبنج أساسه، إنما يقدم تحديات غير سهلة لخلفائه، من أهم هذه التحديات تقديم خـدمات شاملة لأمن وصحة بليون صيني، وإعادة تحديد وإدارة الإصلاح ، واحتواء الفساد، وحماية البيئة والحفاظ على شرعية الحكم، وما يتوازي بين المنـاطق الحـضرية والريفية، ومع ما صاحب ذلك من فجوات أخذت في الاتساع بين الأغنياء والفقراء.

ويرتبط اسم دنج تشاوبنج، وخاصة في الغرب، بقراره أن يرسل الجـيش الميداني بدباباته إلى قلب بكين للقيام بما أصبح يعرف " بمذبحة تانيـامين" والتـي كانت سحقاً دموياً لطلاب غير مسلحين ومواطنين آخرين ا كانوا يتظاهرون بشكل سلمي حول ميدان تانيامين، وربما لم ينظر أحد في العالم بشكل مؤيد مثلما حـدث خلال "الربيع العربي" حين تذكر معمر القذافي، وهو يواجه الانتفاضة الشعبية، "أن الناس الذين كانوا يواجهون الدبابات قد سحقوا، ولكن وحدة الصين كانـت أكثـر أهمية من هؤلاء الناس في ميدان تانيامين.." وقد استعاد فوجل هذا الفصل من سجل دنج في فصل تحت عنوان "مأساة تانيامين، والذي انتهي إلى" أن ما نعلمه الآن أنه في الحقبتين بعد تانيامين فقد تمتعت الصين باستقرار نسبى ونمو سريع- أن لم يكن مبهراً للنمو الاقتصادي .. واليوم مئات الملايين من الصينيين يعيشون حياة أفضل بكثير بما كانوا يعيشون عام ١٩٨٩ وهم يتمتعون بوصـول أعظـم للمعلومـات والأفكار حول العالم أكثر من أي وقت في التاريخ الصيني . وقد استمر المـستوى التعليمي وطول العمر في الارتفاع بشكل سريع، لهذه الأسباب وغيرها، فإن الشعب الصيني يفخر بشكل أكبر بمنجزات أمتهم أكثر بما فعلوا في القرن الماضي"، بهـذا التقييم فإن فوجل يقبل أساس الجدل والحجة التي تروج لها أجهـزة الدعايـة فـي

الحزب خلال العشرين عاماً الماضية أن "الاستقرار" والنمو الاقتصادي تظهــر أن عملية القهر التي جرت في تأسيس ميدان تانيامين كان لها ما يبررها على المــدى الطويل، وحين يتساءل أو يثير الصحفيون والشخصيات الأجنبية عن المذبحة، فإن إجابة قادة الحزب كانت متماسكة: إن لم يكن دنج تشاوبنج قد اتخــذ هــذا القــرار الصارم، فإن الصين لم تكن لتحصل على المجتمع المستقر أو الاقتصاد المزدهــر التي شهدتها في الأعوام التالية.

ويتضمن كتاب فوجل فصلاً بعنوان "العسكرية: الإعداد للتحديث"، ولكــن " التحديث modernization هنا يشير فقط للقضايا، تتصل بالأسلحة والكفاءة، وليس لهذه الأمور مثل السيطرة المدنية لما تفعله العسكرية، ومما ليس معروفــاً بــشكل واسع خارج الصين أن جيش التحرير الوطني (PLA) ليس جيشاً قومياً، ولكــن جيش الحزب، حقيقة أن الضرائب التي تدعمه يدفعها الشعب الصيني، ولكن جيش التحرير الصيني يأخذ أوامره فقط من اللجنة العسكرية المركزية (CMC) والتــي هي جزء من الجيش، وحين تصل الأمور إلى نقطة الحسم كما حدث في تانيــامين عام ١٩٨٩ ، كان جيش التحرير الصيني يدافع عن مصالح الحزب ولــيس عــن المصالح القومية،(وإن كان من الممكن الرد على هذه الحجة بأن مصالح الجيش هي في نهاية الأمر تمثل وتتطابق مع المصالح القومية)، يضاف إلى دور ومكانة جيش التحرير في عملية التحديث، ودور دنج فيها، أن دنج لم يكن أبدًا رئيــساً للــصين ولكنه كان يرأس اللجنة العسكرية المركزية خلال السنوات الحاسمة من الثمانينات (١٩٨١- ١٩٨٩)، فقد كان يعلم أن هذا المنصب العسكري القيادي هو الأكثر قوة في الصين.

بعد عقدين من رحيل دنج، ومع مستويات النمو غير العادية، ومؤشــرات ذلك على مكانة الصين في النظام الدولي، وما يتضمن ذلك من صــياغة علاقــات

الصين مع القوى الكبرى وخاصة الولايات المتحدة، وهل نأخذ شكلاً تنافسياً، وربما صداما، أو شكلاً تعاونياً يحقق ما كان دنج يتطلع إليه من أن تكون الصين شريكا Stockholber في النظام الدولي، في ضوء هذا يصبح السؤال الرئيسي ونحن نستعرض سيرة دنج تشاوبنج ودوره هو: ما الذي كان سيفعله هو؟ ما الذي كان سيفعله في إدارة علاقات الصين مع العالم وخاصة الولايات المتحدة بعد هذا المدى من النمو والصعود الذي بلغته الصين؟

في تقدير فوجل أنه فيما سيتعلق بالنزعات الإقليمية، فإن دنج كان يعتقد في تنحيتها جانباً والسماح للناس الحكماء بحلها بشكل سلمى في وقت لاحق، فالصورة الكبيرة بالنسبة له أن لا تستثار حول قضايا الحدود، فما هو مهم هو الحفاظ على علاقات طيبة مع البلدان الأخرى.

كما كان يعتقد أنه في مصلحة الصين أن تكون لها علاقات متناسقة Harmonious مع جيرانها وأن تركز على التنمية السلمية، وقد دعم العلاقات مع أوربا ابتداء برحلة سريعة إلى فرنسا عام ١٩٧٤ وزيارة دولة في السنة التالية، وقام بأول زيارة في التاريخ من زعيم صيني لليابان، ولكنه أيضاً دعم العلاقات الثقافية حتى تكون هناك علاقة إيجابية بين الأمتين، وهو قد طبع العلاقات مع الولايات المتحدة وقام بزيارة منتصرة لأمريكا لتقوية علاقات الصين معها، و قد فتح التجارة مع كوريا الجنوبية ومهد الطريق لتطبيع العلاقة معها، وكان أحد إنجازاته الكبرى هو استعادة العلاقات مع الاتحاد السوفيتي عام ١٩٨٩ بعد ثلاثين عاماً من العلاقات المتوترة، وباختصار فقد حسن دنج علاقات الصين مع كل أمة كبرى.

وفي أول خطاب لزعيم صيني أمام الجمعية العامة قال إن الصين لن تكون أبداً دولة مستبدة، وإنه إذا قهرت واستغلت أمم أخرى فإن العالم، وخاصة الدول

النامية، سوف يفضحون الصين باعتبارها بلداً إمبريالياً، وإنهم بالتعاون مع الشعب الصيني سوف يطيحون بالحكومة الصينية .

وعلى هذا فإذا كان دنج مازال حياً وسط الجدل حول دور الصين العالمي، فإنه سوف يقول إن الصين لن تسلك أبداً السلوك كقوة مهيمنة تتدخل في الشئون الداخلية للأمم أخرى، ولكنها يجب أن تحتفظ بعلاقات متناسقة مع الدول الأخرى، وتركز على النمو السلمي في الداخل.

إذا ما تأملنا سلوك الزعيمين، اللذين خلفوا دنج تشاوبنج وهما: يانج زيمين، وهو جنتاو، فسوف نلمس أنهما إلى حد كبير قد اتبعوا رؤية دنج في إدارة الصين الصاعدة مع العالم، والمتتبع للمواقف الصينية الدولية وبيانات زيمين وجنتاو فسنجد أنهما تركزان على مفهوم الصعود السلمي للصين، وما يتطلبه هذا من علاقات إيجابية مع العالم، وهما يستخدمان مفهوم دنج في علاقات متناسقة Harmonious مع دول العالم، بل أنهم يعترضون على الأصوات القومية التي بدأت ترتفع بين باحثين ومفكرين يعترضون على مفهوم" الصعود السلمي" ويحثون على وجوب تأكيد الصين لنفسها كقوة عظمى، وفي الرد على هذه الأصوات يستعيد الرسميون الصينيون نفس عبارات دنج وهو يصف رد فعل العالم إذا ما اتبعت الصين سلوكاً مهيمناً.

وباعتبار أن الولايات المتحدة والصين تمثلان أقوى دولتين مما حمله هذا من إمكانيات التنافس، فإن القادة الصينيين يؤكدون على جانب التعاون مع الولايات المتحدة، ويرونه في صالح الدولتين والسلم الإقليمي والعالمي، نجد أن هذا لا ينفي القضايا الشائكة في علاقات الصين مع الولايات المتحدة مثل قضايا تايوان والنزاعات حول بحر الصين الجنوبي، وحقوق الإنسان في الصين، والاختلافات حول برنامج إيران النووي، وكوريا الشمالية وأسلوب التعامل معها، غير أنه رغم

هذه الخلافات فإن الصين، مع تأكيد مواقفها الأساسية ومصالحها، تميل إلى التعامل معها في نطاق الحوار وتغليب مناطق الإنفاق على مناطق الاختلاف.

وقد عبر الرئيس الصيني، في أحدث لقاءات مع الرئيس الأمريكي – مؤتمر آسيا باسفيك الذي عقد في هونولولو في ١٢ نوفمبر ٢٠١١ ،عن هذا الاتجاه عندما تحدث عن الوضع الدولي المعقد، وما يحمله من تغيرات جوهرية مع ارتفاع عدم الاستقرار وتزايد المخاطر الإقليمية وقوله إنه في هذه الظروف من المهم مضاعفة التنسيق بين الولايات المتحدة والصين، وإن الصين" تتطلع إلى الحفاظ على تقوية الحوار وستتعاون مع الولايات المتحدة، لاحترام مخاوف بعضنا، وأن ندير بشكل مناسب المشاكل الحساسة".

ويتصور أن ما يدعم هذا الاتجاه لدى القادة الصينيين أن الولايات المتحدة – رغم الأصوات التي ترتفع من وقت لآخر ضد الصين– فإن الإدارات الأمريكية المتعاقبة تدرك في النهاية أهمية تبنّى علاقات إيجابية engagement مع الصين، وأهميتها بالنسبة للمصالح الأمريكية باعتبار أن الصين هي أكبر مشترٍ لأذونات الخزانة الأمريكية، وللأسواق الصينية المتسعة أمام البضائع الأمريكية، ودور الصين في التعامل مع الأزمة الاقتصادية العالمية، فضلاً عن قضايا مثل عدم الانتشار النووي، والبيئة ، ومحاربة الإرهاب.

رؤية لي كوان يو للصين

على الرغم من أن الزعيم لي كوان يو ضئيل الحجم وأنه جاء من دولة صغيرة، أي أنه أصبح شخصيةُ ضخمةً على المسرح الآسيوي والعالمي، وخلال أكثر من نصف قرن من الحياة العامة بما فيها ثلاثين عاماً كرئيس للوزراء، حول لي سنغافورة من مجرد بلد صغير يتاجر في السلع إلى مركز عالمي للمال والتكنولوجيا، ولقد حقق لي منذ بداية طموحاته لسنغافورة من خلال قوة شخصيته وإيمانه العميق بما لم يصدر عنه أبدا أنه يعلم أفضل.

ويمتلك لي القدرة على أن يفسر الماضي، ويفهم الحاضر، وأن يحدد المستقبل، ولعل أكثر ما يبدو في شخصية لي كوان يو أنه أصبح الملجأ الذي يلجأ إليه أنصاره والرؤساء لحل ما لديهم من إشكاليات عالمية طلباً للنصيحة، ولهذا ليس بجديد أن أطلق عليه قادة العالم الشخصية الآسيوية والأسطورية في القرنين العشرين والواحد والعشرين، وكذلك أطلق عليه " المعجزة الاقتصادية الآسيوية" ومؤخراً صدر عن لي كوان يو كتاباً تحت عنوان :

(The Grand Marsters Insights On Shina The United Staes And The Eorld)

وهو عبارة عن مجموعة من المقابلات التي أجراها معه جرهام اليسون، الأستاذ بجامعة هارفرد وعضو مجلس العلاقات الخارجية، ومن هذا الكتاب نستخلص مقابلة ركزت على رؤية لي كوان يو للصين وقادتها ونظامها ومستقبل علاقتها مع جيرانها والولايات المتحدة ومكانتها في النظام العالمي.

حول التساؤل إذا كان قادة الصين جادين في أن تحل الصين محل الولايات المتحدة باعتبارها القوة الأولى في آسيا ثم بعد ذلك في العالم، أجاب لي كوان يو: بالطبع لقد حولوا مجتمعاً فقيراً من خلال معجزة اقتصادية لكي يصبح الآن ثاني أكبر اقتصاد في العالم، وفي الطريق ليصبح أوسع اقتصاد عالمي لقد اتبعوا القيادة الأمريكية في وضع بشر على الفضاء وفي إسقاط الأقمار الصناعية بالصواريخ ، إننا أمام ثقافة ٤٠٠٠ عام و ١,٣ بليون إنسان يملكون أساساً موهوباً لكي يغترفوا منه فلماذا لا يتطلعون ليكونوا القوة الأولى في آسيا والعالم.

لقد رفع الشعب الصيني توقعاته وآماله، فكل صيني يريد أن يرى الصين غنية ومزدهرة ومتقدمة تكنولوجيا وقادرة مثل أمريكا، أوروبا واليابان مثل هذا الإحساس المتيقظ حول المصير، هو قوة غالبة حيث أن الصينيين يريدون أن يشاركوا في هذا القرن متساويين مع الولايات المتحدة.

ويضيف لي كوان يو أنه في اللغة الصينية تعني الصين بالمملكة الوسطى مستعيدة العالم الذي كانوا فيه مسيطرين في المنطقة، عندما كانت الدول الأخرى التي كانت تابعة لهم يأتون إلى بكين لتقديم التحية أما إذا كانت الصين الصناعية والقوية سوف تسلك سلوكاً حميداً لجنوب شرق آسيا مثل الولايات المتحدة عام

١٩٤٥ ، فإن سنغافورة ليست متأكدة وهو نفس أمر بورنأي، أندونسيا، ماليزيا ، تايلاند أو فيتنام.

لقد رأينا بالفعل الصين أكثر تأكيداً لنفسها ومستعدة لاتخاذ مواقف صارمة، إن القلق الأمريكي إنما يدور حول التساؤل حول نوع العالم عندما تصبح الصين قادرة على منافسة التفوق الأمريكي، كذلك فإن عدداً من البلدان المتوسطة والصغيرة قلقة أيضاً، فإنهم ليسوا مستريحين أن الصين تستأنف الوضع الامبريالي التي كانت عليه في القرون الأولى، ولديهم مخاوف أن يعاملوا كدول تابعة للصين، عليها أن تقدم التحية لها مثلما فعلوا في القرون الماضية.

أن الصينيين يخبروننا أن الدول الكبيرة والصغيرة متساوية، وأنهم لا يمثلون قوة مهيمنة، ولكن عندما تفعل شيئاً لا يروقهم، فإنهم يقولون لقد جعلتم ١,٣ بليون غير سعداء، لذا من فضلكم الزموا مكانكم حول إستراتيجية الصين لكي تصبح القوة الأولى، أجاب لي كوان يو أن الصينيين قد استخلصوا أن أفضل إستراتيجية في بناء مستقبل قوى مزدهر هي استخدام القوة الضخمة لعمالهم الماهرين والمتعلمين لكي يتفوقوا على الآخرين.

ولقد قدر الصينيون أنهم يحتاجون من ٣٠ إلى ٤٠ أو ٥٠ عاماً من الهدوء والسلام لكي يقوموا بتغيير نظامهم من النظام الشيوعي إلى نظام السوق، وأن يتفادوا الأخطاء التي ارتكبتها ألمانيا واليابان في منافساتهم من أجل القوة والنقود والموارد، وهو ما قادهم في القرن الماضي إلى حربين فظيعتين .

كما استخلصوا أيضًا أن الروس أخطئوا ووضعوا تركيزاً كبيراً على الإنفاق العسكري والقليل على التكنولوجيا المدنية، الأمر الذي جعل اقتصادهم ينهار واعتقدوا أن القيادة الصينية تعلمت أنه إذا تنافست مع أمريكا في التسلح، سوف تفشل وتخسر لذا أبقي رأسك منخفضاً وابتسم لمدة ٤٠-٥٠ عاما.

وعندما سئل لي كوان يو عن العقبات الكبيرة التي تواجه الصين في تنفيذ هذه الإستراتيجية، قال إنه سيكون هناك ضغط ضخم بسبب حجم البلد والطبيعة المعقدة لمشاكل البنية التحتية الفقيرة: المؤسسات الضعيفة والنظم الخاطئة التي أقاموها وأمام الصين العديد من المعوقات والعقبات التي يجب التغلب عليها أكثر مما يدرك معظم المراقبين، وأول هذه العقبات هي مشكلات الحكم بما يعنى غياب القانون، والذي هو في صين اليوم أقرب لحكم الإمبراطور، بلد ضخم حيث أباطرة صغار والعادات الثقافية التي تحد من الخيال والخلق، وصعوبة اللغة المتزايدة على الأجانب أن يتعلموها بشكل كافٍ واحتضان الصين، كما أن ثمة قيود حادة على جذب واستيعاب الموهوبة من بلاد أخرى، إن الصين وبشكل لا مفر منه سوف تلحق بالولايات المتحدة، فيما يتعلق بحجم الإنتاج الإجمالي المطلق، ولكن قدرتها على الإبداع والخلق قد لا تساير أبداً الولايات المتحدة بسبب أن ثقافاتها لا تسمح بالتبادل الحر، والاختلاف في الأفكار، إن التكنولوجيا سوف تجعل نظام حكمهم بالياً، فمع ٢٠٣٠ فإن ٧٠ أو٧٥% من شعبهم سوف يكونون في المدن الصغيرة والكبيرة وسوف يمتلكون التليفونات المحمولة والانترنت والقنوات الفضائية التليفزيونية، وسوف يكونون على علم كامل بما يجرى في العالم، وأنهم سيستطيعون أن ينفذوا ما يريدون، فأنت لن تستطيع أن تحكمهم بنفس الطريقة التي تحكمهم الآن.

وعندما سئل لي كوان يو كيف يرى القادة الصينيون دور الولايات المتحدة في آسيا في الوقت التي تصبح فيه قوة أولى، أجاب أن القيادة الصينية تدرك أن القوة القائدة في المنطقة لسبع عقود استطاعت الولايات المتحدة أن تقدم الاستقرار الذي سمح بنمو غير مسبوق بما فيها اليابان.

إن الصين تعلم أنها منافذ للأسواق الأمريكية والتكنولوجيا، وفرص الطلاب الصينيين للدراسة في الولايات المتحدة، وأن يأتوا للصين بأفكار وآفاق جديدة، فإنها لا ترى كسباً في مواجهة الولايات المتحدة قبل ٣٠-٥٠ عاما بشكل ممكن أن يشمل هذه الفوائد وبدلاً من ذلك فإن استراتيجياتها هي أن تنمو في داخل هذا الإطار وأن تنتظر أن تصبح قوة بما فيه الكفاية لكي تعيد نجاح هذا النظام السياسي والاقتصادي.

وحول تأثير صعود الصين أجاب لي كوان يو أن إستراتيجية الصين لجنوب شرق آسيا بسيطة إلى حد كبير، فالصين تخاطب المنطقة قائلة: تعالوا لتنموا معنا.. وفي نفس الوقت القادة الصينيين يريدون أن يبلغوا انطباعاً أن صعود الصين أمر حتمي وأن البلدان سوف تحتاج أن تقرر إذا ما كانت تريد أن تكون عدوة أم صديقة لها.

وعندما سئل لي كوان عن إمكانية أن تصبح الصين ديمقراطية، أجاب بالنفي حيث أن الصين لن تصبح ديمقراطية ليبرالية، فإذا ما فعلت سوف تنهار، وعلى هذا فإني متأكد تماماً كما أن الصينيين المثقفين يفهمون ذلك فإذا حاولت الصين أن تصبح ديمقراطية فإن ذلك سيؤدى لحدوث ثورة في الصين .

ويتساءل لي كوان يو أين طلاب ميدان تيانامين الآن، إنهم لا علاقة لهم بذلك حيث أن الشعب الصيني يريد إحياء الصين، فهل يمكن أن تكون ديمقراطية برلمانية ؟ ممكن في القرى والبلدان الصغيرة، إن الصينيين يخشون الفوضى، وسوف يضلون الطريق على جانب الحرص وسوف تكون عملية تطورية طويلة، ولكن من الممكن أن نفكر في مثل هذه المتغايرات، فالنقل والاتصالات أصبحت أسرع بكثير وسوف يتعرف الشعب الصيني على نظم وثقافات أخرى، ويعرفون عن مجتمعات أخرى من خلال السفر، والانترنت، والهواتف الذكية وثمة شيء آخر

أكيد وهو أن النظام الحالي لن يظل غير متغير للخمسين عاما القادمة من أجل الوصول لتحديث الصين فإن قادتها مستعدين بأن يجربوا كل الوسائل فيما عدا الديمقراطية وهذا لسببين رئيسين وهما أن الحزب الشيوعي يجب أن يكون لديه احتكارا للسلطة لضمان الاستقرار وأن نظام متعدد الأحزاب للجميع يمكن أن يؤدى للخسارة.

وعندما سئل لي كوان يو كيف يقدم رئيس الحزب الشيوعي تنى بن بينغ، قال أن بينغ قد عاش حياة صعبة أكثر من سلفه يو جين تاو، فمثل أبيه الذي قد أقصى إلى الريف إلا أنه واظب ولم يكن إبحاراً هادئاً بالنسبة لهم، ولا شك أن حياة بن بينغ قد جعلته متشدداً فهو ليس معنى أنه لن يتحدث ولكنه لن يفصح عما بما داخله.

إن هناك دائمة ابتسامة لطيفة على وجهه سواء قلت أم لم تقل شيئاً يضايقه، ولكن لديه إرادة صلبة في روحه أكثر من هيو جين تاو الذي صعد في الصفوف بدون أن يختبر المحاكمات والعقبات التي تحملها، حيث أن لديه استقراراً عاطفياً واضحاً والذي لا يسمح بمعاناته الشخصية أن تؤثر في حكمه بأنه شخص مؤثر.

إلى أين تتجه علاقات القوة الدولية

ثمة اتفاق بين الباحثين والمتابعين لحالة وتطور علاقات القوى العالمية أن النظام الدولي يشهد حالة سيولة وعدم التحديد حول طبيعته، وهل هو نظام أحادى القطبية أم ثنائي أم متعدد المراكز والأقطاب؟ إن هو كما تصور بعض الباحثين يمر بحالة من اللاقطبية Non- poiarity ، حيث لا تستطيع قوة واحدة أن تدعى أنها تمثل القوة الوحيدة على المسرح الدولي.

وقد بدا هذا التطور منذ نهاية الحرب الباردة واختفاء الاتحاد السوفيتي الذي كان يشارك القوة الأعظم الأخرى في إدارة النظام الدولي، بهذا الاختفاء للقوة المنافسة بدت الولايات المتحدة أنها القوة الوحيدة الباقية، ورغم هذا بدأ بعض الباحثين المؤرخين يتساءلون عما إذا كانت الولايات المتحدة قد خرجت حقاً منتصرة من الحرب الباردة أم انحنت لها، إن أعباء هذه الحرب قد أثرت في عناصر قوتها، وإن ثمة قوى أخرى كانت تبنى اقتصادياتها، يمكن أن تشاركها قيادة النظام الدولي، ومن ثم بدأت عملية فحص للقوى الدولية الأخرى والتساؤل عما إذا

كانت حقاً مؤهلة لقيادة النظام الدولي أو على الأقل المشاركة في إدارته وقد انصب هذا الفحص على قوى مثل الاتحاد الأوروبي، اليابان، الصين وربما روسيا، إذا ما استعادت قوتها، وقد استمرت عملية الفحص والتقييم خلال حقبة التسعينات، ولكن نتائج هذا الفحص قد انتهت إلى أنه إذا كانت كل قوة من هذه القوى تمتلك عنصراً من عناصر القوة وبذلك تصبح بُعداً واحداً One dimension ، فإن الولايات المتحدة هي القوة التي تمتلك عناصر القوة العسكرية والاقتصادية والتكنولوجية مجتمعة بشكل يؤهلها لأن تكون على قمة النظام الدولي، وقد توافقت هذه الحقبة مع إدارة الرئيس الأمريكي كلينتون الذي ركز منذ مجيئه على بناء الاقتصاد الأمريكي والدور الأمريكي في الإقتصاد العالمي ومؤسساته وبالفعل ترك كلينتون الرئاسة وفائض الميزانية الأمريكية يبلغ ٢ تريليون دولار.

وهكذا جاءت إدارة جورج بوش الابن والولايات المتحدة تتمتع بهذه المكانة والقوة، بحيث أصبح سؤال الخبراء والمحللين هو ما الذي ستفعله الولايات المتحدة بهذه القوة، وظهر من يطالب بأن هذه هي اللحظة لكي تمارس بحق الولايات المتحدة وتؤكد قوتها ودورها وهيمنتها الدولية، والواقع أن جورج بوش الابن بدأ في بداياته يدعو الولايات المتحدة إلى التواضع، وأنه إذا مارست أمريكا التواضع، فإن الجميع سوف يتعاونون معها، غير أن هذه الصورة قد تحولت مع ما تعرضت له أمريكا في أحداث ١١ سبتمبر الذي هز الثقة الأمريكية في أمنها، وبفعلها ، كما قيل ، فإن الرئيس الأمريكي قد ولد من جديد، كما كانت الفرصة أمام تيار المحافظين الجدد لكي يستعيدوا مشروعاتهم ومخططاتهم التي كانوا يروجون لها خلال التسعينات عن القرن الأمريكي والهيمنة الأمريكية، وهكذا صاغت إدارة بوش مفاهيمها الإستراتيجية على أساس تقديم القوة واستخداماتها على الدبلوماسية وعلى العمل المنفرد في تحقيق هذه الأهداف الدولية وعدم الاعتماد على المنظمات

إذا ما وقفت أمام هذه الإستراتيجية إلى دخول أمريكا في حربين في أفغانستان ثم في العراق، أثبتت الخبرة فساد الافتراضات والتصورات والحسابات التي استندت عليها، ومع ولاية بوش الثانية، غير أن هذا لم يتغير من حقيقة الخسائر المادية والبشرية التي تعرضت لها الولايات المتحدة والأوروبيين، وتعرضت معها مكانتها وصورتها الدولية، وانتهت إدارة بوش بأزمة مالية واقتصادية أعادت إلى الأذهان ركود الثلاثينات وكادت تقوض الدور الأمريكي للاقتصاد العالمي، وكان هذا هو الميراث الذي ورثه الرئيس الأمريكي الجديد باراك أوباما، الذي بدأ حملته الانتخابية بشعارات تكاد تكون النقيض لسياسات إدارة بوش والعمل على تصحيحها، إلا أن سنوات إدارة أوباما، رغم محاولاته أن يقيم علاقة أمريكا مع العالم على أساس المشاركة لا الهيمنة ومحاولة ترميم الاقتصاد الأمريكي، إلا أن هذا لم يوقف تيار تراجع المكانة الأمريكية واهتزاز الصورة التي خرجت بها من الحرب الباردة كقوة عظمى في العالم، كان هذا هو أساس عملية الفحص الجديدة للقوى الدولية، بهدف تحديد طبيعة النظام الدولي، والتعرف على القوة أو القوى التي سوف تشارك في صنعه، وقد شملت عملية الفحص والتقييم هذه القوى التي يمكن أن تنافس أو تشارك الولايات المتحدة وهي الاتحاد الأوروبي، واليابان، ومجموعة الـ BRICS، وروسيا، والبرازيل والصين.

وقد لا يتسع المجال للعرض التفصيلي لنتائج هذا التقييم بالنسبة لكل قوة ولكن سنحاول أن نقدم خلاصات هذا التقييم.

بالنسبة للاتحاد الأوروبي:

يعتبر جوزيف نأي أن السؤال الرئيسي في تقييم مصادر أوروبا هو ما إذا كانت أوروبا سوف تطور تماسكاً سياسياً واجتماعياً كافياً للعمل كوحدة حول نطاق

واسع من القضايا الدولية؟ أم أنها سوف تبقى مجموعات محدودة من البلـدان ذات قوميات وثقافات سياسية وسياسات خارجية مختلفة بقـوة خاصـة، وأن الهويـات الوطنية مازالت قوية حيث الهوية الأوروبية المشتركة رغم مرور ٦ عقـود مـن التكامل والمصالح الوطنية؟ رغم أنها خفت مقارنة بالماضي حتى أنهـا مازالـت قائمة.

اليابان :

بالنسبة لليابان كان التساؤل: هل إحياء اليابان بعد حقبة أو حقبتين يجعلهـا تصبح تحدياً للولايات المتحدة اقتصادياً وعسكرياً كما كان يُتنبأ منذ حقبة مـضت؟ إن هذا يبدو غير محتمل، فاليابان تقريبا بحجم كاليفورنيا، فإن اليابان لـن يكـون لديها أبداً النطاق الجغرافي أو السكاني للولايات المتحدة، وقد يمدها نجاحهـا فـي التحدث والديمقراطية وثقافتها ببعض القوة الناعمة ولكن الاتجاهـات والـسياسات المحركة حول العرق قد تعوقها.

مجموعة Brics:

عندما صك جولدمان مـاكس تعبيـر Brics عـام ٢٠٠١ لـم يتخيـل الاقتصاديون ولا بقية العالم أن البرازيل و وروسـيا، والهنـد، والـصين سـوف يجلسون معاً لكي يشيدوا برنامجا جوهرياً في يوم من الأيام.

وبعد الأزمة المالية الأخيرة قدر جولدمان ماكس أن مجموعة الناتج الكلـي لـ Brics قد تتعدى ناتج مجموعة الـ ٧ في عام ٢٠٠٧، إلا أنها تجمع بلـداناً بينها انقسامات عميقة، وتضم روسيا، أعظم قوة سـابقاً مـع ثـلاث بلـدات ذات اقتصاديات نامية ــ الأمر الذي يحمل معنى قليلاً .

روسيا:

هناك على جانب متطرف هؤلاء الذين يتوقعون الانحدار، ويرون روسيا على أنه " اقتصاد المحصول الواحد" ، مع مؤسسات فاسدة ومشكلات ديموغرافية وصحية لا يمكن التغلب عليها ، بينما يجادل الآخرون أن الإصلاح والتحديث سوف يمكّن لروسيا أن تتغلب على هذه المشكلات، وأن القيادة تتجه إلى هذا الاتجاه، ومازالت روسيا تفرض تهديداً ممكناً للولايات المتحدة، لأنها إلى حد كبير البلد التي لديها الصواريخ والرؤوس النووية الكافية لتدمير الولايات المتحدة، كما أن تراجعها النسبي جعلها تتردد في التخلي عن مكانتها النووية ، كذلك تمتلك روسيا نطاقاً ضخماً وسكاناً متعلمين وعلماء ماهرين ومهندسين ومصادر واسعة، غير أنه يبدو من غير المحتمل أن روسيا سوف تمتلك مرة أخرى المصادر التي تمثل نفس النوع مع القوة الأمريكية، الذي مثله الاتحاد السوفيتي لعقود بعد الحرب العالمية الثانية.

الهند:

تُذكر الهند غالباً كقوة عظمى مستقبلية، وسكانها الـ ١,٢ بليون يساوون أربع مرات سكان الولايات المتحدة، ومن المحتمل أن تتعدى الصين عام ٢٠٢٥، ويتنبأ بعض الهنود عالماً من تلاقى الأقطاب مع منتصف القرن: الولايات المتحدة ، والصين ، والهند ، وقد جادل أحد الاقتصاديين: أنه إذا استقرأنا الاتجاهات الحالية فإن الهند سوف تمتلك ثالث أكبر اقتصاد وطني (بعد الولايات المتحدة ، والصين) خلال ٢٥ عاماً من الآن .

ولدى الهند مصادر قوة عسكرية هامة، وما تقدر بـ ٦٠-٧٠ سلاحاً نووياً، وصواريخ متوسطة المدى، وبرنامج فضاء، و٣٠٠١ جندي وإنفاق عسكري

يقدر بـــ ٣١٠ بليون دولار أي ٢,١% من الإنفاق العالمي الكلى، وفي نطاق القـــوة الناعمة فإن لدى الهند ديمقراطية راسخة، وثقافة شعبية نابضة بالحياة ذات تـــأثير عالمي، كما أن لدى الهند مهاجرين ذوى نفوذ، وصناعتها لسينما بوليـــوود هـــي الأوسع في العالم، وبلغة عدد الأفلام المنتجة سنوياً هي تنافس هوليود في أجـــزاء من آسُيا والشرق الأوسط، وفي نفس الوقت تبقى الهند، كثيراً جداً، بلـــدا متخلفـــاَ بمئات الملايين من المواطنين غير المتعلمين الذي يعيشون في فقر، وحوالي ثلـــث الشعب الهندي الذي بلغ تعداده ١,١ بليون يعيش في ظروف فقر حاد وحوالي ثلث فقراء العالم يعيشون في الهند، ويمثل مجموع الناتج القومي الإجمالي الهندي الذي يبلغ ٣,٣ تريليون دولار أقل بـــ ٣٣% من ناتج الصين ، و٨ بليون ، ٢٠% مـــن ناتج الولايات المتحدة، وليس من المحتمل أن تطور الهند مصادر القوة لكي تصبح متحدياً عالمياً للولايات المتحدة في النصف الأول من هذا القرن، ولكن لديها أصول التي يمكن أن تضاف إلى كفات ميزان ائتلاف هندي صيني، بسبب النمو الـــسريع والتجارة المتزايدة لهذين البلدين، بدأ بعض المراقبين استخدام عبارة " chindia للإشارة إلى ما يضم البلدين، إلا أنه تبقى اختلافات ضخمة بينهما، ومن ثَـم فـــإن احتمال أن مثل هذا الائتلاف سوف يصبح معادياً خطيراً للولايـــات المتحـــدة هـــو احتمال صغير.

البرازيل:

منذ أوقف التضخم واختناقات السوق الاقتصادية في التسعينيات، أظهـــرت البرازيل معدلاً عاليا من النمو الاقتصادي في حدود ٥% في الحقبة الأولـــى مـــن الألفية الثانية، والتي اعتقد بعض المحللين أنها قد تزداد في المستقبل، وبمـــساحة تبلغ ثلاث مرات حجم الهند ٩٠% من سكانها متعلمين، ومجموع ناتج كلى قيمته ٢

تريليون دولار مساوٍ لروسيا، ومتوسط دخل الفرد الذي يبغ ١٠,٠٠٠ دولار (أكثر ثلاث مرات من الهند ، ومرتين من الصين)، فإن البرازيل تملك بذلك مصادر قوة مؤثرة ، وفي عام ٢٠٠٧ كان اكتشاف ضخم لاحتياطات بترولية يجعل البرازيل قوة هامة في مجال الطاقة أيضا، أما القوة العسكرية للبرازيل فهي أقل كثيراً، وعلى عكس دول الـ Brics فإن البرازيل ليس لديها أسلحة عسكرية، ولكنها أكبر دولة في قارتها، وليس لها نظير منافس بين جيرانها، وبلغة القوة الناعمة فإن ثقافة البرازيل الشعبية في المهرجانات وكرة القدم لها جاذبية عالمية ، وقد تبنت سياسة خارجية مصممة لكي تقدم صورة إيجابية في أمريكا اللاتينية وما وراءها، ولكن البرازيل تواجه مشكلة خطيرة فبنيتها التحتية غير ملائمة، ونظامها القضائي مثقل، ولديها معدل عالٍ جداً من الجريمة، كما ينتشر الفساد، وفيما يتعلق بأهداف السياسة الخارجية فإن البرازيل في بداية تحقيق الثقل الذي تمتلكه، وقد قاومت عدداً من التدخلات من الولايات المتحدة لتغيير سياساتها تجاه بلدان مثل إيران وفنزويلا، ولكنها لم تحقق تقدماً ملحوظاً في أهداف السياسة الخارجية التي وضعتها لنفسها عام ٢٠٠٣: مقعد دائم في مجلس الأمن ، وصفقة تجارية عالمية في دورة منظمة التجارة العالمية في الدوحة، وخلق كتلة قوية في أمريكا الجنوبية.

الصين:

بين الدول الـ BRICS ، فإن الصين إلى حد كبير هي العملاق باقتصاد وعدد سكان مساوٍ للدول الثلاث الأخرى مجتمعة ، وزيادة على ذلك فإن لديها أكبر جيش وأكبر ميزانية عسكرية، وأكبر معدل نمو وأكثر مستخدمين للإنترنت، وتقع الصين وراء روسيا والبرازيل في مستوى دخل الفرد، ولكن هذا قد يتغير إذا ما

احتفظت الصين بمعدلات نموها العالمية، فإن رقماً أعلى من ٧% سنوياً، ســوف يضاعف الاقتصاد الصيني خلال عقد.

وقد تعافت الصين بسرعة من الأزمة الاقتــصادية عــام ٢٠٠٨، وتوقــع جولدمان ساكس أن الحجم الكلى للاقتصاد الصيني سوف يتجاوز اقتصاد الولايات المتحدة عام ٢٠٢٧، بل ذهب أحد الحاصلين على جائزة نوبل إلى أبعد من هذا إلى المستقبل وقال إنه مع عام ٢٠٤٠، فإن الصين سوف تنتج ٤٠% من مجموع الناتج العالمي، ورغم أن الصين تمتلك مصادر قوة مؤثرة، إلا أنها يجب أن تتشكل حول التوقعات التي تقوم في المقام الأول على معدلات النمو الحالية، والبلاغة السياسية، والحقيقة أن نمو الصين تسمية خاطئة، فعودة الصين للبزوغ سوف تكون أكثر دقة لأنه بالحجم والتاريخ، فإن المملكة الوسطى Middle Kingdom كانت لفتــرة طويلة قوة عظمى في آسيا. حتى لو تعدى الناتج القومي الإجمالي للــصين نــاتج الولايات المتحدة في حوالي عام ٢٠٣٠، فإن اقتصاديات البلدين قد يكونا متساويين في الحجم، ولكن ليس في البنية، فسوف تظل الصين ريفا واسعاً متخلفاً وسوف تبد، تواجه مشكلات ديمقراطية، وخلال الحقبة الأولى من بدايات القرن، انتقلت الصين إلى أكبر معدل في العام، إلا أن نموذج الصين في التنمية القائم علــى التــصدير سوف يحتاج إلى التكيف مع الوقت الذي تصبح فيه التجارة والتوازنات المالية أكثر تنافساً بعد أزمة عام ٢٠٠٨، ويجادل روبرت وزليك رئــيس البنــك الــدولي، أن نموذج الصين في التنمية القائم على التصدير لن يكون مستداماً عبر الــزمن، لأن الاحتفاظ بمعدل نمو ٨% سوف يتطلب مضاعفة نصيب الصين من الصادرات مع عام ٢٠٢٠.

كما ذكرنا في مقدمة هذا المقال، فإن عملية الفحص التي جــرت للقــوى الدولية وقدراتها وإمكانياتها، قد انتهت إلى أن الولايات المتحدة هي القوة الوحيــدة

التي تمتلك القدرات العسكرية والاقتصادية والتكنولوجية مجتمعه، ولهذا فإنها هي القوة المؤهلة لقيادة النظام الدولي، وقد ظل هذا الضوء ساريا حتى نهاية التسعينات، واليوم فإن الجديد في عملية الفحص الجديدة، التي استعرضها، هو السياق الجديد الذي تجرى فيه عملية التقييم للقوة الدولية، وهذا السياق هو ظهور التآكل في قدرات وإمكانيات الولايات المتحدة، وهو التآكل الذي بدأ وتطور مع عهد جورج بوش الابن والمشكلات الخارجية والداخلية، والذي لم يتمكن باراك أوباما من وقفه، بشكل يصح معه القول إن عالم الغد هو عالم اللاقطبية Non-poiar والذي لا تتمتع فيه دولة واحدة برسم السياسات الدولية وتنفيذها.

الانهيار السوفيتي من الداخل هل تتكرر التجربة ؟

توافق ديسمبر من العام ٢٠١١ مع مرور عشرين عاماً على الإعلان الرسمي عن تفكك الاتحاد السوفيتي واختفائه من المسرح الدولي، كالقوة العظمى الثانية التي ظلت على مدى قرابة ٥٠ عاماً تتنافس مع القوة العظمى الأخرى وهي الولايات المتحدة، على النفوذ والمكانة في العالم، وهو ما خلق، ما أصبح يعرف بالحرب الباردة، التي تسربت إلى كل مناطق العالم، وهكذا باختفاء الاتحاد السوفيتي انتهت مرحلة الحرب الباردة، وظهرت الولايات المتحدة باعتبارها القوة العظمى الوحيدة في العالم، غير أنه إذا ما كان اختفاء الاتحاد السوفيتي أعلن عن اختفائه دولياً وجيوستراتيجياً قد أعلن عنه رسمياً في ٣١ ديسمبر ١٩٩١ ، إلا أن مقدمات انتهاء الحرب الباردة قد ظهرت قبل ذلك وتحديداً منذ عام ١٩٨٥، حيث تولى الزعامة في الاتحاد السوفيتي زعيم سوفيتي شاب، ٥٤ عاماً ، وهو ميخائيل جوربا تشوف، والذي جاء بهدف تحويل الاتحاد السوفيتي، وإعادة النظر في المقومات الرئيسية لسياسته الداخلية والخارجية، وذلك من خلال مفاهيم: "الجلا

سنوست" وتعنى الشفافية "والبرستوريكا" وتعنى البناء الجديد (١) وقد تعرضت هذه المفاهيم لإعادة تقييم الأسس التقليدية لسياسة الاتحاد السوفيتي في العلاقة مع الولايات المتحدة والغرب، القائمة على التنافس والمواجهة، وهي التوجهات التي كان لها صداها عند الولايات المتحدة وإدارتها الجمهورية آنذاك، والذي كان رئيسها رونالد ريجان حين جاء إلى الحكم عام ١٩٨٠، قد دخل في مواجهة سياسية وعسكرية وأيديولوجية مع قادة الاتحاد السوفيتي، ويشكل خلق ما أصبح يعرف بالحرب الباردة الجديدة (٢)، غير أن المفاهيم والسياسات التي جاء بها جوربا تشوف قد شجعت رونالد ريجان على الدخول في مرحلة جديدة في العلاقات مع الاتحاد السوفيتي، وكان مستعداً وهو الزعيم الذي لم يلتق مرة واحدة في لقاء قمة مع زعماء الاتحاد السوفيتي، أن يعقد ٥ مؤتمرات قمة مع الزعيم السوفيتي الجديد، في واشنطون، وجينيف، ومالطة وريكيافيك وموسكو، دارت جميعها تقريباً حول أعقد علاقات القوانين وهي: علاقات التسلح الاستراتيجي، وكادا يصلان إلى اتفاق تاريخي يصفي هذه القوى (٣) وقد تأكد تخلى جورباتشوف عن سياسات الحرب الباردة، عندما أعلن عن أنسحاب القوات السوفيتية من أفغانستان، والذي كان مؤشراً على الموقف الجديد للاتحاد السوفيتي من النزاعات الإقليمية (٤)، وعدم تدخله العسكري عندما انهار حائط برلين، الذي كان رمزاً على الحرب الباردة وتقسيم أوربا عام ١٩٨٩، وبالتوازي مع هذا إعلانه أنه لن يتدخل بالقوة لصالح النظم الشيوعية في أوربا الشرقية، فضلاً عن إعادته النظر في السياسات السوفيتية التقليدية في دعم بلدان العالم الثالث، صديقة الاتحاد السوفيتي، غير أن طبيعة الاتحاد السوفيتي كنظام وكدولة لم تحتمل هذه التغيرات الجذرية، مما أدى إلى تفككه والإعلان عن ذلك رسمياً في مدينة برست في بيلا روسيا في ٣١ ديسمبر ١٩٩١.

مع هذا الحدث التاريخي، ظهر في الولايات المتحدة جدل واسع حول: من
و المسئول عن انهيار الاتحاد السوفيتي؟ وفي هذا ظهرت مدرستان من التفكير،
مدرسة التي عرفت بمدرسة ريجان Reagan Victory School التي اعتبرت
ن مفاهيمهم وسياساتهم كانت القوة الدافعة وراء هذا التحول على المستوى
لأيديلوجى والعسكري، بتصميم على بناء القوة العسكرية الأمريكية وعدم التفاوض
لا من مركز القوة، وتصديهم للسياسات السوفيتية في المناطق الإقليمية، كان من
لعوامل الحاسمة وراء التحول في التفكير السوفيتي ومراجعته لسياساته التقليدية،
قد بلور ريجان هذا التفكير في خطبة الوداع التي ألقاها مع نهاية إجازته حين
ال: " لقد كنا نهدف إلى تغيير أمة، وبدلاً من ذلك فقد غيرنا العالم " (٥) ويفصل
نصار هذه المدرسة ، هذا التفكير فيعتبرون أنه على المستوى الأيديلوجى، فإن
حملة ريجان الأيديولوجية ضد الاتحاد السوفيتي وقادته قد أنزلت ضربة الموت
النظام السوفيتي، وأن الحرب الباردة قد كسبت نتيجة للمواقف الأيديولوجية التي لا
تنازل فيها، والتأكيد على تفوق الغرب وقيمه، والإنكار الكامل لأية شرعية أخلاقية
لنظام السوفيتي، وأنه وراء هذا التفكير كانت تكمن فلسفة أيديولوجية عميقة للتاريخ
و السياسة وفهم للسياسة باعتبارها حرباً بين الأفكار، والاعتقاد، مثلما اعتقد لينين،
أن الأفكار أكثر قوة من المدافع، فقد جعل هذا التفكير، الذي وجه أنصار مدرسة
ريجان، ينتقدون أصحاب مدرسة الواقعية realpotitik من أمثال جورج كينان
وليبمان وموجانتثور وكيسنجر باعتبار أن أفكارهم تمثل سوء فهم للاتحاد السوفيتي،
كما رأوا في برامج كيسنجر للوفاق بين الشرق والغرب مساومة أخلاقية، بما كان
يعنى نزعا منفردا للتسلح الأيديلوجى (٦) وعلى المستوى العسكري فقد اعتبر
أنصار مدرسة ريجان أن المواجهة العسكرية والإصرار على البناء العسكري،
وخاصة برنامج الدفاع الاستراتيجي SDI كان مقدمة ضرورية لما تلا ذلك من

سلام ووفاق، فعندهم فإن الاتحاد السوفيتي وقادته لم يحترموا إلا القوة، وإن إعادة تسليح أمريكا كان ضرورة لإقناعهم أن الغرب لم يكن في مرحلة تدهور أو ضعف، وأنه مازال مستعداً لبذل التضحيات المطلوبة لضمان الصمود ضد أي ضغط أو تهديد سوفيتي (٧) وتلخص مدرسة ريجان رأيها، في تأثير البناء العسكري، وبشكل خاص مبادرة الدفاع الاستراتيجي على التطورات السوفيتية، بالقول بأنه قد وضع الاتحاد السوفيتي وقادته أمام مأزق وخيارين كليهما صعب: إما مجاراة البناء العسكري الأمريكي إلى حد الإفلاس، أو عدم مجاراته، وبذلك يكون الاتحاد السوفيتي قد فقد ادعاءه الوحيد الذي يجعل منه قوة عظمى، وهي القوة العسكرية، بل إنهم يذهبون إلى أن عملية البناء العسكري الأمريكي التي تولتها إدارة ريجان، كانت هي العامل المساعد catalyst الذي حركه وأعطى بعداً جديداً للنقاش، الذي كان قد ظهر حتى خلال عهد بريجنيف في المعاهد ومراكز البحث، بل والمؤسسات العسكرية والعلمية، فإن الاتحاد السوفيتي مهدد بأن يصبح من مناطق العالم الثالث اقتصادياً واجتماعياً، وهو المفهوم الذي جرت مناقشته علناً بعد مجيء جورباتشوف(٨)، تلك كانت دعاوى مدرسة ريجان التي نسبت إلى سياساتها، في الضغط العسكري والسياسي والأيدلوجي على الاتحاد السوفيتي، نسبت الفضل في إنهاء الحرب الباردة بالشكل الذي انتهت به، وفي غلق الخيارات أمام قادته، إلا خيار التخلي عن سياساته التقليدية في الخارج والداخل، غير أن دعاوى أنصار مدرسة ريجان تلك قوبلت بالتشكيك والتفنيد من العديد من المحللين والباحثين، الذين اعتبروا أن القول بأن سياسات ريجان كانت هي السبب فيما حدث هو قول مضلل وغير دقيق، سواء في تفسير أحداث الثمانينات أو في الفهم الأعمق للقوى التي أدت إلى إنهاء الحرب الباردة. ويستند من يعترضون على تفسيرات مدرسة ريجان إلى أنه بشكل عام فإن التحولات السياسية والتاريخية الكبرى من

الصعب أن تكون نتاج قوة واحدة حتى لو كانت قوة عظمى(٩) وإنما هي محصلة تفاعل عدد من العوامل والتطورات التي تحدث عادة على جانبي الصراع، وإن كانت بنسب متفاوتة، وعندهم، أن الحرب الباردة قد انتهت أساساً بسبب فشل النظام السوفيتي ذاته(١٠)، وإن كانت القوى الخارجية قد أسرعت به وكشفت عن أزمته، ويفصلون هذا بالقول بأن: المشكلة الرئيسية للنظام السوفيتي كانت في فشله في تقديم مستوى مقبول من المعيشة لشعبه، وفي عدم صلاحية وكفاءة النظام الاقتصادي، ولكن العبء العسكري كان عاملاً مساهماً في الفشل الاقتصادي، وإلى الحد الذي كان فيه الإنفاق العسكري السوفيتي هو استجابة للمستويات الغربية في التسليح، فإن عملية البناء العسكري الأمريكي في الثمانينات كانت كالقشة التي قصمت ظهر البعير، وإذا كان، بهذا المعنى تصبح السياسة الأمريكية في عهد ريجان قد أسرعت بالانهيار السوفيتي، فإن ذلك لم يكن إلا عاملاً مساعداً(١١).

أما على المستوى الأيديلوجي فإن معارضي مدرسة ريجان يعتبرون أنه وإن كانت نهاية الحرب الباردة قد سجلت انتصاراً للأيديولوجية المتشددة لريجان واليمين الأمريكي المتشدد، فالشرعية الأيديولوجية للنظام السوفيتي قد انهارت، ليس بسبب هذه البيانات المتشددة ،ولكن بسبب إغراء النموذج الغربي المادي والثقافي وتفويضه للتفسير السوفيتي للحضارة الغربية، التي أغوت عناصرها مجتمعات العالم الشيوعي بشكل أكثر فعالية من أي هجوم أيديولوجي معادٍ للشيوعية، وقد عالج المؤرخ والدبلوماسي الأمريكي جورج كينان ادعاء إدارة ريجان بشكل أوسع حين قال:" إن الإدعاء بأن أية حكومة أمريكية لديها القدرة للتأثير بشكل حاسم على مجرى الغليان الداخلي في بلد كبير آخر هو ببساطة إدعاء طفولي.. إن أية قوة عظمى ليس لديها مثل هذا النفوذ على التطورات الداخلية لقوة أخرى" (١٢) واتساقاً مع موقفه التقليدي الناقد لتركيز الولايات المتحدة على الأمور العسكرية في التعامل

مع موسكو، فقد أنكر كينان أن يكون البناء العسكري الأمريكي خلال الثمانينات له تأثير كبير على التغيرات التي حدثت في الاتحاد السوفيتي، بل إنه إذا كان هذا البناء قد ساهم في شيء فهو تقوية أيدي المتشددين في الكرملين، الذين عارضوا التغييرات التي كان جوربا تشوف يحاول تنفيذها، وذهب كينان إلى أن تطويع النظام السوفيتي، أو الذي استخدمه في مقالته الشهيرة في أوائل وبدايات الحرب الباردة mellowing كان في المقام الأول نتيجة قوى تفاعلت داخل المجتمع السوفيتي، وكانت أهم هذه القوى في رأيه هي فقدان الشعب السوفيتي للوهم بفضل النظام الشيوعي، في تقديم المزايا المادية التي وعد بها، وشعوره وفقاً لمبادئه الستالينية، وعدم خضوع الأقليات الإثنية للأغلبية الروسية، وتزايد وعى الشعب السوفيتي بالظروف خارج بلاده، وبالفجوة التي تفصله عن الأمم المتقدمة في الغرب، كل هذه الأوضاع هي التي جعلت أكثر القادة السوفيت بصيرة يقررون أن إصلاحاً جذرياً هو وحده الذي يحول دون أن يسقط الاتحاد السوفيتي في الطريق(١٣) غير أنه رغم هذا التفنيد لادعاءات إدارة ريجان حول دورها في " تغيير العالم" فإن بعضًا من الباحثين ، حتى من لم يقبلوا كلية ادعاءات مدرسة ريجان، قد نسبوا بعض الفضل لريجان في تعامله مع جورباتشوف، واستجابته لما جاء به، واستعداده لمقابلته عام ١٩٨٥ وسلوكه الودي تجاهه، مما خفف من المخاوف السوفيتية التي كانت قد تراكمت تجاه ريجان منذ مجيئه إلى الحكم، وبعد قمة جينيف نجح ريجان في استخلاص النتائج التي خالفت قطاعات لا يستهلان بها من المحافظين، وهي النتائج التي ثبت بعد ذلك صحتها، وعند هؤلاء أنه إذا كان ريجان ظل متمسكاً بمعتقداته القديمة حول الاتحاد السوفيتي وحول الشيوعية وقادتها، فربما كانت الحرب الباردة قد استمرت حتى نهاية القرن (١٩) وقد دفعت هذه النظرة بعض مؤرخي ريجان إلى القول بأنه رغم أنه كان أكثر الرؤساء

الأمريكيين أيديولوجية منذ ويدرو ويلسون، إلا أنه كان الرئيس الوحيد الذي نضج في أسلوبه، وهو النضج الذي بدا في هذا التحول السياسي.

أن خبرة سقوط الاتحاد السوفيتي والعوامل التي أدت إليه، وحيث ينتمي كاتب هذه السطور إلى المدرسة الثانية التي تعتبر أن سقوطه كان أساساً نتيجة لتناقضات نظامه السياسية والاقتصادية والأيديولوجية، وهو ما يستدعي الدرس التاريخي الذي تحدث عنه المؤرخ الأمريكي جون كنيدى في عملة الضخم " صعود وسقوط القوى العظم " والذي ركز فيه على اتجاه قوة ما إلى Imperial Oven Strength مما هو أكثر من قدراتها وإمكانياتها الفعلية بما يفرض قيوداً على اقتصادها(١٥) وبهذا المعيار كان الغزو السوفيتي لأفغانستان عام ١٩٧٩ قد فرض عبئاً ثقيلاً على الاقتصاد السوفيتي، وكان مع المقاومة التي أبداها المقاومون الأفغان صدمة لمعنويات الجيش السوفيتي، وكذلك لجماهير الحزب وللأيديولوجية الماركسية اللينينية (١٦) في ضوء هذه التجربة يحق التساؤل عما إذا كان من الممكن أن تطبق على قوة كبرى أخرى، ولاعتبارات كثيرة ، وسوف تُختار الولايات المتحدة الأمريكية لكي نفحص هل من الممكن أن تتعرض لما تعرض له الاتحاد السوفيتي؟ أم أنها تمتلك من المقومات والقدرات التي تعطيها المرونة على التكييف مع أية تطورات سلبية داخلية أم خارجية؟ في هذا السياق نتذكر أنه بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وبروز الولايات المتحدة كقوة عظمى وحيدة، إلا أن هذا لم يمنع المؤرخين من أن يفحصوا قدراتها وقدرات القوى الأخرى التي يمكنها منافستها على هذه المكانة، وانتهي هذا الفحص إلى إنه رغم امتلاك كل قوة من القوى الأخرى لقدرة تنافسية إلا أنهم لا يمتلكون كل القدرات التي تمتلكها الولايات المتحدة كقوة عظمى وحيدة، وأصبح التساؤل هو ماذا ستفعل الولايات المتحدة بهذه القوة ؟ وقد جاءت إدارة بوش الابن مع بداية الألفية الجديدة ومدفوعة بما فرضته

أحداث ١١/٩ والتي صاغت الإستراتيجية الأمريكية ومبادئها، التي قادت إلى انخراط الولايات المتحدة في حربي أفغانستان والعراق، وقد أثبتت هذه الحرب، وخاصة في العراق، فساد الأسس التي استندت إليها، وكان من أبرز آثارها أن تكلفت الولايات المتحدة ٣ تريليون دولار،و ٦٦٨٩ قتيلاً و ٣٢٠٠٠ مصاباً، وقد انتهت إدارة بوش ٢٠٠٨ بالأزمة المالية والاقتصادية التي نزلت بالاقتصاد الأمريكي، وامتدت إلى عواصم العالم الكبرى، غير أن معناها بالنسبة للولايات المتحدة أنها هزت مكانتها كقائد للاقتصاد العالمي .

هذا التطور هو الذي أحيا مدرسة الانحدار school of decline التي تجمعت حول جون كنيدى في نهاية الثمانينات، وقامت على عدة افتراضات :

- فقد رأت أن الولايات المتحدة تتراجع على المستوى الاقتصادي مقارنة بقوى ثلاث هي اليابان، وأوربا الغربية، والدول الصناعية الجديدة، وقد سجلت هذا التراجع في تركيزها على الأداء الاقتصادي، وعلى العناصر العلمية والتكنولوجية والتعليمية المرتبطة بهذا الأداء .
- باعتبارها أن القوة الاقتصادية هي العامل المركزي في قوة أية أمة، فإن هبوطاً في القوة الاقتصادية سوف يؤثر في الأبعاد الأخرى لقوة الأمة.
- أن الانحدار النسبي للقوة الاقتصادية الأمريكية إنما يرجع بالدرجة الأولى إلى إنفاقها الكثير جداً على الأغراض العسكرية نتيجة لاحتفاظها بارتباطات والتزامات خارجية لم تعد تقوى عليها، وقد انتهت هذه المدرسة إلى أن الولايات المتحدة إنما تكرر في هذا وتواجه نفس المشكلات التي واجهتها قوى امبريالية سابقة(١٦) مثل المملكة المتحدة، وفرنسا، وأسبانيا.

وقد كان من الطبيعي أن تثير هذه المدرسة بمثل هذه النبوءة الخطيرة نقاشاً واسعاً داخل الحياة السياسية والفكرية الأمريكية، بل في أوروبا الغربية، كما حركت هذه

المدرسة نقاشاً على المستوى السياسي والإعلامي، فقد خضعت كذلك للتحليل النقدي الأكاديمي والذي حاول تفنيد حجج وافتراضات هذه المدرسة، وتقديم صورة أكثر تفاؤلاً حول المستقبل الأمريكي.

كان أول من تعرض لنقد هذه المدرسة على المستوى الأكاديمي هو الدكتور زيجنيور برجنسكى مستشار الأمن القومي الأمريكي السابق، والأستاذ الحالي بجامعة كولومبيا، والذي بدأ بإقرار أنه سيكون من العمى التاريخي تجاهل علامات التحذير التي تقدمها الخبرة التاريخية، فيما يثير القلق مثلاً أن نتذكر أن الفترة الأولى من اضمحلال الإمبراطوريات الرومانية والفرنسية والعثمانية قد اتسمت بالتضخم الاقتصادي والعجز في الميزانية، والاهتمام بالتوسع الخارجي المكلف، والتفكك الداخلي، ومبدأ القوة وسيادة النزعة المادية، غير أن برجنسكى يرى اختلافات بين هذه الظروف وبين الوضع الأمريكي اليوم، وتبدو هذه الاختلافات في أنه في كل حالات اضمحلال الإمبراطوريات فإن التآكل الاقتصادي والذي حدث في الأغلب من خلال الحروب، قد أدى إلى اضمحلال سكاني بشكل كبير، وتلاه انهيار في النخبة السياسية الحاكمة، الأمر الذي لا يتحقق في التجربة الأمريكية المعاصرة، فحتى في التوسع الضخم في الإنفاق العسكري الأمريكي فإنه لم يرتفع فوق ٧% من مجموع الناتج القومي الكلي، ورغم أن الحرب في فيتنام قد أدت إلى انخفاض في معنويات المجتمع بشكل كبير، أنها لم تسبب خسائر على نطاق واسع، والواقع أن الحقب الماضية قد شهدت صباً لدم جديد وغنى خلاقاً في القيادة الاجتماعية والسياسية بأجيال المهاجرين الجدد من آسيا وأمريكا اللاتينية، بعد أن كانت تسيطر عليها في الماضي الصفوة التقليدية، وخاصة من المجتمع اليهودي، وهذا الدم الجديد هو الذي مكن من استمرار ديناميكية الإحياء والتجديد الاجتماعي، ويضيف برجنسكى إلى ذهاب الاختلاف اختلافين آخرين يراهما أكثر أهمية : فالانحدار النسبي للتفوق الاقتصادي الأمريكي العالمي إنما يحدث لا على الرغم من أمريكا وإنما بسببها،

فقد حدث هذا نتيجة لسياسات معتمدة ومستمرة، الدعم الأمريكي لأوروبا الغربية واليابان عبر عدة حقب منذ نهاية الحرب الثانية، ورغم هذا الاختلاف فإن برجنسكى ينبه إلى إنه لا يغير حقيقة وقوع هذا التراجع النسبي، وإن ما هو مهم ،هو حقيقة هـذا التراجـع لا أسبابه أو دوافعه، ومع هذا فهو يعود إلى التذكير باعتبارات لا يجب تجاهلهـا، فـالتغيير في مركز أمريكا الاقتصادي العالمي ليس نتيجة لسياسة تتبعها قوة منافـسة أو معاديـة، تهدف إلى أن تحل محل الولايات المتحدة في مرتبة التفوق العالمي، ولكنـه نتيجـة مـا يعتبره سياسة تعاونية كانت الولايات المتحدة هي التي بادرت بها، الأمر الـذي يخلـق نسيجاً مختلفاً من العلاقات الدولية، من أهم معالم هذا النسيج أنه في الماضي كان تراجع قوة ما عن مكانة السيطرة يعود إلى بروز قوة جديدة ومؤهلة لأن تحل محلها، أما هـذه المرة فإن الاختلاف الأساسي الذي يراه برجنسكى هو غياب البديل والمنافس الذي يمكن أن يشكل قوة تحل محل الولايات المتحدة في وضعها الدولي(١٧).

وكانت الشخصية الثانية التي تعرضت بالنقد لأفكار بول كنيدى ومدرسته هو البروفسور صامويل هنتيجتون مدير مركز العلاقات الدولية بجامعة هارفارد الذي شرع يناقش حجج هذه المدرسة وخاصة ما تستشهد به من عجـز فـي الميزانيـة الأمريكية وصل في العام المالي ١٩٨٨ ما قيمته ١٥٥ بليون دولار – عن حـق – على أن – التدفق الكبير في الأموال الأجنبية قد ذهـب إلـى الاسـتهلاك لأعلـى الاستثمار وأن الولايات المتحدة تعيش سعيدة في حالة من الرفاهية لا تتفـق مـع إمكانياتها وتسيطر عليها سيكولوجية (كل واشرب وامرح) كل هذا يعيد إلى الأذهان نماذج أسبانيا في نهاية القرن ١٦ وفرنسا ١٧٨٠ وبريطانيا عام ١٩٢٠، ويـصدق هنتيجتون على كل هذه الظواهر ولكنه يختلف في أن العجز الـذي تعـانى منـه الولايات المتحدة ليس نتيجة ضعف الاقتصاد الأمريكي، وإنما نتيجـة الـسياسات الاقتصادية، وكما ظهر هذا العجز بشكل سريع نتيجة مجموعة سياسات فإنه يمكن

عكسه أيضاً وبشكل سريع بسياسات أخرى، ويخلص هنتجتون إلى اعتبار أنه إذا ما تداعت الولايات المتحدة اقتصادياً فلن يكون ذلك بسبب تواجد جنودها في مناطق مختلفة من العالم، وإنما لأن رجالها ونساءها وأطفالها ينغمسون بشكل مبالغ فيه في ملذات الحياة، فالروح الاستهلاكية وليست العسكرية هي التهديد للقوة الأمريكية، وبعد تحليله لحجج أنصار مدرسة الاضمحلال يناقش سؤاله المقابل الذي طرحه عما إذا كانت الولايات المتحدة تمر بمرحلة انحدار أم تجديد؟ ويبدأ بما يقرره أنصار هذه المدرسة من أن التوسع الخارجي وليس الركود الداخلي هو السبب الرئيسي لانحدار الأمم ويعتبر أن هذا المنطلق يناقض تقليداً في الفكر السياسي وجد منذ أيام أفلاطون وأرسطو الذي يركز على القدرة الداخلية لمجتمع ما إذا ما أراد تجديد نفسه ووفقاً للصياغة الجديدة لوجهة النظر هذه فإن المجتمع ينحدر عندما يجعل الركود البيروقراطي والاحتكار والطبقات المغلقة والجهود الاجتماعية والترهل التنظيمي وتصلب شرايين الأمة، حين يجعل من التجديد والتكييف أمراً صعباً أو مستحيلاً، وعلى النقيض من هذا فإن المجتمعات الناجحة هي تلك التي تجد وسائل لدعم ديناميكية شبابها، وتشجع المنافسة والحركة و المرونة والفردية والانفتاح وجميعها صفات تمنع مجتمع ما من أن يقع في شرك شبكة من الصفقات التواطؤية، حيث يستفيد كل فرد على حساب الآخرين، من هذا المنظور يستخلص هنتجتون أن الولايات المتحدة، من بين القوى الكبرى، هي أقل احتمالاً لأن تنحدر، ذلك أنها تتميز بانفتاح اقتصادي وبالحركة وبتدفق الهجرة إليها، ولا يقتصر تحليل هنتيجتون للعناصر التي تضمن تجديد المجتمع الأمريكي على العوامل الداخلية فقط، فثمة عناصر دولية للقوة، فإن كان الاختيار النهائي للقوة العظمى هو قدرتها على تجديد قوتها فإن التعامل الداخلية السابقة، إنما تكتمل بثلاث عناصر أساسية تميز المركز الأمريكي في الشئون الدولية.

أول هذا العناصر الدولية أنه على نفيض القوى العظمى الأخرى أن القوة الأمريكية متعددة الأبعاد multi-Di-mensional فإذا كان مركز الاتحاد السوفيتي الدولي كان ينبع أساساً من قدراته العسكرية، واليابان من أدائها الإنتاجي ومواردها المالية، ودولة مثل السعودية من مواردها البترولية، فإن هذه القوة التي تعتمد على عنصر واحد تصبح معرضة بشكل كبير لهبوط هذا العنصر من القوة التي تخصصت فيه، وعلى نقيض من هذا فإن الولايات المتحدة تقف بشكل غير عادى في وضع مرتفع في جميع المصادر الرئيسية للقوة: حجم السكان وتعليمهم الموارد الطبيعية، النمو الاقتصادي، التماسك الاجتماعي، والاستقرار السياسي،والإنجاز التكنولوجي، القوة العسكرية الجاذبة والأيديولوجية والتحالفات الدبلوماسية .

وهي نتيجة لهذا قادرة على أن تتحمل أي تراجع في أحد هذا العناصر، في الوقت الذي تحتفظ فيه بتفوقها الكلى المستمد من مصادر أخرى، ومن هذا يستخلص هنتيجتون أنه في الوقت الراهن ليس هناك دولة تستطيع أن توجه تحدياً شاملاً متعدد الأبعاد للولايات المتحدة وربما باستثناء واحد.

أما العامل الدولي الثاني في رأي هنتجتون الذي تتميز به الولايات المتحدة فهو ينبع من مركزها الهيكلي في السياسة العالمية والذي يضعها في موضع القيادة المشتركة في المشكلات والمنازعات الدولية وعلى ما قد يبدو، يجعل وجودها مطلوباً في عدد من المناطق .

ويناقش هنتجتون الاحتمال الأكثر شيوعاً وهو أن تحل اليابان محل الولايات المتحدة في المكانة العالمية في القرن المقبل، فيستبعد هذا الاحتمال، فعنده أن اليابان لا تمتلك الحجم أو المصادر الطبيعية أو القوة العسكرية أو الانتماءات الدبلوماسية، أو ما هو أكثر أهمية الجاذبية الأيديولوجية لكي تصبح قوة عظمى.

كذلك ليس غريباً أن يتجدد الجدل اليوم بين الباحثين والمحللين الأمريكيين حول مستقبل القوة الأمريكية، وحول ما يتهدد عناصر ومقومات قوتها وتفوقها، في هذا كتب فريد زكريا نقداً ناقش سؤالاً محورياً وعنصراً يمثل أهم مقومات السوق الأمريكية، وهو عنصر الابتكار والتقدم التكنولوجي، وكان هذا السؤال هو " هل بدأت أمريكا تفقد سحرها؟!" وللإجابة عن هذا السؤال العريض قال إنه حسب معظم المقاييس لا تزال أمريكا هي رائدة الإنجاز التكنولوجي، بدليل أن من بين ١٣ شخصية نالت جائزة نوبل لعام ٢٠٠٩ كان تسعة منم من الأمريكيين، وحتى في خضم الركود الاقتصادي الفظيع الذي تمر به أمريكا الآن، فإنها لا تزال تسيطر على ميادين تقنية المعلومات والعلوم الحياتية والنانوتكنولوجى، وهي جميعها صناعات رئيسية بالنسبة للمستقبل.

وهكذا في تصورنا أن توقع انطباق التجربة السوفيتية على الولايات المتحدة ليس دقيقاً، ويعود ذلك إلى الفوارق بين العوامل والتناقضات التي أدت إلى الانهيار السوفيتي، وبين الوضع والإمكانيات والقدرات الأمريكية، فالانهيار السوفيتي ومقدماته قد تميز، خاصة في حقبة بريجنيف والزعماء الثلاثة الذين خلفوه بالركود stagnation وغياب الابتكار والتجديد والجمود الأيديولوجي، على عكس ما تتميز به الولايات المتحدة فرغم التراجع النسبي لاقتصادها، وضغوط التداخلات العسكرية، إلا أن المجتمع الأمريكي ومؤسساته تتميز بديناميكية سياساتها وتشجيع المنافسة والحركة والمرونة الفردية والانفتاح، وجميعها صفات تمنع مجتمعاً ما من الانهيار، ومثلما يستخلص صامويل هانتجتون فإن الولايات المتحدة من بين القوى الكبرى هي أقل احتمالاً لأن تنحدر، ذلك أنها تتميز بانفتاح اقتصادها وبالحركة وبالحيوية والتدفق الديموجرافي.

بين "القوة الناعمة" و "القوة الذكية"

جوزيف نأي Joseph Nye هو أستاذ العلاقات الدولية بجامعة هارفارد ومن المفكرين الاستراتيجيين الذين يجمعون بين الأساس الأكاديمي وبين الخبرة والعمل الدبلوماسي، وهو منذ بداية الألفية الثانية مشغول بقضية القوة وتاريخها وأبعادها ومكوناتها، وهو ما قاده لأن يصنع مفهوم" القوة الناعمة" soft power حيث أصدر عام ٢٠٠٤ كتابه: soft power the means ti success world politics غير أن تركيز جوزيف نأي على مفهوم " القوة الناعمة"، ودعوته لها كأحد المكونات الرئيسة للقوة الأمريكية، قد جاء بعد تركيز إدارة بوش الابن على القوة العسكرية، وهو ما قادها إلى الانخراط في حرب أفغانستان والعراق، وفي كتابه الجديد The future of power ينبه إلى التحولات والابتكارات والتكنولوجيا الجزئية، والعلاقات الجديدة التي سوف تحدد القرن الواحد والعشرين، وهو يظهر كيف أن مصادر القوة يجب أن تتضمن أكثر من قوة البلد العسكرية، فالمعلومات

التي كانت الحكومات تحتكرها متاحة الآن للاستهلاك الجماهيري، وحيث وضع الانترنت القوة بين أصابع الوكلاء غير الحكوميين بشكل يسمح لهم أن يشنوا هجمات الكترونية من داخل منازلهم، ويخلقوا تهديداً أمنياً يشعر به العالم، ويمثل الإقناع persuasion وليس القهر coercion، بين أدوات أخرى، أحد أدوات القوة الناعمة، ويضرب مثلاً على ذلك بتجربة شخصية حيث استطاع عام ١٩٧٧ أن يجعل فرنسا تتخلى عن موقفها من تزويد باكستان بمفاعل نووي تستطيع خلاله إنتاج أسلحة نووية، ويحقق ذلك من خلال الدبلوماسية والإقناع وتقديم الأدلة والحقائق، كما يقدم النماذج المتناقضة التي قدمتها كلا من روسيا والصين، فبينما استخدمت الصين القوة الناعمة من خلال دورة الألعاب الأولمبية التي أثرت بها على العالم، فعملت روسيا العكس باستخدامها القوة العسكرية بغزوها لجورجيا حيث أضرت بصورتها العالمية.

ويستخدم نأي هذه الأمثلة لكي يؤكد الحاجة لفهم أفضل عن ماذا نعنى حين نتحدث عن القوة؟ وكيف تتغير في ظروف ثورة المعلومات والعولمة في القرن الواحد والعشرين؟ ويطور نأي مفهومه للقوة الناعمة إلى مفهوم "القوة الذكية " smart power والذي يعتبرها مزيجاً من القوة الصلدة Hard power وبين القوة الناعمة من الإقناع persuasion والجاذبية، فالقوة الناعمة ليست حلاً لكل المشكلات، فرغم أن زعيم كوريا الشمالية يشاهد أفلام هوليود، إلا أن هذا لم يقنعه بتخليه عن برنامجه النووي، كما أن القوة الناعمة لم تفلح في إقناع حكومة طالبان بعدم تأييد القاعدة، ويشير نأي إلى دراسة أصدرها مع ريتشارد ارميتاج ،بتكليف من مجلس العلاقات الخارجية الأمريكية، عن" القوة الذكية"، حيث استخلصا أن صورة أمريكا قد تدهورت في العالم في السنوات الأخيرة، وأن على الولايات المتحدة أن تتحرك من تصدير الخوف إلى الإلهام، ومن ناحية أخرى فإنه رغم أن

البنتاجون هو الذراع الأكثر تدريباً وتسليحاً للحكومة الأمريكية، ولكن هناك حدوداً لما يمكن أن تحققه القوة العسكرية وحدها، فالترويج للديمقراطية، وحقوق الإنسان، والمجتمع المدني، لا يمكن تناولها على أحسن وجه ببرميل البـــارود، وحقيقـــة أن العسكرية الأمريكية لديها قوة عمليات مؤثرة ــ ولكن سياسة اللجوء للبنتاجون لأنه يستطيع تحقيق نتائج، إنما يؤدى إلى زيادة عسكرة السياسة الخارجية، ويدلل نـــأي على هذا بتصريحات للجنرال مولت " رئيس الأركان" أن كلا من وزيرة الخارجية هيلاري كلينتون ووزير الدفاع روبرت جيتس قد مـــالا لا إلـــى زيـــادة الإنفـــاق العسكري، وإنما المزيد من التركيز على القوة الناعمة، وأنه يتفق معهما تماماً، فإذا . اخترنا أن نمارس النفوذ الأمريكي فقط من خلال قواتنا فسوف نرى نفوذنا يتناقص عبر الزمن.

ويعود نأي إلى شرح ما دفعه عام ٢٠٠٤ إلى أن تطوير القـــوة الناعمـــة يمكن أن ينتج عنه سياسة خارجية فعالة، فقد حدد" القوة الذكية" باعتبارها القـــدرة على مزج مصادر القوة الصلدة والناعمة، لكي تنتج اســـتراتيجيات فعالـــة، فعلـــى عكس القوة الناعمة فإن القوة الذكية مفهوم تقييمي، وكذلك مفهوم وصفي، يعتمـــد على كيفية استخدامها، وينبه نأي إلى أن القوة الذكية متاحة لكل الدول، وليس فقط للولايات المتحدة، ويضرب عدداً من الأمثلة على ذلك كما هو الحال مع النـــرويج والصين.

ويركز جوزيف نأي على الصين وكيفية استخدامها واستفادتها من القـــوة الناعمة، فيذكر أنه في أكتوبر ٢٠٠٧ ذكر الرئيس الصيني هيوجينتاو أن الـــصين يجب أن" تدعم الثقافة كجزء من القوة الناعمة لبلدنا، وكعامل ذي أهمية متزايدة في التنافس حول القوة القومية الشاملة " وإذا كانت الصين كان لديها جاذبيـــة ثقافيـــة تقليدية، إلا أنها الآن تدخل في نطاق الثقافة الشعبية العالمية، كذلك فمجمـــوع ١,٤

مليون طالب صيني يدرسون في الخارج بين ١٩٧٨-٢٠٠٨، وفي عام ٢٠٠٩ سجل ٢٢,٠٠٠ طالب أجنبي أنفسهم في الجامعات الصينية، ويتوقع الرسميون الصينيون أن يرتفع العدد إلى ٥٠,٠٠٠ في عام ٢٠٢٠، كما أنشأت الصين عدة مئات من معاهد كونفوشيوس حول العالم لتعليم لغتها وثقافتها، وفي الوقت الذي يخفض فيه "صوت أمريكا" إذاعاته الصينية من ٢٤ إلى ١٩ ساعة يومياً، فإن راديو الصين الدولي يزيد إذاعته بالإنجليزية إلى ٢٤ ساعة يومياً، وفي عام ٢٠٠٩- ٢٠١٠ استثمرت الصين٨,٩ بليون دولار في العمل الإعلامي في الخارج، بما في ذلك قناة شينخوا للأخبار التي تذيع لمدة ٢٤ساعة مقلدة بذلك قناة " الجزيرة"، كذلك كيفت الصين دبلوماسيتها، ففي بداية التسعينات كانت قلقة من الترتيبات المتعددة الأقطاب، وكانت في تقاطع في الأهداف مع العديد من جيرانها، الآن وبعد ذلك انضمت إلى منظمة التجارة العالمية، وساهمت في منع الانتشار، بما في ذلك المحادثات السداسية حول كوريا الشمالية، وتسوية المنازعات الإقليمية مع جيرانها، وانضمت إلى عدد من المنظمات الإقليمية والتي كانت قمة شرق آسيا مثلها الأخير.

وقد ساعدت هذه الدبلوماسية الجديدة على تخفيف المخاوف، وحقق احتمال تحالف بلدان أخرى لكي يوازنوا القوة الصينية الصاعدة، ورغم أن الصين هي أقل من أمريكا وأوربا في القوة الناعمة، إلا أنه سيكون من الخطأ تجاهل مكاسبها، ولحسن الحظ فإن هذه المكاسب يمكن أن تكون مفيدة للصين، ومفيدة كذلك لبقية العالم، فالقوة الناعمة لا تحتاج لأن تكون لعبة صفرية Zero sum game حيث يكون مكسب بلد ما هو بالضرورة خسارة لبلد آخر، فمثلاً إذا ما أصبحت الصين والولايات المتحدة جذابة في عيون الآخرين، فإن احتمالات الصراعات الضارة

سوف تنخفض، فإذا خفضت صعود قوة الصين الناعمة احتمالات الصراع فإن ذلك يمكن أن يكون جزءاً من علاقة إيجابية.

من أكثر ما يرضى المفكر، أو الخبير أو الباحث ،أن يرى ما فكـر فيـه، وتأمله، وتبلور في مفهوم eoncept أو نظرية Doectrine قد تحول إلى سياسات تتبناها بلاده وتعترف بها، فإذا طبقنا هذا على الخبـراء الاسـتراتيجيين وعلـوم السياسة فسوف نجدها على ثلاثة نماذج : النموذج الأول هو الدبلوماسي المـؤرخ الأمريكي جوج كينان والذي نشر عام ١٩٤٧ دراسته عنـد " مـصادر الـسلوك السوفيتي " "The soureces of soviet conduct وفيما حاول من خلال خبرته في الشئون الروسية والسوفيتيين أن يحلل دوافع النظام السوفيتي وقادته في سياستهم الداخلية والخارجية، ومن خلال هذه الدراسة بلـور نظريتـه " فـي الاحتـواء " Contanment وهي النظرية التي أصبحت أداة الـسياسة الخارجيـة الأمريكيـة السوفيتية على مدى سنوات الحرب الباردة، وإن كان هذا لم يمنع كينـان مـن أن ينتقد الإدارات الأمريكية وتطبيقها لهذه النظرية بـالتركيز أكثـر علـى الأدوات العسكرية وسباق التسلح، أما النموذج الثاني فهو هنري كيسنجر الذي انشغل فـي سنواته الأكاديمية بنظرية توازن القوى The balance of power والتي بلورها في إعدادٍ رسالته للدكتوراه عن " عالم مستعاد Restored world" مستعيداً بهـا الخبرة الأوربية في التعامل مع نهاية الحروب النابوليونيـه وخلقهـم لنظـام the balance of power وهو النظام الذي أتاح لأوربا سلاماً دام قرابة قرن، وقـد أراد كيسنجر، عندما أصبح مُنظِّراً ومُنفِّذاً لسياسة الخارجية الأمريكية، أن يطبـق نظرية توازن القوى، وأن تكون مرشدته في إدارة العلاقات الدولية وعلاقات أمريكا خاصة مع الاتحاد السوفيتي والصين، أما النموذج الثالث فهو : جوزيف نأي، مثلما ذكرنا نتيجة انشغاله بقضية القوة ، بلور نظريته أو مفهومه عن" القـوة الناعمـة".

والتي طورها إلى مفهوم " القوة الذكية"، ورغم أن مفهوم نأي يعود إلى عام ٢٠٠٤، إلا أن الاعتراف به وتبنيه من قِبل الإدارة الأمريكية لم يجيء إلا مع وصول إدارة بارك أوباما، سوف نجد الرئيس الأمريكي الجديد في خطابة الافتتاحي في عام ٢٠٠٩ يقرر" أن قوتنا تنمو من خلال استخدامها الحكيم، وأن أمننا ينبع من عدالة قضيتنا، وقوة نموذجنا وخصالنا المعتدلة في التواضع وضبط النفس " كذلك قالت وزيرة الخارجية الأمريكية هيلارى كلينتون" إن أمريكا لا تستطيع أن تحل أكثر المشاكل الضاغطة بمفردها، والعالم لا يستطيع أن يحلها بدون أمريكا، إننا يجب أن نستخدم ما نسميه "القوة الذكية" والنطاق الكامل من الأدوات التي تحت أيدينا "وقبل ذلك دعا وزير الدفاع روبرت جيتس الإدارة الأمريكية أن تخصص أموالاً وجهداً أكثر للقوة الناعمة وأدواتها بها فيها الدبلوماسية والمساعدة الاقتصادية، والاتصالات، لأن القوة العسكرية وحدها لا تستطيع الدفاع عن مصالح أمريكا حول العالم وأضاف: " أنني هنا لكي أدافع عن قضية دعم قدرتنا على استخدام القوة الناعمة وتكاملها الأفضل مع قوتنا الصلدة".

والآن نحن نتحدث عن مفهوم"القوة الناعمة" أو"القوة الذكية" فلابد أن نتذكر أنه لعهود طويلة كانت مصر تستمد مكانتها ودورها في منطقتها من قوتها الناعمة التي كانت تتمثل في مفكريها وأساتذتها وثقافتها وفنونها من مسرح وسينما وغناء، وإذا كنا نتحدث اليوم عن استعادة مكانة ودور مصر في المنطقة، فلابد أن يكون من مقوماتها إحياء القوة الناعمة لمصر، وهي مسئولية المفكرين والمثقفين، والفنانين بالارتقاء بإنتاجهم ومستواهم الفني، وهي مسئولية الجامعات المصرية لكي تخرج أجيالاً قادرة على استعادة الثقة في القدرات العلمية المصرية، التي بنت في يوم ما الجامعات العربية، ووضعت دساتيرها، وخرجت أجيالاً تحتل اليوم مناصب قيادية في مجتمعاتها.

"في ملاحظات على قرن"

برنارد لويس يتساءل: لماذا ندرس تاريخ؟

برنارد لويس Bernard Lewis (١٩١٦) هو المؤرخ اليهودي الديانة البريطاني الأصل، الذي بدأ حياته الأكاديمية في مدرسة لندن للدراسات الشرقية في جامعة لندن، وحصل منها على شهادة الدكتوراه عام ١٩٣٦، وأوفدته الجامعة في مهام علمية لزيارة الشرق الأوسط، حيث زار مصر وفلسطين وسوريا وتركيا، كما عمل في المخابرات البريطانية في الحرب الثانية، عاد بعدها ليعمل أستاذاً مساعداً في التاريخ الإسلامي، وليبدأ بغزارة كتاباته عن الشرق الأوسط وعالم الإسلام والمسلمين، ولكي يصبح خاصة بعد هجرته إلى الولايات المتحدة وجامعة برنستون هو الخبير بعالم الإسلام والشرق الأوسط، ولكي تستشيره وتسمع إليه الدوائر السياسية في الولايات المتحدة، بل أصبح يطلق عليه "عميد المستشرقين العرب"، وكان لذلك من أوائل الخبراء الذين استشارهم البيت الأبيض بعد أحداث ١١

سبتمبر، وكان من أبرز من نصحوا بالحرب على العراق وبوجه عام، وكما عبر المؤرخ الراحل رءوف عباس سجل المتابعين لبرنارد لويس وكتاباته عن الشرق الأوسط والإسلام أنها محملة بأجندة أيديولوجية تجمع بين المركزية الأوربية والصهيونية مما جعلها وصاحبها مثاراً للجدل على مدى ما يزيد على ثلاثين عاماً". ومؤخرا، وهو على أعتاب عامة المائة، عكف لويس على كتابة مذكراته التي أرخ فيها مراحل عمره " كمؤرخ الشرق الأوسط" وأصدرها تحت عنوان notes on a century لذلك كان من الطبيعي كمؤرخ، أن يتساءل : لماذا ندرس التاريخ؟ ويتذكر أنه عندما كان ما يزال نشطاً في التدريس، كان يجمع كل دفعة جديدة من الطلاب المتخرجين حول مائدة سيمنار ويدعوهم، كل على حدة، أن يقدموا أنفسهم لكي يتحدثوا عن الموضوع الذي يقترحونه لبحثهم ، وعندئذ يثور : لماذا يريدون دراسة التاريخ؟ ولماذا اختاروا هذا الموضوع بالذات لبحثهم؟ وكانت إجاباتهم المشتركة، وخاصة من الطلاب القادمين من العالم الثالث، أنهم يريدون خدمة بلدهم.

وكانت هذه إجابة مشروعة تماما بشرط أنها لا تقوم على افتراض أن الشخص يخدم بلده بشكل أفضل بتقديم صورة للتاريخ ملائمة لما حدث، وأن تكون الأيديولوجية السائدة هي تأييد قيادة هذا البلد، وكان هذا فيما رأي برنارد لويس ليس خدمة لهذا البلد، وقد أدى النقاش لسؤال مثير للاهتمام حول الحقيقة، التكامل والموضوعية، والتي هي بالطبع ليست نفس الشيء كالانفصال أو الحياد، ويقول لويس إنه لم يطلب أبداً من طلابه أن يكونوا منعزلين أو محايدين حول أمور ذات اهتمام عميق بالنسبة لهم، ولكنه كان يطلب منهم أن يكونوا أمناء، وكانت النقطة التي يركز عليها دائما أنهم إذا نظروا إلى الخلف في تاريخ بلادهم، أو الحزب الذي ينتمون إليه، أو طبقتهم أو كياناتهم ، أو أي مجموعة التي سيوحدون معهم في

قراءتهم للتاريخ أو كتابتهم عنه، إذا ما نظروا إلى الخلف ووجدوا أنه في كل نزاع بين مجموعة والمجموعات الأخرى أن مجموعتك كانت دائماً على حق والآخرين على خطأ عندئذ فعليكم أن تعيدوا فحص الافتراضات حول الأسس التي تجرى على أساسها أبحاثكم ، لأنه ليس من طبيعة الكيانات البشرية أن تكون دائماً على حق، ويتذكر لويس طالباً، جاء إليه من بلد ما كان لها نزاع إقليمي مع بلد مجاور، وكانت حول قطعة أرض صغيرة تماماً، وهو النزاع الذي دام لفترة طويلة من الزمن، وكان يريد أن يكتب رسالة للدكتوراه حول هذا المنطقة الصغيرة، وأن يظهر أنه لآلاف السنين أن هذه المنطقة الصغيرة كانت جزءاً من بلده وليس للبلد الآخر، وسأله لويس: كيف علم هذا؟ وأجاب الطالب" إنها معروفة جيداً " وإجابة لويس أنه لا يحصل على درجة الدكتوراه من أجل أن يقرر ما هو معروف جيداً، فلكي تحصل على درجة الدكتوراه عليك أن تقدم شيئاً ليس معروفاً، وهو ما أجاب عليه الطالب، ولكنه لم يبرهن عليه أبداً علمياً، وأريد أن أبرهن على ذلك علمياً، وأجابه لويس: ولكن ماذا يحدث لو اكتشفت أنها تتبع البلد الآخر وليس بلدك؟ وكان هذا احتمالاً رفض ببساطة أن يفكر فيه.

ويناقش لويس علاقة التاريخ بالدعاية Propaganda ويعتبر أن مسئولية، بل التزام المؤرخ، هو أن يقول الحقيقة كما يراها، كل الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة، وأن لا يسمح لنفسه أن يكون رجل دعاية Propagandist.

لكي يستخدم رجال الدعاية، وهذا يتضمن إغراءً عظيماً وخطرًا عظيماً بالنسبة للتاريخ، كمهنة، لأن التاريخ بعد كل شيء هو الحالة التي يصنعها المؤرخ لأي قضية سياسية، إن نفس توالى الأحداث يمكن أن تفسر، وتقدم بطرق مختلفة جداً، ومن الخطأ العظيم أن نفترض أن الحقائق التاريخية هي مثل الحقائق الرياضية، حيث هناك إجابة صحيحة واحدة وجميع الآخرين على خطأ، فإذا كان

تاريخك هو رواية بسيطة للإحداث ، فهناك إجابات صحيحة وخاطئة، ولكنها ليست ذات قيمة عظيمة أو مصلحة لأي أحد، فالتاريخ مفتوح للتغيرات، ولكن حتى مع التغيير هناك حاجة للدقة، فالتاريخ غير الدقيق أسوأ من لا تاريخ على الإطلاق ، فالناس ممكن أن ينشأوا على أوهام وخرافات، ويعتبر ليوس أن المؤرخ يحتاج إلى الوصول إلى الأرشيف، وإلى الجمهور، وإن أمكن إلى الأوراق الخاصة، وثمة حجة أخرى، تفقد في بعض الأوقات، وهي القدرة على التعبير عن أي رأي، وأن تقدم أي حجة ويفند أي وجهة نظر، وفي مجتمع حر فإن الباحثين يستطيعون أن يقلبوا الأفكار على كل وجوهها حول مائدة سيمينار، ومثل هذا التبادل الدائم للأفكار هو جزء من أثار التعليم والدراسة، فقد تجتمع مجموعة من الناس حول مائدة، وغالباً، ما يكونون مجموعة مختلطة من طلاب الكليات، ويثير أحدهم فكرة لكي يرى كيف يستجيب الآخرين لها، كما أن الطلاب الذين يعملون على رسالتهم، سوف يعملون على أحد الفصول، ويقرأونه أمام السمينار، سوف يقوم زملاؤهم وهم يعلمون طبعاً أن نفس الشيء سوف يحدث لهم في الأسابيع القادمة، مثل حرية البحث والنقاش هذه هي سبب آخر، لماذا يمكن أو يجب دراسة تاريخ الشعوب الأخرى؟ والبعض قد لا يستطيع دراسة تاريخ بلدهم بشكل فعال بسبب القيود العلمية، والسياسية والأيديولوجية أو الدينية أو ضغوط أخرى، وهنا، وربما علينا الواجب الأخلاقي في أن نقدم المساعدة.

ويعبر لويس عن اعتقاده العميق في قيمة التاريخ، وعلى وعيه الكامل بأوجها لنقص في المعرفة التاريخية، ومثل أوجه النقص هذه بالتحديد هي ما تعطيها قيمة، فالتاريخ ليس علماً، على وجه الدقة، فهو يقوم على الشهادة، والتي هي غير كاملة، ومجازاة وغير متكاملة ودائما متناقضة ومليئة بالثغرات، وبهذه الطريقة تعكس المأزق البشرى، وهي تقدم بعض البصيرة في جانب الحياة

والمعرفة غير الدقيق، بل ودائماً غير واضح، فالعديد من المتاعب في العالم الحديث ثارت من حقيقة أن بعض الناس يعتقدون أن الشئون البشرية يمكن أن تشرح، وتوجه بنوع من التخطيط الذي يستخدمه المهندسون، ولكن البشرية ليست قادرة على مثل هذه الدقة، والمجتمعات البشرية ليست مهيأة لمثل هذا الاتجاه، وفي القرن العشرين جرت معاناة ضخمة لملايين من الناس بسبب محاولات خاطئة التوجه لتنفيذ مثل هذا النوع من الاتجاه على المجتمع البشرى، مما سمى أحياناً بالهندسة الاجتماعية، بما يعنى الاتجاه المخطط ذا الهدف لمجرى الأحداث البشرية، ومن الواضح فإن نوعاً من التوجيه ممكن بل قد يكون مفيداً، ولكن فكرة أن أحداً يستطيع أن يوجه مجرى التاريخ، تبدو أمراً مخزياً ووهماً مدمراً ، فبدراسة التاريخ تستطيع أن تصل إلى فهم أفضل لطبيعة المأزق البشرى في هذا العالم، ولما تستطيع أن تفعله، ومتى تستطيع، وأين نحن، وبحسن الحظ إلى أين نحن نتجه، ويستطيع التاريخ أن يوجهنا ويعلمنا، ولكننا لا نستطيع أن نستخدمه كأداة، وهؤلاء الذين يدينون التاريخ باعتباره شيئاً لا صلة له بالموضوع ، ويريدون أن يجعلوه ذا صلة بالموضوع، يمكن أن يكونوا أكثر خطراً من هؤلاء الذين يرفضونه كشيء لا فائدة منه، ويعتبر لويس أنه وفقاً لوجهة نظر شائعة، والتي تطورت في العالم الغربي، فإن الهدف الأول لكل الدراسة وكل البحث هو أن نعرف وأن نفهم، والرغبة في معرفة الماضي هي غالباً عالمية وبين كل البشر، هي غالباً، ولكن ليست تماماً، فثمة مجتمعات لم تعلق أهمية كبيرة للتاريخ، ولكن معظم المجتمعات علقت مثل هذه الأهمية، فالمجتمعات الإسلامية بوجه خاص قد علقت أهمية عظيمة للتاريخ، وهو ذو قيمة طالما كشف عن تفسير أهداف الله البشرية، أما المجتمعات غير الإسلامية، بما فيها تاريخ ما قبل الإسلام، كان في تصورهم لا قيمة له، ولذلك لم يلقَ أي اهتمام حتى بداية الأزمنة الحديثة، وعند لويس فإن الهدف من تعليم

التاريخ هو جعل الناس يسألون أسئلة، وأن يدخلوا في عملية مستمرة لفحص الذات، والمدرس الجيد يجب أن يحاول أن يبث في المؤرخ الناشئ بعض الفكرة عن التعقيدات اللانهائية للعملية التاريخية، وعدم اليقين الذي لا نهاية له، وثمة ملاحظة رائعة أبداها أناتول فرانس في أحد كتبه عندما قال عن أحد الباحثين: " إنه حقا مؤرخ عظيم" فقد أثر على موضوعه تقديم يقين جديد" والنقطة التي حاولت أن أضغط بها على المؤرخين الشبان هي النزاهة fairness فمن المشروع تماماً أن ترفض جدل شخص آخر، ولكن يجب أن لا تشوه حججه لكي تجعل مهمتك أسهل.

وينبه لويس إلى أن أحد الأهداف الرئيسية واستخدام التاريخ هو إضفاء الشرعية Legitimization بما يعنى استخدام الماضي لإضفاء الشرعية على الحاضر، فتاريخ الملكيات يضفي الشرعية على الملكية، والتاريخ الجمهوري يضفي الشرعية على الملكية والجمهورية، والتاريخ الاستعماري يضفي الشرعية على النظام الاستعماري، والتاريخ المعادى للاستعمار يفعل العكس تماماً فقد كسبنا الحرية بإطاحتها بالقهر الأجنبي، وبالطبع مع تغيير الحاضر يتغير معه الماضي، وإذا كان التاريخ هو ما حدث، فإن توثيق ودراسة وتفسير وتقديم ما حدث يتغير دائما، وطالما أن هدف التاريخ، أو بالأحرى المؤرخ، هو إضفاء الشرعية، على الحاضر إذن، وكما يتغير الحاضر فإن الماضي يجب أن يتغير معه، وباستمرار فإن المؤرخين الرسميين يعيدون كتابة الماضي لكي يواجهوا المتطلبات الجديدة، ويستخلص برنارد لويس أن إعادة الكتابة الرسمية تؤثر في التاريخ الدولي مثل التاريخ الداخلي، خذ حالة الحرب بين بلدين، فمن الواضح أن التاريخ الذي كتب في بلد ما سوف يختلف عن التاريخ الذي كتب في البلد الآخر، حتى لو استخدموا الشهادة الواحدة ونفس المناهج، وهذا نوع من التاريخ البدائي، ولكن بالنسبة لمعظم تاريخ البشرية كان هو النوع الوحيد الذي عاش، وفي بعض هذه التواريخ، ومثلاً

الحربين الأولى والثانية في القرن العشرين، فربما كان هناك حقيقة جوهرية متفق عليها، وفي التاريخ لبعض الحروب الحديثة مثل هذا الاتفاق المجدود ينتقد، غمـــر التاريخ بالأسطورة والأيديولوجية، ويعتبر لويس أنه في رواية التاريخ فإن السياق Contest أمر حاسم، فغاندي الذي نحترمه جميعاً لنضاله الطويل ضد الإمبرياليـــة ونجاحه النهائى، ولكنه نجح لأنه كان يناضل ضد عدو متحضر وديمقراطي، وهو لم يكن يدوم أسبوعاً ضد هتلر أو ستالين أو حتى صدام حسين، ويـــذكر بنـــصيحة غاندي لليهود في أوربا التي كانت تسيطر عليها ألمانيا خلال الحرب لكي يتعاملوا مع هتلر " بالمقاومة السلبية " ولكن غاندي نسى حقيقة أن هتلر لم يكن بريطانياً.

مع ألبرتو ما نجويل في مكتبه

البرتو مانجويل Alberto Manguel كاتب أرجنتينى ولد في بيونس أيرس عام ١٩٤٨، وتبدأ قصته مع الكتب عندما كان في السادسة عشرة، ودعاه الكاتب الأرجنتيني الأعمى Jorge Luis Borges أن يقرأ له بصوت عالٍ في منزله.

وفي السبعينيات عاش من تحويل حياة مسجلة في فرنسا وانجلترا، وإيطاليا وتاهيتى، يقدم عروضاً للكتب، وتحريرها، وترجمتها ودائماً يقرأ، فضلاً عما أنتجه من كتب وقواميس وروايات.

هذه الخبرة هي التي جعلته يخصص عمله المكتبة في الليل ، وأن يجمع فيه خبرته في صحبة الكتب، وهو يقول:" قضيت نصف قرن بجمع الكتب، وقدمت لي كتبي كل أنواع الإشرافات، دون أن تسأل شيئاً بالمقابل ، حسب المكتبات، مثل أكثر المحبات، ينبغي أن يكتسب بالتعلم، ما من أحد يخطو أول مرة داخل غرفة مليئة بالكتب وبإمكانه أن يعرف بالغريزة كيف يتصرف، ماذا يتوقع، ما الذي سيناله، وما هو المتاح؟ قد يمتلك المرء الرعب بسبب الفوضى والاتساع والصمت

والمراقب، والتذكير الساخر بأن الإنسان لا يعرف كل شيء، في طيش فتوتى، حين كان أصدقائي يحلمون بمآثر بطولية في حقول الهندسة والقانون، والمال والسياسة، كان حلمي أن أصبح أمين مكتبة، ولكن الكسل، والولع الذي لا يكبح بالسفر، قررا شيئاً آخر" ويواصل أمانويل خبرته، وأوقاته مع الكتب:" أثناء الليل أجلس لأقرأ وأراقب صفوف الكتب وهي تغويني ثانية، لإقامة اتصال بين جيرانها، لأكتشف تواريخ مشتركة لها ، لأضم قصاصة متذكرة مع أخرى أثناء النهار، والتركيز والنظام يغرياني في الليل، فيمكنني أن اقرأ بفكر خالٍ من الهموم يكاد يكون لا مبالياً.

نهار أو ليل بأي حال " مكتبتي هي عالم خاص، بخلاف المكتبات العامة، كبيرة كانت أم صغيرة ، وكذلك بخلاف المكتبة الالكترونية الكونية، جالس في مكتبتي في الليل، أرقب هالات الضوء، العوالق المتصلبة تتناثر على الصفحات وعلى جلدي، تتهاوى باستمرار طبقة أثر طبقة ميتة في محاولة عقيمة وبإصرار، يطيب لي أن أتخيل في اليوم الأخير من حياتي كيف نهلك أنا ومكتبتي معاً، حتى إذا لم يعد لي وجود فإني سأبقى مع مكتبتي".

وهو لا يتذكر وقتاً لم يكن محاطاً فيه بمكتبته وهو يقول: "في عمر السابعة أو الثامنة جمعت في غرفتي الصغيرة بالإسكندرية، نحو مائة كتاب من مختلف الأحجام عن مواضيع شتى، ومن أجل التنوع غالباً ما كنت أغير من تجمعاتها، فأقرر، على سبيل المثال، أن أضعها معاً حسب الحجم، حيث يتضمن كل رف الكتب التي لها نفس الارتفاع فقط، واكتشفت بعد زمن طويل بأنه كان لي سلفاً شهيراً اسمه صامويل بيبيس وفي القرن السابع عشر، والذي صمم رفوفاً مائلة بارتفاعات قليلة تتناسب وكتبه الأصغر حجماً، إذ تطابق قمة الكتاب بخط أفقي دقيق بدأت مع الكتب الكبيرة الحجم، والكتب المصورة بوضعها في الرفوف السفلى "

وفي محاولات تنظيم مكتبته، في أقسام مختلفة وفقاً لمؤلفيها وموضوعاتها، اكتشف أنه كانت بينها بشكل رئيسي اللغات التي كتبت بها الكتب، شكلت في ذهني مجموعات كبيرة من الأعمال المكتوبة بالانجليزية أو الأسبانية ،أو الألمانية أو الفرنسية سواء كانت شعرا أم نثرا ، من هذه المناطق اللغوية استبعدت عناوين معينة تنتمي إلى موضوعات محط اهتمامي، مثل الميثولوجيا الإغريقية، والديانات التوحيدية، وأساطير القرون الوسطى، وثقافات عصر النهضة، والحربين العالميتين الأولى والثانية، وتاريخ الكتاب .. قد يبدو اختياري لما يندرج تحت هذه الفئات لكثير من القراء غريبا ، لماذا تدرج أعمال سانت أوغستين في قسم الديانة المسيحية بدلاً من أدب الحضارات والقرون الوسطى المبكرة ؟ لماذا يوضع كتاب كارلايل " الثورة الفرنسية " في الأدب الإنجليزي بدلا من التاريخ الأوروبي، ولا يوضع كتاب سيمون سكاما "مواطنون" ؟ لماذا تحفظ مجلدات لويس غنزبرغ السبعة " أساطير اليهود" في قسم الديانة اليهودية ، بينما دراسة جوزيف غير عن" اليهودي التائه" في الأساطير اليهودية؟ لماذا توضع ترجمات آن كارسون لصافو تحت اسم كارسون بينما ترحمة آرثر غولدنغ لـ "مسخ الكائنات" تحت اسم أوفيد؟ لماذا احتفظ بكتابي ذي الجزئين من كتب الجيب لشابمان " هومر" تحت اسم كيس؟ أذكر في مراهقتي أنني كنت أراقب بمزيج من الهلع والافتتان، كيف كانت رفوف الكتب التي على جدار غرفتي تمتلئ تلقائياً وبسهولة، ليلة بعد أخرى، حتى لا يعود هناك مجال فارغ، كتب جديدة ممدة على الأرض مثل مخطوطات المكتبات القديمة، وقد أخذت تتراكم واحداً فوق الآخر، كتب قديمة، احتلت مكانها الدروس خلال النهار، تضاعفت مرتين وربع في المقدار، وتركت كل القادمين الجدد في وضع حرج ، كلها تحيط بي، على الأرض.. في الزوايا.. تحت السرير.. على مكتبي.. أعمدة

من كتب تتصاعد ببطء محولة المكان إلى غابة من الفطريات سيقانها النامية تهـدد بحشري في حجرتي.

وفيما بعد "وفي بيتي في تورنتو وضعت رفوفاً للكتب في كل مكان، فـي غرفة النوم.. المطبخ، في الممرات والحمام، حتى الشرفة المسقفة كان لها رفوفها، إلى حد أن أطفالي كانوا يتندرون قائلين إنهم بحاجة إلى بطاقة مكتبة للدخول إلـى بيتهم الخاص، لكن كتبي، مهما كان مكان الشرف الذي تحتله، لم تكن راضية أبداً إذا وضعت الكتب البوليسية في قبو غرفة النوم، فإن المكان المخصص لها ما يلبث أن يضيق عليها، فيجب عندئذ نقلها إلى الطابق العلوي في واحد من جدران الممر مزيحة الأدب الفرنسي، على الأدب الفرنسي الآن أن يتجزأ على مضض إلى أدب مقاطعة كيبك وأدب فرنسا، وأدب البلدان الفرانكفونية الأحرى، أمر مزعج جداً أن أفصل، على سبيل المثال، أيمي سيزار عن أصدقائه ايلوار وبريتون، أو أن أضطر إلى عزل كتاب لوى هيمون "ماريا سابدولين" (ملحمة وطنية من كيبيك) برفق كتب لها يسمان وهيغو لمجرد أن هيمون ولد في بريتانى فرنسا ولم يعد لي مجال فـي القسم الكيبيكى "وهو يعتبر أن" القراء لا تكمن قدرتهم على جمع المعلومات، أو في قابليتهم في الترتيب والفهرسة، بل في موهبتهم في تفسير وتوحيـد وتحويـل مـا يقرأون في المدارس التلمودية، كما في مدارس الإسلام فإن طالب العلم بمقـدوره تحويل الإيمان الديني إلى قوة فاعلة من خلال موهبة القراءة، حيـث أن المعرفـة المكتسبة من الكتب هي هبة الله، وفقاً لحديث نبوي، أو طبقاً لتقاليد الإسلام (طالب علم واحد أقوى على الشيطان من ألف متعبد) في ثقافات الكتب مثل هذه لا تكمـن المعرفة في تراكم النصوص أو المعلومات ولا في مادة الكتاب نفـسه ، بـل فـي التجربة المستقاة من الصفحة وتحويلها ثانية إلى تجربة، وفي الكلمات التي تنعكس في كل العالم الخارجي وشخصية القارئ نفسه".

وعنده أن الكتب تمنح مكاناً ما هوية خاصة يمكن بل إنه " في بعض الحالات تستولي على هوية مالكها، وهي خاصية معروفة جيداً للشخصيات الساذجة التي طلب أن يرسم لها بورتريه (أو أن تصور) وخلفها جدار مليء بالكتب يأمل أن يمنحهم هذا بريقاً ثقافياً، سخر سينيكا من القراء المتباهين الذين يعتمدون على مثل هذه الجدران كي يضفوا على أنفسهم عظمة فكرية، وأيد فكرة امتلاك عدد صغير فقط من الكتب لا(رفوف لا نهاية لها من الكتب، التي يزين بها الجهلة حجرة الاستقبال في بيوتهم) في المقابل المكان الذي نحفظ فيه كتبنا يغير علاقتنا معها، نحن لا نقرأ الكتب بنفس الطريقة ونحن جالسون داخل مكان دائري أو داخل مكان مربع في غرفة ذات سقف واطئ، أو في واحدة عالية ذات عوارض خشبية، والجو الذهني الذي ننشئه في فعل القراءة، الحيز المتخيل الذي نبنيه حين نفقد أنفسنا في صفحات كتاب هو مثبت أو منفي بواسطة الفضاء المادي للمكتبة، ومتأثر بالمسافة بين الرفوف، ووفرة أو ندرة الكتب وبخصائص الرائحة واللمس والدرجات المختلفة للضوء والظل (كل أمين مكتبة هو إلى حد ما معماري) لا حظ ميشيل ميلو أن مدير مكتبة مركز بومبيدو في باريس (أنه ينشيء من كتبه مجموعة عضوية واحدة من خلالها لابد أن يجد القارئ طريقة في الحياة، ويكتشف نفسه ويحيا).

وبالنسبة له، ثمة فرق بين الحجرة الكبيرة التي احتفظ فيها بمعظم كتبي والحجرة الأصغر حيث أعمل، في الكبيرة " المكتبة الخاصة " اختار الكتب التي أحتاج وأرغب، وأجلس وأقرأ، وأدون ملاحظات، وأراجع موسوعاتي، لكن في الحجرة الصغيرة، مكتبي، فإن الكتب المختارة هي تلك التي أحسبها عاجلة وضرورية وحميمية أكثر"

وهو يحيط أضواء المكتبة بنوع من المراسم:" في مكتبي كنت أحتاج أيضاً إلى تعويذات معينة تغمر منضدتي لسنوات طويلة، أداعبها بذهول وأنا استدعى

الكلمات حين كان علماء من عصر النهضة ينصحون بالاحتفاظ بأشياء مختلفة في الكتب: آلات موسيقية وفلكية لإضفاء التنوع والهرمونية على المكان، أشياء نادرة من الطبيعة مثل حجر ذي شكل غريب وقواقع ملونة، وبورتريهات لسانت جيروم، القديس الحامي للقراء، لقد اتبعت نصائحهم إلى حد ما.

مثل ماكيافيللى، أجلس غالباً وسط كتبي في الليل، بينما أفضل أن أكتب في الصباح، في الليل أنعم بالقراءة في الصمت المطلق، حين تشطر مثلثات الضوء التي يشكلها مصباح القراءة رفوف مكتبي إلى نصفين، فوق الصفوف العليا من الكتب تغيب في الظلمة وتحت يبرز الجزء المفضل للعناوين المضاءة ، هذا التقسيم الجغرافي الذي يمنح كتاباً بعينه حضوراً متواقداً ويبعد الأخرى إلى الظلال ، يبطل بترتيب آخر، يدين بوجوده فقط لما تحويه ذاكرتي، مكتبتي ليس لها فهرس ، فقد وضعت الكتب على الرفوف بنفسي، وأنا أعرف بوجه عام مكان كل واحد منها، استرجع مخطط المكتبة في ذاكرتي، ولا يشكل الضوء والظل فرقاً كبيراً في استكشافي، الترتيب المتذكر يتبع نموذجا في ذهني، هو شكل وتقسيم المكتبة ، والأمر شبيه إلى حد ما بتحديق منجم إلى النجوم، ناظراً خلال نقاطها الضوئية إلى نماذج في ذهنه، وهكذا في مكتبتي، انعكاس لنجوم عقلي، منجمها البعيد، الترتيب العشوائي، لكنه المدروس أيضاً، واختيار مواد الموضوع، والتاريخ الحميم لحياة كل كتاب، وآثار أزمان معينة وأماكن معينة تركت بين الصفحات، كلها تشير إلى قارئ خاص، ربما بوسع ملاحظ حاد النظر أن يحزر من أكون، من رؤيته لنسخة مهلهلة من أشعار بلاس دى أوتيرو، ومن عدة مجلدات لروبرت لويس ستيفنسون، ومن الجزء المخصص للقصص البوليسية، ومن الجزء الصغير جداً المفرد لنظرية الأدب، ومن واقع أن هناك الكثير من بلاتو والقليل جداً من أرسطو على رفوفي، كل مكتبة هي بمثابة سيرة ذاتية، ما يجعل المكتبة صورة منعكسة لمالكها، ليس

اختيار العناوين فحسب، بل شبكة الأفكار المترابطة التي ضمها الاختيار، تجربتنا بنيت على تجارب، وذاكرتنا على ذاكرات أخرى، كتبنا بنيت على كتب أخرى غيرتها أو أغنتها، منحتها جداول كرونولوجيا (تقسيم زمني) بمعزل عن كرونولوجيا المعاجم الأدبية، أنا الآن عاجز بعد كل هذا الوقت، عن اقتفاء أثر هذه الروابط بنفسي، لقد نسيت، أو حتى لا أعرف بأي طريقة ترتبط كثير من هذه الكتب واحدها بالآخر، إذا ما تحركت في اتجاه واحد- القصص الإفريقية لماغريت لورانس تستدعي إلى ذهني رواية "خارج إفريقيا" لا يساك دينيس، وهذه بدورها تذكرني بقصصها "سبع حكايات قوطية" وهذه تعود بي إلى ادغاردو كوزارينسكي (الذي عرفني على دينيس) وكتابه عن بورخس والسينما، والعودة أكثر إلى روايات روس ماكولأي، التي كان لنا، أنا وكوزارينسكي، نقاشاً حولها ذات ظهيرة في بوينس آيرس منذ وقت طويل، وكل منا دهش أن يكون الآخر يعرفها، حينها سأفقد الخيوط الأخرى إذا كان الليل ابن كاووس أذن " ليث" أو النسيان هو حفيده، الذي ولد من الاتحاد الرهيب بين " الليل " و " التنافر" في الكتاب السادس من " الإنيادة" يتخيل فرجيل ليث كنهر، مياهه تجعل الأرواح تنسى ذواتها السابقة في طريقها إلى العالم السفلى، كي يتاح لها أن تولد من جديد، ليث لا يدعنا ننسى تجاربنا وسعادتنا، فحسب، بل أيضاً أحكامنا المسبقة وشقاءنا.

ويصنف أمانويل مكتبته، ومدى تذكره لها:" فمكتبتي تتألف من كتب نصفها أتذكره، ونصفها الآخر نسيته، لم تعد ذاكرتي الآن حادة كما كانت، صارت الصفحات تتلاشى حين أحاول أن أستعيدها، بعضها اختفت من خبرتي تماماً، أمست منسية وغير مرئية، أخرى سكنتني على نحو مغوٍ بعدوان أو بصورة،أو ببضع كلمات من نص، أي رواية تبدأ بهذه الكلمات (في أمسية ربيعية في عام ١٨٩٠) ؟ أين قرأت عن الملك سليمان حين استخدم مرآة ليكتشف إن كان للملكة

شيبا سيقان مشعرة؟ من كتب ذاك الكتاب الملفت " الطيران في الظلام" الذي أذكر منه وصفاً لرواق مسدود مليء بطيور تخفق بأجنحتها ؟ في أي قصة قرأت هذه العبارة (غرفة مكتبته المليئة بسقط المتاع)؟ أي مجلد على غلافه شمعة مضاءة مرسومة بقلم شحمي كثيف على ورقة بلون القشدة ؟ في مكان ما من مكتبتي ثمة أجوبة لهذه الأسئلة، لكني نسيت مكانها.

غالباً ما يسألني ضيوفي إن كنت قرأتُ كل كتبي، وغالباً ما أجيب بأني بالتأكيد فتحت كل كتاب منها، في الواقع أن مكتبة ما، مهما كان حجمها، لا تحتاج كي تكون نافعة، أن تُقرأ بمجموعها، إذ أن كل قارئ ينتفع من التوازن المناسب بين المعرفة والجهل.. التذكر والنسيان .

وبالنسبة للكتب التي لم يقرأها:" فليس لدى أي شعور بالذنب بشأن الكتب التي لم أقرأها، وربما لن اقرأها أبداً، فأنا أعرف أن مكتبتي لديها صبر لا حدود له، سوف تظل تنتظرني حتى نهاية العمر، وهي لا تطلب منى أن أتظاهر بأني أعرفها كلها، ولا تطالبني أن أغدو واحداً من(معالجي الكتب المحترفين).

أما خارج مكتبته:" ففي خارج نوافذها حديقة بها شجرتا وسفورا ، عندما يزروني أصدقائي أثناء الصيف، لنجلس ونتحدث تحتهما أحياناً في النهار، وعادة، في الليل داخل حجرة المكتبة، تلهينا الكتب عن المحادثة، فنميل إلى الصمت، لكن في الخارج، تحت النجوم، يغدو الحديث أقل كبتاً، وأوسع مدى، وبغرابة أكثر إثارة ثمة شيء ما في الجلوس خارجاً في الظلام يبدو أنه يشجع على حديث غير مقيد، الظلمة حافز للكلام، بينما الضوء دافع الصمت .

أحتفظ بقائمة من كتب أشعر أن مكتبتي تفقدها، وآمل أنى سأشتريها ذات يوم، وقائمة أخرى لكتب مرتجاة، أود جداً أن تضمها مكتبتي، لمجرد متعة امتلاكها أكثر من ضرورتها، لكنى لا أعرف حتى إن كانت موجودة، في القائمة الثانية

كتاب " التاريخ الكوني للأشباح" ، وصف للحياة في مكتبات روما واليونان " والرواية البوليسية الثالثة لدوروثى أل سايرن التي أكملها جيل باتون والش، وكتاب تشسترتون عن شكسبير و" موجز ابن سينا عن أرسطو" وكتاب أدبي عن الطبخ، وصفاته من وجبات روائية خيالية، وترجمة " الحياة هي حلم لكالديرون" بقلم آن مايكلز (التي لا يلاءم أسلوبها، كما أعتقد، على نحو مثير للإعجاب أسلوب كالديرون) و" تاريخ النميمة " وكتاب " المذكرات الحقيقة وغير المراقبة لحياة منشورة " للويس دينيس ، و"سيرة حياة بورخس" الموثقة والمكتوبة بشكل جيد، وكتاب يصف ما حدث بالضبط أثناء أسر سرفانتس في الجزائر، ورواية لم تنشر بعد بقلم جوزيف كونراد، ويوميات ميلينا كافكا.

ويضيف: " بوسعنا تخيل كتباً نود قراءتها، وإن لم تكتب بعد، وبوسعنا تخيل مكتبات ملأي بكتب نود امتلاكها، حتى لو كانت بعيدة المنال، لأننا نود أن نبدع مكتبة تظهر كل اهتماماتنا وكل نقاط ضعفنا، مكتبة تعكس، بتنوعها وتعقيدها، ما نحن عليه تماماً كقراء، لذا ليس من المعقول الافتراض، بطريقة مماثلة بأن هوية مجتمع، أو هوية وطنية، يمكن أن تعكس بواسطة مكتبة، بواسطة تجميع لعناوين تحدد بطريق عملية وأيضاً رمزية هويتنا الجمعية.

الكتب هي أفضل ما نملك في الحياة، أنها خلودنا .

أشعر بندم عميق لأنني لم أملك مكتبة خاصة بى".

ويستخلص أمانويل من قصته مع مكتبته أنه:" من المؤكد أن قصة مكتبتي بدأت باكتشاف كتبي، اكتشاف المكان الذي توضع فيه، اكتشاف الهدوء في المكان المضاء تحت الظلام الذي يخيم خارجاً".

غربة الكاتب العربي

ليس غريباً أن يهتم الكاتب والمثقف العربي، الذي يعيش في المنفي، بزملائه الكتاب والمفكرين والمبدعين العرب، الذين يعيشون تجربته في المنفي والغربة، وهكذا فعل الدكتور سلين فرحات الأستاذ الجامعي الفلسطيني مع شخصيات مثل الشاعر أدونيس (على أحمد سعيد) والمفكرين هشام شرابى وأدوارد سعيد، والروائيين مثل جبرا إبراهيم جبرا وعبد الرحمن منيف، والطيب صالح، وجبران خليل جبران الذي جمع بين فنون مختلفة، والمسرحي سعد الله ونوس.

في هذا الكتاب "غربة الكاتب العربي" (دار الساحة ٢٠١١) يحلل حليم بركات أعمالهم الشعرية والروائية والتشكيلية من حيث خبرات العيش في المنفي، والانتماء الطبقي، وهمجية الدولة، وتوجهات الزمن بين المستقبلي والآتي والسلفي.

ويبدأ حليم بركات بالشاعر أدونيس ويركز على ديوانه " أغاني مهيار الدمشقي" ويصف عالم "مهيار الدمشقي" بأنه عالم قد تشكك فيه في نفسك، وتتساءل ما إذا كنت ضائعاً! فهو عالم جديد وغريب ومعقد، وفي الأغلب لا تفهم كثيراً مما

تقرأ، وقد تستحمل أن تتهم نفسك، فتتساءل ما إذا كان الشاعر ضائعاً ، وهل يجلس الشاعر في غرفة معتمة فلا سبيل لديه للمقارنة ومعرفة ما إذا كان الضوء الصغير الذي يراه بعيداً أم قريباً.. متحركاً أم ثابتاً؟

ويعتبر الكاتب أن أدونيس غير راضٍ عن العالم حوله، وفي خـلاف مـع الخارج، يعيش مصير الآخرين، لكنه غريب وضائع ومفصول.

إنه في حيرة، لا في اتجاه الضوء في العالم فحسب، بل تجاه وضعه هـو بالذات، أو ربما من أجل ذلك يرفض، وهو ينفي بالرفض في معظم قصائده، حتى ليصبح الرفض فردوسه المطلق في عالم نسبي.

ويتابع الأستاذ حليم بركات تطور حياة أدونيس الشعرية من حيث تأثرهـا بالتحولات الاجتماعية، ويتوصل إلى اقتناع بأن أدونيس يمثل طليعة الشعر العربي والتنظير للحداثة الثقافية العربية في هذا العصر، وبأنه سيد اللغة، تأتي إليـه مـن الأعماق كتدفق مياه الينابيع وهطل المطر وعصف الرياح، وهو إضافة إلى ذلـك إنسان مرهف الحساسية، محب، متفتح على التيارات المتصارعة، عليم بالتـاريخ العربي الثقافي القديم والحديث، انطوائي، غني بعالمه الداخلي.

ومن خلال صلاته وأحاديثه الشخصية، يستخلص أن أدونيس مدفوع بقوى داخلية غامضة، ولكن انطوائيته ليست تجنباً لعواصف الواقع، على العكس، فهـو كثيراً ما خاض المشاكل وتعرض لأعاصيرها، وفي أحد أحاديثهما وهما يـسيران في شوارع بيروت في ساعة متأخرة من الليل:" أفضل أن أظل في الشارع على أن أعود إلى بيتي، ففي البيت أذهب إلى زوجتي، أفضل نساء العالم، وإلـى طفلتـي فأشعر بالراحة والطمأنينة، أما في الشارع فأشعر أني قلق ،وهذا أفضل للشعر".

وهنا يتساءل حليم بركات : هل القلق الذي نعبر عنه في زمن الطمأنينة هو مصدر الشعر عند أدونيس؟ إن الشعر عنده هاجس، يتطلب تعرضاً بقدر ما يتطلب

قدرة فائقة على التأمل والغوص في معارك الحياة كما في الذات.من هنا أيضاً هاجس المستقبل، أي الإبداع لا التكرار والاستعادة.

وعن عالم جبرا إبراهيم جبرا وعالمه الروائي، يقول الكاتب:" إن جبرا إبراهيم جبرا ليس عميق الثقافة فحسب، بل هو قبل ذلك مبدع يبدأ من معاناته الخاصة، وهي معاناة تغنى النفس وتفجر طاقات الإبداع أكثر مما تقوض الجسد".

لذلك كان جبرا طليعياً، ومجددا في تاريخ الرواية والأدب العربي المعاصر عامة، عميقة جذوره في مجتمعه، وشامخة أغصانه في الثقافات الإنسانية، وانطلاقاً من العمق والشموخ، تمكن جبرا من أن يملأ المكان، متميزاً في الثقافة العربية المعاصرة، وسيظل مضيئاً ومشعاً مهما عصفت رياح النسيان، وتبدلت الأمزجة والتجارب الفنية".

بقدر ما تعرف الكاتب إلى جبرا وتعمق في قراءة إنتاجه، تحولت انطباعاته الأولى إلى قناعات راسخة، من الصعب جداً الفصل بين جبرا الإنسان وجبرا الكاتب، أو بينه وبين كتاباته، ومهما كثرت شخصيات رواياته وتنوعت لم يفته أنها تشمل جوانب مختلفة من تجاربه الخاصة، وأمنياته المنجزة منها أو المحبطة، الرجال من شخصياته جوانب من شخصيته، والنساء هي الحلم الذي تسعى لأن يتحقق، أو هي في كثير من الحالات ما صورته لنا ثقافاتنا التقليدية.

وعن عبد الرحمن منيف صاحب خماسية " مدن الملح" وعن حالة الروائي وغربته في المنفي، فيقول الكاتب:" إنه من خلال قراءاته التحليلية لمختلف أعماله، ومعرفته الشخصية به، فإنه يحرص على أن لا يفصل بين الإنسان والروائي، فهو حقاً نسيج بديع ونادر من الموهوبتين معاً، أو يتكامل فيه الفنان والإنسان، فينفي أحدهما الآخر، وهذا في حد ذاته سره الخاص الغامض غموض التجارب الإبداعية عموماً، وفي كل الفنون قاطبة.

وعنده أن غربة عبد الرحمن، وشعوره بالنفي، تذكر بالتجربة نفسها لـــدى إدوارد سعيد، وموت كل منهما يذكر بموت هشام شرابى في بيروت، وربما يمكن أن ندرج هنا أعمال عبد الرحمن الذي خبر شخصياً اغتراباً عميقاً ونفسياً طوعيـــاً وقسرياً معاً، وتعرض لتأثيرات متناقضة في مجتمعات مختلفة، فهو يقول في كتابه "الكاتب والمنفي": "إن تكن منفياً يعنى أنك، منذ البداية إنساني منهم.. ونتيجة لـــذلك تترتب مجموعة من الصفات الملتبسة، هذه الصفات لا تقتصر على المنفي وحـــده، إذ تمتد إلى أسرته، حتى لأطفاله وإلى الأصدقاء والمعارف، أغلب هؤلاء يكونـــون منفيين أيضاً"

أما إدوارد سعيد، الذي يصفه " بالمبدع صاحب القضية": فإنه يستهل تقديمه لفكره وشخصيته ومقامه في الفكر العالمي، بما قاله الشاعر محمود درويش، بـــأن ادوارد سعيد كان ضميرنا وسفيرنا إلى الوعي الإنساني، فلن تستطيع الآن، كما في الماضي، أن تودعه من فرط ما هو حاضر فينا وفي العالم، ومن فرط ما هو حي، وعند حليم بركات فإنه لم يكن من الممكن أن يسمع الغـــرب صـــوت إدوارد، وأن يكون له هذا الأثر في الرأي العام الغربي، لو لم يمتلك قدرات وخصالاً متميـــزة، منها معرفته العميقة بالثقافة الغربية أكثر من أبنائها، وقدرته الإبداعية الهائلة على مخاطبة الأمريكيين والأوربيين من موقع نقدي، واحتفاظه بمسافة نقدية بين مختلف انتماءاته غربية كانت أم عربية وفلسطينية بالذات، ودفاعه الجريء عن قضايا شبه محرمة، وحرصه بل جرأته على المسكون عنها ونقيده بمبادئ إنسانية .

وكان من منطلقاته الأساسية أنه رأي، بعد الكثير من التنقيب والتأمـــل، أن العلاقة بين الشرق والغرب هي مسألة هيمنة لا صراع حـــضارات، ولا لمجـــرد الاختلاف والتنوع الثقافي والحضاري في العالم فحسب .

أما عن عمله الضخم "الاستشراق" فإن الأستاذ حليم بركات يعتبر أنه أحدث منذ صدوره عام ١٩٧٨ خلخلة في الثقافة الغربية حول العرب والإسلام والشرق الأوسط.. وكان لهذه الانتفاضة الثقافية علاقة مباشرة برسوخ إحساس إدوارد بهويته الغربية التي بدأ استعادتها منذ حرب ٦٧ فأصبحت القضية الفلسطينية هي هاجسه الأهم إلى يوم وفاته، ومن خلال معاناته الشخصية في المنفي، استخلص إدوارد سعيد أن النفي يعتمد على وجود حب للوطن الأصلي، وارتباط حقيقي به، إذ هو غربة فرضت على الإنسان، ولا يمكن الخلاص منها، فالمنفي مقتلع من جذوره وتربته وماضيه.

ويصل سعيد إلى هذه النتيجة، لأنه لم يتحدث فقط عما يصيب الفرد، بل أيضاً عن تحولات النفي في القرن العشرين، بحيث أن شعوباً وجماعات، كالفلسطينيين، تعرضت لعقوبات شرسة، فاقتلعت وتشردت من أرضها.

وينتقل الكاتب إلى الروائي الطيب صالح وروايته " موسم الهجرة إلى الشمال" التي يصفها " بالغموض الخلاق"، واعتباره أنها نموذج حي لرواية التمرد الضروري، الذي تلجأ إليه شخصياتها الإنسانية، لتتجاوز اغترابها، ويعتبر أن شخصية الرواية "مصطفي سعيد" هي من أكثر شخصيات الرواية العربية وضوحاً في عالمها الداخلي من حيث موقفه من الغرب،الذي استوعب حضارته فحطمت قلبه، وفي رأيه أن رواية " موسم الهجرة إلى الشمال" تمكنت من القبض على مخيلة القارئ والناقد، وفرضت نفسها كواحدة من أهم الروايات العربية، بسبب ما نسميه الغموض الفني الخلاق الذي تتميز به، مما ساعد على اشتراك القارئ في عملية الإبداع، وسمح بتعدد التفسيرات عند النقاد، وقد تم ذلك بلا افتعال، بل بصدق وعفوية، قل نظيرهما في الكتابة الروائية، بذلك فيما يقول حليم بركات:" يبقى بطل الرواية مصطفي سعيد، كما تبقى رواية " موسم الهجرة إلى الشمال " لغزا

الاغتراب، حضارة تفرض نفسها فرضاً وتعلم الآخر أن يجيد " قول نعم" ، حضارة تقليدية تستبيح المرأة، وتلغي الإنساني، فتتعلم الصمت، وهكذا، إذا ما تمكنا من التوصل إلى قناعة ما من خلال هذه الرواية فهي هذا الاغتراب المزدوج عن الحضارتين معا: حضارة الآخر، والحضارة الأصلية التقليدية".

أما " جبران خليل جبران" فإن الكاتب يتساءل عما إذا كان شاعر التمرد أم الوفاق؟ وعنده أنه:" يمثل في تاريخ الأدب العربي الحديث، كما تستنتج خاصة من مؤلفاته " الأرواح المتمردة" ، " الأجنحة المتكسرة" و " العواصف" و " المجنون"، يمثل بداية بزوغ أدب الثقافة المضادة في أنصع معانيها، مهما قيل حول رومنطيقيته وأسلوبه الخيالي، وقد تجاوز حالة الانفصام والنهائية، كما في مقولات العقل / القلب والروح والجسد، وحقق في أعماله وحدة الوجود، كما صور المجتمع في حالة اختلال وضرورة، وصراع فوق إلى جانبي " أبناء الكآبة " ضد " أبناء المسرات" ولم يسلك طريق التوفيقية والمسالمة والمهادنة، وثار ضد القهر الاجتماعي والنفسي في علاقة النفس بالمؤسسات، ودعا إلى إقامة واقع بديل، تتحقق فيه أحلام الإنسانية بقدر ما يمكن لهذه الأحلام أن تتحقق .

ويختتم حليم بركات مجموعة الشعراء والمفكرين والروائيين التي استعرض وتعمق في حياتها وفكرها، بالكاتب المسرحي السوري " عبد الله ونوس" ،وهو بعد إعادة قراءة بعض أعماله، وما وضعه من ملاحظات أولية حولها، حتى أدرك أن التجاوز ليس بالسهولة التي توقعها، فسعد الله ونوس ليس من المبدعين الذين يحرصون على التمييز بين ما هو ذاتي وما هو موضوعي، وما هو خاص وما هو عام، فكلاهما واحد عنده، فيكاد الفصل أن يكون مستحيلاً، الفصل بين تجاربه الشخصية وكتاباته، فتجاربه هي كتاباته والعكس صحيح، إنهما جوهر واحد، وتدفق من النبع ذاته، ومصدر النبع يفور بعيداً في النفس الإنسانية".

ويستخلص أن عبد الله ونوس شاعر تأمل في شئون الإنسان والتاريخ، ومسرحي أجاد الحوار وترتيب المشاهد، والإضاءة كما التصميم الفني، وروائي يسرد علينا من زوايا متعددة، اختار الروح والجسد بلغة متوهجة متوثبة خاصة، بحيث أن كل فن مؤدًّى من هذه الفنون يستطيع سعد الله أن يدعيه ويفخر به.

إن هؤلاء الشعراء ، والمفكرين والروائيين العرب، الذين استدعاهم حليم بركات، من حيث تأثير تجربة المنفي والغربة عليهم، وعلى أعمالهم وشخصياتهم، تذكرنا بمجموعة من الكتاب والروائيين المصريين الذين عاشوا تجربة المنفي، من أمثال : عبد الرحمن الخميسى، وعبد الحكيم قاسم، وبهاء طاهر، في تجربته الطويلة في المنفي، التي أبدع خلالها روايته " الحب في المنفي "، ثم مجموعة الكتاب الصحفيين اللذين لجئوا إلى الغربة في السبعينات مثل أحمد بهاء الدين، ومحمود السعدنى، وفهمى هويدى، ومصطفي نبيل، مثل هؤلاء ينتظرون من يبحث في تأثير الغربة على إنتاجهم وشخصياتهم، وعلى تعميق انتمائهم الوطني.

مع تـأملات

ماركوس أوريليوس

ماركوس اورليـوس (١٢١-١٨٠م) هـو الفيلـسوف الروائـي، ورأس الإمبراطورية الرومانية، الملقب بـ " الفيلسوف على العرش" ، حيث تحققت فيـه إلى حد كبير صورة الحاكم الفيلسوف التي تمثّلها أفلاطون في جمهوريته، وعلـى حد قول جون ستيوراث مل كان:" الحاكم المطلق على العالم المتحضر كله آنذاك، وبلغ من الحكمة والأستاذية ما لم يبلغه أحد معاصريه، كان مثـالاً لرقـة القلـب، وللعدالة التي لا يشوبها شيء، اللهم إلا السماحة الرائدة "، هذه اليوميـات.. التـي ترجمها إلى عربية راقية د.عادل مصطفي، وراجعها وقدم لهـا مقدمـة إضـافية الأستاذ الدكتور أحمد عثمان، كتبها ماركوس باليونانية، لغة الصفوة مـن مثقفـي الرومان في ذلك الوقت.. وكان يخاطب بها نفسه، وليس جهة أخرى، فإنه لم يكتبها للنشر.

في هذه التأملات يتحدث ماركوس عن الشخصيات والمفكرين الذين أثروا فيه وتعلم منهم، فيتذكر جده فروس الذي تعلم عليه الدماثة وضبط النفس.. وما سمعه عن أبيه، وما يذكر عنه، تعلم التواضع والنخوة، ومن والدته تعلم التقوى والإحسان والبعد عن فعل السيئات أو مجرد التفكير فيها، وتعلم منها أيضاً بساطة العيش، ومن ديوجينتوس Diognetush تعلم أن ألا ينشغل بالتفاهات، ولا يصدق حديث المشعوذين والدجالين عن الرق والتعاويذ وطرد الشياطين وما شابه، وألّا يضيق بالصراحة، وأن يتحدث في الفلسفة، كما تعلم من أبو للونيووس Apollonius حرية الإرادة وعدم الابتعاد عن الهدف، أو التعويل على شيء آخر سوى العقل، ومن سكستوس Seextus تعلم الأريحية، ومفهوم الحياة التي تعاش وفقاً للطبيعة، ووقاراً بغير تكلف، ورعاية مصالح الأصدقاء، والتسامح تجاه الجهال من الناس، ومن كوتولوس Cotulus تعلم ألّا يرفض أي نقد موجه من صديق، حتى لو كان نقداً لا مبرر له، بل يؤلف قلبه ويعيده إلى صفائه، ومن مكسيموس Maximas تعلم ضبط النفس، والتمنع على النزوات العابرة والمرح في جميع الظروف حتى المرض، وتوازناً حميداً في الشخصية بين اللطف والوقار، وأن يؤدى ما ينبغي أداؤه، مهما كلفه ذلك من جهد، ومن أبيه تعلم الرفق وصحة العزم في القرارات التي يخلص إليها بعد تروٍ تام، وألّا ينخدع بتلك الأشياء التي يعتبرها الناس مبعث فخر، كما تعلم منه حب العمل والمثابرة والإصغاء لكل من لدية اقتراح من أجل الصالح العام، وأن يعطى كل ذي حق حقه، وأن يعرف متى يشتد ومتى يلين.

في الكتاب الثاني من التأملات يخاطب نفسه ويطالبها بأن تقول حين تقوم في الصباح: "اليوم سألفي من الناس من هو متطفل ومن هو حاقد، ومن هو عاتٍ

وعنيد، وسأقابل الغادر والحسود ومن يؤثر نفسه على الناس، لقد ابتلى كل منهم بذلك، من جراء جهله بما هو خير وما هو شر.."

ويقول لنفسه: "في كل لحظة من حياتك أوكِل انتباهك، كروماني وكإنسان، إلى أن تؤدى المهمة التي بين يديك بتحليل رقيق ورزانة غير متكلفة، وتعاطف إنساني، وعدالة ونزاهة، وأن تفرغ عقلك من كل أفكاره الأخرى"، وينبه إلى أنه" ربما تغادر الحياة في أي لحظة، فضع هذا الاحتمال نصب عينيك في كل ما تفعله أو تقول أو تفكر فيه".

ويتساءل: ما الموت؟ ويجيب بأن من يتأمل الموت في ذاته، ويعمل فيه التحليل العقلي سوف يخلص إلى أنه لا يعدو أن يكون وظيفة طبيعية، ومن يرتاع لوظيفة من وظائف الطبيعية فهو طفل غرير، ليس الموت وظيفة طبيعية فحسب بل أيضاً خيراً للطبيعية وصالحها.

في الكتاب الثالث يقول أوريليوس إنه" ينبغي أن نضع في حساباتنا، ليس فقط، أن الحياة تنتقص يوماً بعد يوم، وأن رصيدنا الباقي يتناقص، بل أيضاً أننا إذا امتد الأمل فلا ضامن لنا أن عقولنا ستظل محتفظة بالقدرة على فهم العالم وتأمله، تلك القدرة التي تشكل خبرتنا بالأمور الإلهية والإنسانية، فإذا أدركنا العته، فلن يتوقف فينا التنفس ولا العداء ولا الخيال ولا الرغبة ، بل قبل أن تذهب هذه سيذهب استخدام المرء لنفسه استخداماً صحيحاً: تقديره الدقيق لما يتوجب فعله، قدرته على تحليل الانطباعات، وعلى معرفة هل عليه أن يرحل مختاراً عن الحياة"

وينصح أوريليوس نفسه أن: "لا تفعل شيئا ضد إرادتك، أو دون اعتبار للصالح العالم، أو دون رؤية، أو لدوافع مصطنعة، ولا تضع أفكارك في أسلوب متكلف مبهرج ،ولا تكن ثرثاراً متطفلاً" ، ويقول: "لا شيء يؤدى إلى سمو العقل مثل قدرتك على أن تعرض كل عنصر من عناصر خبرتك في الحياة على الفحص

المنهجي والصادق، وقدرتك على أن تنظر إلى الأشياء دائماً، بحيث يمكنك في الوقت نفسه أن تتأمل أي صنف من العوالم هذا، وأي دور يسهم به هذا الشيء أو ذاك في هذا العام".

ويضيف : "إنه تماماً مثلما أن الأطباء دائماً جاهزون بأدواتهم ومباضعهم لعلاج أي حالة طوارئ، لديك مبادئك العقلية جاهزة لفهم الأمور الإلهية والإنسانية، مهما كان ضئيلا، وبشكل يوحى بالرابطة التي تربط الإلهي بالإنساني، فلن يتسنى ذلك أن تجيد أي عمل يتعلق بالإنسان دون أن يكون لديك أيضاً مرجعية إلى الأمور الإلهية والعكس بالعكس" .

وفي الكتاب الرابع يقول أوريليوس: "إنهم يبحثون عن منتجعات لهم في الريف وعلى البحر وعلى التلال، وأنت بصفة خاصة عرضة لهذه الرغبة المشوبة،ولكن هذا من شيمة الطغاة، فما زال بإمكانك كلما شئت ملاذا تطلبه في نفسك التي بين جنبيك، فليس في العالم موضع أكثر هدوءاً وبعداً عن الاضطراب مما يجد المرء حين يخلو إلى نفسه، وخاصة إذا كانت نفسه ثرية بالخواطر التي إذا أطلت غمرته بالسكينة التامة والفورية، ولست أعني بالسكينة إلا الحياة، التي يحكمها العقل ويحسن قيادها"، ويقول:" قل وافعل ما تقتضيه الطبيعية، وأعلم أنه ملائم لك أيضاً ولا يصرفك عنه ملام تتوقعه من الناس أو من كلامهم، فما دام الشيء خيراً فافعله أو قله ولا تستنكف من ذلك، فأولئك الناس إنما تحدوهم عقولهم وتسوقهم أهواءهم، فلا تأبه لهم، وامضِ قدماً في طريقك، متبعاً طبيعتك الخاصة والطبيعية العامة، فطريق هاتين الطريقين واحد" ويضيف: "بوسعك أن تقضي حياتك في فيض يتدفق من السعادة، إذا أمكنك أن تمضى في الطريق القويم، وأن تتبع طريق العقل في أحكامك وأفعالك".

ويتساءل ماركوس أوريليوس عن خصائص الروح العاقلة ويجيب:" أنه ترى ذاتها وتشكل ذاتها وتجعل نفسها أي شيء تريد، وتجمع لنفسها الأقمار التي تحملها والروح العاقلة ، فضلاً عن ذلك ، تجتاز العالم كله، والخلاء المحيط به، وتستكشف شكله وتمد نفسها في الزمان".

ومن خصائص الروح العاقلة أيضاً: حب الجار والصديق، والتواضع، وأن ترفع نفسها عن كل شيء، وهذه الأخيرة من خصائص القانون أيضاً ، فلا فرق إذن بين مبدأ الفلسفة الحقيقي ومبدأ العدالة.

ويحلل أوريليوس طبيعة الرفق فيعتبر أن تأثيره فعال لا يقهر، بشرط أن يكون أصيلاً لا تصنع فيه ولا نفاق،" فماذا عسى أن يفعل لك أعنف الناس إذا ما تبعت رفيقا به، وبذلت له النصح ما استطعت، ويثبت له خطأه في نفس الوقت الذي يحاول فيه إيذاءك!"

وهكذا يحقق ماركوس أوريليوس بهذه التأملات العميقة والثرية عن الحياة والبشر والفضيلة والحياة العاقلة، يحقق ما تطلع إليه أفلاطون عن الحاكم الفيلسوف، وإذا كان أوريليوس قدم هذا النموذج في أزمان بعيدة، فإننا نستطيع أن نتعرف على نموذج في أيامنا جمع بين الحكيم والمفكر، وبين رئيس الدولة، ونعنى به الكاتب والمفكر التشيكى فاسلاف هافيل، الذي أمضى ١٢ عاماً رئيساً لدولة التشيك بعد ثورتها المخملية عام ١٩٨٩، وقد أمضى هذه الفترة، وهو يتأمل ويكتب ويحاضر حول حيرة المفكر الحاكم، ويقدم خبراته، التي استخلصها وهو في الحكم، عن العلاقة بين السياسة والأخلاق، ويرفض أي تناقض بينهما.

التنوير: ثلاث رؤى

يرتبط مفهوم " التنوير " بالحركة الفلسفية والفكرية التي ظهرت وازدهرت في أوروبا في القرن الثاني عشر تحت اسم Enlightenment وكانت تعلى من قيم التسامح تجاه الرأي المخالف، وخاصة تجاه المعتقدات الدينية، والتحرر من كل ما يقيد الفكر والتعبير، وكان جوهر هذه الحركة هو إعلاء شأن العقل، واعتباره الحكم الأخير بين الأشياء، وكذا إعلاء شأن العلم والموضوعية على الأهواء والتحيزات المسبقة، ومع القرن التاسع عشر، تبنى عدد من المفكرين العرب قيم ومفاهيم التنوير كما ظهرت في أوروبا، وكان في مقدمة هؤلاء رفاعة الطهطاوي وقاسم أمين ولطفي السيد وفرح انطون وشبيلي وطه حسين وسلامة موسى وحسين فوزي ولويس عوض وزكى نجيب محمود وفؤاد زكريا.

وفي الحقب الأخيرة، وإزاء تصاعد التيارات الدينية والسياسية والفلسفية الذي اعتبر تهديداً لقيم التسامح والعلم والموضوعية، تصاعد التيار التنويري، وأصبح شعار "التنوير" من علامات الحياة الفكرية والثقافية ، وهو ما انعكس في كتابات ودعوات

عدد من المثقفين والمفكرين، بل ومعاركهم الفكرية، من هذه الكتابات نختار ثلاثة كتب لثلاثة من المفكرين المصريين هم : مراد وهبة، الذي يقدم الإجابة الفلسفية والتاريخية لمفهوم التنوير ورواده، وجابر عصفور، الذي يقدم دفاعاً مجيداً عن التنوير، وجلال أمين، الذي يشكك ويناقش عدداً من المفاهيم السائدة عن التنوير ومسلماته.

الكتاب: مدخل إلى التنوير

المؤلف: د. مراد وهبه

الناشر: دار العالم الثالث- مصر

دار النهج الجديد- الكويت ١٩٩٤

منذ البداية يقرر الدكتور مراد وهبة أن مهمة التنوير الأساسية لم تكن معرفة طبيعة الإنسان، وإنما تغيير المجتمع من أجل تغيير سلوك الإنسان، على أسس عقلانية ومادية، ونبدأ في عرض تفصيلي لنخبة من الفلاسفة ورواد التنوير ومن أبرزهم : مونتيسكيو- (١٦٨٩-١٧٥٥) الذي نشر رسائل فارسية عبارة عن نقد المجتمع الفرنسي في أخلاقه وعاداته وديانته في تحكم تارة، وفي جدة تارة أخرى، ثم نشر كتاب" اعتبارات في أسباب عظمة الرومان وانحطاطهم" (١٧٣٤) يستبعد فيه الرؤية اللاهوتية للتاريخ، التي تبناها بوسوية في كتابه " مقال في التاريخ العام" فيه أن التاريخ الإنساني، الذي يقرر، محكوم بالعناية الإلهية وخاضع للحظة إلهية، وفي عام ١٧٤٣ انتهي من تأليف كتاب " روح القوانين " فولتير (١٦٩٤-١٧٧٨) وهو في رأي قراء العصر ممثل لامع للتنوير، فقد كانت غايته المنشودة تنوير مواطنيه بمنجزات الفلسفة والعلم والأدب، ولفت نظرهم إلى الثقافة الأوروبية، وحثهم على نقد القيم الفلسفية والاجتماعية السائدة، وفي عام ١٧٣٤ أصدر كتاب" رسائل فلسفية" يعرض فيه الثقافة الإنجليزية، إذ كان قد أقام بانجلترا ثلاث سنوات (١٧٢٦-١٧٢٩) تأثر فيها بالليبرالية

والتسامح إزاء المعتقدات الدينية، هذا الكتاب لفت نظر الشعب الفرنسي إلى ضـــرورة تغيير أسلوب حياتهم، لما ينطوي عليه من تعصب وتزمت، روسير (١٧١٢-١٧٧٨) الذي ذهب إلى وضع أسس مدنية للمجتمع بدلا من الأسس الدينية التي كان يروج لهـــا فلاسفة العصر الوسيط، وفي مقدمتهم القديس توما الأكويني الذي كان يقـــرر أن كـــل سلطان فهو آت من الله، وعلى الضد من ذلك، روس في كتاب " العقـــد الاجتمـــاعي " (١٧٦٢) وديدرو (١٧١٣-١٧٨٤) الذي نشر أول أعماله الفلسفية عام ١٧٤٦ بعنوان " خواطر فلسفية" أعرب فيها عن أراء مخالف للدين، وعن رفض الميتافيزيقا التقليدية، والأخذ بعقلانية المنهج العلمي، والفكرة المحورية في" الانـــسيكلوبيديا" نقـــد الأفكـــار التقليدية، والبحث عن الحقيقة بأسلوب يتنافي مع العقائد الدينيـــة والـــسياسية الـــسائدة، ومعارضة تعاليم الكنيسة والدولة، والدعوة إلى التسامح، دى لامترى (١٧٠٩-١٧٥١) وهلفسيوس (١٧١٥-١٧٧١) ودوليـــاك (١٧٢٣-١٧٨٩) وكوندورســـيه (١٧٤٣-١٧٩٤) الذي جاء كتابه " صورة تاريخية عن العقل الإنـــساني " تعبيـــراً عـــن روح التنوير يوجزها في ثلاثة ألفاظ : العقل والتسامح والإنسانية، ثـــم فيلـــسوف التنـــوير الرئيسي فيلسوف ألمانيا العظيم وقمة عصر التنوير كانط (١٧٢٤-١٨٠٤) ويعـــرف كانط التنوير على النحو التالي: "أعمل فقط حسب الحكم الذي تستطيع أن تريـــده فـــي نفس الوقت قانونا كلياً " وكان هذا المبدأ الخلقي هو شعار عصر التنوير، وقد حـــاول كانط التعبير عن روح هذا العصر، فسر مقالاً في عام ١٧٨٤ بعنوان " جـــواب عـــن سؤال : ما التنوير ؟" نترجم جزءاً منه لأهميته التاريخية : " التنوير هجرة الإنسان من اللارشد، والإنسان علة هذه الهجرة، واللارشد هو عجز الإنسان عن الإفادة من عقلـــه من غير معونة من الآخرين كما أن اللارشد سببه الإنسان ذاته، عندما لا تكون علتـــه مردودة إلى نقص في العلم، وإنما نقص في العزيمة والجرأة على إعمال العقـــل مـــن غير معونة من الآخرين، كن جريئاً في إعمال عقلك، هذا هو شعار التنوير، فالكـــسل

والجبن هما السببان في إلقاء معظم البشر في حالة اللارشد طوال حياتهم، مع أن الطبيعة قد حررتهم من الاعتماد على الآخرين، بل هما السببان في تسهيل الأمر للآخرين، إنه يطلب لنا أن يكون الكتاب بديلاً عن عقلي، والكاهن بديلاً عن وعيي، والطبيب مرشداً لما ينبغي تناوله من طعام، وليس ثمة مبرر للتفكير إذا كان في مقدوري شراؤه، فالآخر كفيل بتوفير جهدي، إن الغالبية العظمى من البشر تدرك أن الطريق إلى الرشد ليس فقط وعراً، بل محفوفاً بالمخاطر، ولكن ما القيد الذي يعرقل التنوير؟ بل ما الذي لا يفيد التنوير؟ جوابي على النحو التالي: حرية الاستخدام العام للعقل، وهذه الحرية هي التي تنير البشر".

ويعرج الدكتور مراد وهبة على فيلسوف عربي إسلامي ساهم في مقدمات عصر التنوير وهو ابن رشد، وحيث يمكن القول إن مفارقة ابن رشد تكمن في أن رأي ابن رشد كان ممهداً للتنوير في أوربا، في حين أنه كان موضع اضطهاد من أمته، وتأسيساً على ذلك يمكن القول بأن فلسفة ابن رشد قد أفرزت تياراً رشدياً في أوروبا أسهم في الإصلاح الديني وفي التنوير، وحول ما الذي حدث لابن رشد في العالم الإسلامي؟، لقد اضطهد ابن رشد في زمانه، وأُحرقت مؤلفاته، ونُفي، إن فلسفة ابن رشد هي من جذور التنوير في أوروبا، فإن فلسفة الغزالي ضد التنوير، وإذا كان ابن رشد مازال غالباً في كل من المشرق العربي والمغرب العربي فمعنى ذلك أن التنوير غالب.

ويناقش الكتاب العلاقة بين رفاعة الطهطاوي والتنوير وما هي الأفكار المحورية التي تأثر بها، وهما فكرتان: النقد الاجتماعي ،والدين الطبيعي، ظهرتا في تعليقاته على مواد الدستور الفرنسي، وهذه التعليقات تشعر القارئ أن رفاعة لم يفهم النقد الاجتماعي، إلا أنه يقوم بالأخذ بالمدنية فيما لا يتعارض مع الشريعة، وعلى حرية العقيدة، وعلى القيم الخلقية، بينما أن النقد الاجتماعي لا يعنى في أساسه سوى الأخذ بالأسباب العقلية في كل ما له علاقة بالمدنية.

بين هنتجتون وفوكاياما

يرتبط اسم المؤرخ، وعالم السياسة الأمريكي، صامويل هنتجتون، والمفكر الأمريكي، الياباني الأصل، فرانسيس فوكوياما بنظريتين، أثارتا عندما ظهرتا، أوائل التسعينات- ومازلتا تثيران، جدلاً ونقاشاً واسعاً، داخل الولايات المتحدة وخارجها، كانت النظرية الأولى هي نظرية صدام الحضارات clash of civilizations التي اعتبر فيها صمويل هنتجتون أنه بانتهاء صراع الأيدلوجيات، فإن الصراع المقبل سيكون صراعاً بين الحضارات، وعلى أسس وخلفيات ثقافية ودينية، وأن العالم سوف يتشكل بدرجة كبيرة، نتيجة للتفاعل بين سبعة أو ثمانية حضارات كبرى، وأن أكثر الصراعات أهمية للمستقبل، سوف تحدث على الخطوط الفاصلة Fault lines التي تفصل هذه الحضارات عن بعضها بعضاً.

أما النظرية الثانية فهي نظرية فوكوياما " نهاية التاريخ" التي اعتبر فيها أنه لم تكن الحرب الباردة فحسب هي التي انتهت، وإنما التاريخ نفسه هو الذي بلغ نقطة نهايته في التطور الأيدلوجي للبشرية، فالانهيار السوفيتي وأيدلوجيته إنما

سجل نصراً دائما لليبرالية الاقتصادية والسياسة، وهو ليس نصراً مؤقتاً بل نـصراً كاملاً يستبعد أي نظام بديل صالح للبقاء.

وقد كان الملاحظ ظهور النظريتين في وقت واحد تقريبا، يتوافق مع انهيار الاتحاد السوفيتي ونهاية الحرب الباردة، وظهور الولايات المتحدة والغـرب مـن صراعها مع الاتحاد السوفيتي، ومن ثم كان التصور أن النظريتين تقدمان مشروعاً فكرياً لكيف تتعامل الولايات المتحدة والغرب مع العالم وحضارته ونظمه ومناطقه، ولذلك لم يكن من المتصور أن يتعرض كل منهما بالنقد والتفنيد لنظرية الآخر، وقد فعل هنتجتون ذلك مبكراً ومنذ ظهور نظرية نهاية التاريخ ،وكان من بين أوائل من انتقدوها، وقد سجل هنتجتون عدداً من الملاحظات على نظرية" نهايـة التـاريخ" وكانت أول ملاحظاته أن تراجع مجموعة من المثل والأفكار لا يعنـى اختفاءهـا نهائياً ، فقد تعود إلى الظهور بقوة متجددة بعد جيل أو جيلين، أما الملاحظة الثانية فقد انصبت على أن انتصار عقيدة ما لا يعنى انتفاء أو عدم توقع ظهور خلافـات داخل صفوفها، فتاريخ الأيدلوجية هو تاريخ الفرق والانشقاقات الأيدلوجية.

أما الملاحظة الثالثة فهي أن انتصار أيديولوجية ما لا يعنى تجمد التطـور الأيدلوجي، وعدم ظهور أيدلوجيات جديدة، وسوف تتعرض أهداف البشرية، فـي الرفاهية والسعادة، لتحديات مستمرة، تدفع المجتمعـات إلـى أن تطـور مفـاهيم ومذاهب جديدة، لمواجهة هذه التحديات، كذلك اعتبر هنتجتون أن نظرية فوكوياما تعانى من وهم خطير وهو تصورها لإمكانية التنبؤ بالتاريخ ومـسيرته ، ذلـك أن سجل التنبؤات هو سجل غير مشجع، ثم من الذي كان يـستطيع أن يتنبـأ بعمـق وشمول التحولات التي حدثت في العالم الاشتراكي؟! أما الوهم الآخر الذي تعـانى منه نظرية نهاية التاريخ فهو أنه يميل إلى تجاهل ضـعف ولاعقلانيـة الطبيعـة البشرية، وهي التي يفترض أن البشرية سوف تتصرف دائما على أساس عقلاني،

فما دامت ترى أنه من الحكمة التركيز على رفاهيتها الاقتصادية فلن تتـورط فـي حروب غير مجدية، أو في صراعات أيدلوجية جوفاء، إلا أن حقيقة الأمر أن البشر يتصرفون أحيانا بشكل عاقل وكريم وخلاق، وإن كانوا في أحيان أخرى يتصرفون بشكل أحمق.

أما ملاحظات فوكوياما على نظرية "صدام الحضارات" فقد جاءت أخيـراً في مؤتمر للمنتدى الاقتصادي الدولي عقد مؤخراً في سان بطرسبرج، وشارك فيه الرئيس الروسي فلاديمير بوتين، ورئيس كازاخستان نازارييف، ورغم أن موضوع الجلسة كان هو competitive Eurasia Space of trust إلا أن فوكوياما بـدأ حديثه بالتعرض لصموئيل هنتجتون ونظريته في صدام الحضارات، وقال فوكوياما إنه رغم هنتجتون كان أستاذه إلا أنه يختلف معه فـي بعـض الوجـوه الهامـة، فهنتجتون يجادل بأنه بعد الحرب الباردة فإن السياسة الدولية سوف يسيطر عليهـا الآن الأيديولوجي المتنافسة، والصراعات بين الحضارات والثقافات، وهو يعتقد أن قوة الثقافة تفوقت على قوى الاندماج في العولمة، وأن ولاءات الناس سوف تكون في النهاية لجماعاتها، وقائمة على روابط الدين والعرق والتاريخ المشترك، ووفقـاً لهنتجتون فإن قيم التنوير الغربي مثل الديمقراطية والحقوق الفردية هـي ببـساطة انعكاس لقيم المسيحية الغربية، ولكن الثقافات الأخرى ذات القيم الأخـرى سـوف تخلق أشكالا أخرى من المؤسسات، ويعيب فوكوياما بأن الكثيـرين جـادلوا بـأن فرضية صدام الحضارات قد تأكدت بالأحداث الأخيرة، فقد حدث ارتفاع عـريض في الديانة والهوية الدينية، وخاصة في العالم الإسلامي والراديكاليـة الإسـلامية، ولكن الإحياء الديني الذي كان واضحاً أيضا في جنوب آسيا، وأمريكـا اللاتينيـة والولايات المتحدة وروسيا.

وعند التفكير حول التكامل الإقليمي، وهو موضوع المؤتمر الذي تحدث فيه، فإنه يتساءل: هل نضع حدود التعاون وفقاً لعوامل ثقافية، أم هل نتبع ما تمليه العقلانية الاقتصادية؟

ويعلق فوكوياما أنه يتفق ولا يتفق مع صمويل هنتجتون ونظريته في صدام الحضارات، فهو يوافق أن العوامل الثقافية قد أصبحت المنظار الذي يرى من خلاله العديد من الناس اليوم الشئون الدولية، ولكن من ناحية أخرى فهو يعتقد أن وجهة النظر هذه تسيء تقدير قوى التكامل Integrating forces التي توجه التنمية الدولية، والطريقة التي تفرض بها عملية التحديث تلاقياً للمؤسسات وأساليب الحكم ، ويوافق فوكوياما أن البلدان عليها أن تجد طريقها الخاص نحو الحداثة، فالطرق المحددة لأوروبا والولايات المتحدة واليابان وروسيا وبلدان أخرى جميعها مختلفة، ففي نهاية الأمر فإن التحديث والتنمية تتحقق بالناس التي تعيش في مجتمع ما، وليس بواسطة الآخرين، فالشعوب قد تتعلم من بعضها بعضاً، ولكن قدرتها على صياغة النتائج في أراضٍ أجنبيه عادة ما تكون محدودة جداً، وهذا شيء قد تعلمته الولايات المتحدة بشكل مؤلم في السنوات الأربع الماضية في العراق.

ويعتبر فوكوياما أن السؤال الذي نحتاج مناقشته هو: ما إذا كنا نسلك طرقاً مختلفة نحو نفس الهدف؟ هدف حضارة حديثة واحدة أو ما إذا كنا نتجه نحو وجهات مختلفة بشكل جوهري؟ ويستخلص فوكوياما ما إنه ، على عكس ما يقول به هنتجتون، إن عملية التحديث في المدى الطويل تتطلب تلاقياً في العديد من أشكال المؤسسات بغض النظر عن نقطة بدايتنا الثقافية.

"وفي إطار سعيي عن نظرية بديلة في العلم الاجتماعي، تضيء الجوانب المظلمة للواقع العالمي المعقد، وضعت يدي على ثلاثة مفاهيم رئيسية، تلتحم في إطار نظري واحد، وهي العولمة، والعلاقات المتعددة الأطراف، والقومي، وقد

أحسست مبكراً بأن العولمة هي أهم هذه المفاهيم قاطبة، لأنها تشير إلى عملية تاريخية معقدة، تعد نتاجاً للتطورات البالغة الأهمية التي حدثت في المجتمع العالمي في العقود الأخيرة، بالإضافة إلى كونها نتاج الثورة العلمية والتكنولوجية والاتصالية، وهي في نفس الوقت تعبير بليغ عن الرأسمالية في مرحلة تطورها الراهنة.

في غمار قراءاتي اكتشفت الكونية من ناحية، وحركة ما بعد الحداثة من ناحية أخرى، تبين لي أن الكونية عملية تاريخية بدأت منذ قرون، ربما من القرن السابع عشر، حين بدأ يشكل النظام العالمي بمصطلحات فالرشتين، غير أن محصلتها النهائية لم تتجلَّ إلا منذ عقود قليلة، ربما بسبب تعمق آثار الثورة العلمية والتكنولوجية، وخصوصاً نمو واتساع الثورة الاتصالية، بالإضافة إلى توافر الشروط الموضوعية لوحدة الأسواق العالمية وترابطها العضوي، مرافقة في ذلك ظاهرة التكتلات الإقليمية.

الصراع الذي يدور اليوم ليس حول الكونية كعملية تاريخية، فهي بهذا الوصف غير قابلة للرجوع إلى الوراء ، ولكن عن القيم التي ينبغي أن تحكمها ، وهل هي القيم القديمة التي تحاول إعادة إنتاج نظام الهيمنة الدولي القديم، أم ينبغي أن تكون قيماً إنسانية مشتركة، مستقاة من كافة الحضارات المعاصرة، ومن بينها الحضارة الإسلامية، ومن هنا تتلاقى الكوزموبوليتانية مع الكونية، من خلال تأثير القيم الإنسانية المشتركة على صياغة نسق القيم الذي سيحكم الكونية.

هل هناك شك في أن العولمة أصبحت، كظاهرة، تملأ الدنيا وتشغل الناس؟ ومع ذلك، فالاقترابات المختلفة من هذا النوع الهام، سادتها مختلف أنواع التجهيزات الفكرية، ذلك أننا نجلبه في الواقع، يسيطر عليهما الانحياز المسبق، التيار الأول يتحيز للعولمة ويعتبرها قدراً حتمياً لا مفر من قبوله بغير تحفظ، بناء

على زعم، مبناه أن العولمة هي تطو رمن أجل صالح الإنسانية جمعـــاء، والتيـــار الثاني ،على عكس الأول ، يرفضها على الإطلاق، على أساس أنها ليـــست، فـــي حقيقتها، سوى إعادة إنتاج لنظام الهيمنة الرأسمالي القديم، أو هو في عبارة ساخرة تحقيق الأهداف الخالدة للرأسمالية، والتي تتركز في الاســـتغلال، وتحقـــق أعلـــى معدلات الربح ،ولو على حساب الفقراء وشعوب العالم الثالـــث، وإن كـــان ذلـــك بوسائل أخرى ، وإلى جانب ذلك ستجد تياراً ثالثاً من الكتابات الوصفية التي تقنـــع بوصف الظاهرة، سواء في جانبها الاقتصادي أو الـــسياسي أو الثقـــافي، وبـــدون إصدار أحكام قيمية عليها.

ويمكن القول، بشكل عام، إن الصراع يدور أساساً بين أنـــصار العولمـــة، الذين يصفون العالم بأنه سائر حتما في طريقها، وبين هؤلاء الذين يرفضون هـــذه الحتمية، ويقررون أن طابع النظام الدولي، الذي يتكون من الـــدول، والتـــي هـــي الوحدات الأساسية له، سيبقى ولن يتغير كثيراً.

نظرة نقدية لتعريفات العولمة :

حقبة تاريخية، يتربع هذا التعريف للعولمة إلى اعتبارها حقبة محددة مـــن التاريخ أكثر منها ظاهرة اجتماعية أو إطاراً نظرياً .

مجموعة ظواهر اقتصادية، على عكس التعريف الـــسابق، الـــذي ينظـــر للعولمة من منظور تاريخي، فإن هذا التعريف يركز على الدولة وظيفياً، باعتبارها سلسلة مترابطة من الظواهر الاقتصادية.

هيمنة للقيم الأمريكية، لعل خير ما يعبر عن اتجاه هذا التعريـــف كتـــاب المفكر الأمريكي الياباني الأصل فوكوياما "نهاية التاريخ" والذي اعتبر فيه ســـقوط

الاتحاد السوفيتي وانهيار الكتلة الاشتراكية انتصاراً حاسماً للرأسمالية على الشيوعية.

ثورة تكنولوجية واجتماعية، النظر للعولمة باعتبارها ثورة تكنولوجية واجتماعية يعارض بوضوح التعريف الثاني، الذي لا يرى في العولمة سوى مجموعة متشابكة من الأنشطة الاقتصادية، وعلى العكس من ذلك يرى هذا التعريف أن العولمة هي شكل جديد من أشكال النشاط، تم فيها الانتقال بشكل حاسم من الرأسمالية الصناعية إلى مفهوم ما بعد المجتمع الصناعي للعلاقات الصناعية.

هل يمكن إصدار حكم قاطع فيما يتعلق بقبول أو رفض العولمة؟ إن إصدار حكم نهائي على العولمة ينص على رفضها رفضاً مطلقاً، يكشف عن تعجل في إطار الأحكام بغير تأمل في منطق التطور التاريخي، وإذا كان صحيحاً أن العولمة الراهنة تكشف عن ذروة من ذرا تطور النظام الرأسمالي العالمي، فإن التاريخ سيتجاوز هذه اللحظة، وسيكشف، في المستقبل المنظور أن العولمة، بغض النظر عن الرأسمالية ، ستتجاوز شروط نشأتها، لتصبح عملية عالمية واسعة المدى، ستنقل الإنسانية كلها،على اختلاف ثراء وفقر الأمم، إلى آفاق عليا من التطور الفكري والعلمي والتكنولوجي والسياسي والاجتماعي.

ما هي تاثيرات العولمة على الوطن العربي ؟

بالنسبة للتجليات الاقتصادية للعولمة، تتضح معالمها في تزايد الاعتماد المتبادل بين اقتصاديات الدول، على مستوى العالم، وفتح الحدود أمام التجارة، بلا قيود، إلا أن أبرز رمز معاصر للعولمة الاقتصادية يظل إنشاء وتأسيس منظمة التجارة العالمية، أما بالنسبة للتجليات السياسية، العولمة،فإنه يمكن القول إنها تتركز

في رفع شعارات الديمقراطية، أو التعددية الفكرية والسياسية واحترام حقوق الإنسان.

وأخيراً فإن القضية المطروحة في إطار تحليل التجليات الثقافية للعولمة، هي الدعوة لبناء ثقافة كونية تتضمن نسقاً متكاملاً من القيم والمعايير، لفرضها على كافة الشعوب بما قد يؤثر على الخصوصية الثقافية للشعب العربي.

نحن نعيش في عصر العولمة السياسية والاقتصادية والثقافية، والعولمة مرحلة حاسمة، مختلفة نوعياً ، من مراحل تطور النظام العالمي، وتظهر تجلياتها الأساسية في عولمة الإنتاج والتبادل والاستهلاك والاعتماد المتبادل بين أقطار العالم وثورة الاتصال الكونية، التي ستؤدى لأول مرة في تاريخ البشرية إلى عولمة الخيال ، والعولمة تدعو في الواقع كافة المتخصصين في العلوم الاجتماعية، لكي يصطنعوا أساليب جديدة لوصف الحاضر، ولكي يصوغوا خطابات مستحدثة، قادرة على الإمساك بحيوية اللحظة التاريخية التي نعيش فيها، والتي تسيطر فيها ثقافة الصورة وتكاد تطغى على ثقافة الكلمة المكتوبة.

وتؤكد بعض الدراسات الرصينة التي تأملت بعمق المشهد الثقافي العالمي الراهن، أن الخيال سيلعب في الوقت الحاضر دوراً جديداً غير مسبوق، ذلك أن الخيال أصبح مسألة مركزية لكل فاعل اجتماعي، أياً كان موضوعه من النسق الاجتماعي، بل إنه، كما يقرر الباحث، أصبح هو المفتاح الأساسي في النظام الكوني الجديد.

غير أنه لا يمكن لنا أن نفهم الدور الذي يلعبه الخيال في الوقت الراهن، بغير أن نضعه في أطر ثلاثية متماسكة، هي الميديا والهجرة والخيال، إن الصورة التي يرسمها هؤلاء الباحثون هي صورة عالم مفكك ، تسوده الفوضى، ويغيب عنه النظام، وهي صورة مخالفة تماما للسيناريو الكوني الذي يتحدث عن سيادة الكونية

السياسية والاقتصادية بل والثقافية، وفي صورة ثقافة عالمية لها معاييرها وقيمها الملزمة لكل شعوب الأرض.

ونأتي أخيراً للعولمة الثقافية، والتي تسعى من خلال خلق ثقافة عالمية، عن طريق توحيد الآراء في المسائل العالمية، وفرض أذواق واحدة، وعن طريق سوق استهلاكية عالمية، ليس لها سابقة، تغير من العادات المحلية أو تنزع بالناس إلى العالمية في الفكر والسلوك، وفي هذا المجال بالذات تثار مخاوف شتى عن تهديد هذه الثقافة العالمية للخصوصيات الثقافية، ومن بينها الخصوصية الثقافية العربية، ومن هنا تأتى أهمية تأكيد الثقة بالذات في مجال التفاعل مع التجليات المختلفة للعولمة.

ومن ناحية أخرى إذا رصدنا المظاهر السلبية الراهنة في مجال الثقافة العربية الراهنة، يمكن أن نقول إن الأمية المنتشرة في الوطن العربي ستكون عائقاً حقيقاً يمنع الأمة العربية من المشاركة والإبداع في عصر العولمة القادم.

غير أن أخطر الظواهر السلبية هو بروز تيارات سلبية وثقافية، تدعو إلى أن تكون المرجعية لنا في الفكر والسلوك هي الماضي، ويعنى ذلك ابتعاداً تدريجياً عن آفاق المستقبل، هنا تكمن العلة الحقيقية، والتي تحتاج إلى جهود رائدة وبوسائل ديمقراطية، للتخلص منها، استعداداً للمعارك الكبرى التي ستسود القرن الحادي والعشرين، والتي لن تحسمها القوة العسكرية، كما نأمل، وإنما حوار حقيقي وحر وفعال بين الحضارات.

هل يعجب العالم حقاً بالقيم والثقافة الأمريكية ؟

بفعل تركيز إدارة بوش الابن على القوة العسكرية واستخدامها المفرط في حربين : أفغانستان والعراق ، بلور عالم السياسة الأمريكي جوزيف نـاي عـام ٢٠٠٤ مفهوم حول " القوة الناعمة " The soft power وأرادها في مقابل القوة الصلدة Hard power فإن الولايات المتحدة بحكم قيمها التي تشكل قوتها الناعمـة تعودت "أن تكون قادرة على الحصول على ما تريده في العالم "من خـلال القـيم المشتركة والثقافة التي تنعكس في التليفزيون والسينما والموسيقى، وبسبب جاذبيـة سياستها الداخلية، عناصر القوة الناعمة هذه، فيما يقول جوزيـف نـاي، تجعـل الشعوب الأخرى حول العالم تبغي أن تتبع الولايات المتحدة" وتعجب بقيمها" وتقلد نموذجها وتتطلع إلى مستوى الرخاء والانفتاح فيها " غير أن مفهوم جوزيف نـاي في " القوة الناعمة " لم يسلم من النقد والتفنيد، ففي كتابه الأخيـر The world America made اعتبر عالم السياسة الأمريكـي روبـرت كاجـان Robert Kagan أن الحقيقة التاريخية أكثرا تعقيداً، فخلال العقود الثلاثة بعد الحرب الثانية،

فإن أجزاء كبيرة من العالم لم تعجب بالولايات المتحدة، ولم تشأ تقليدها، ولم يكونوا بوجه خاص راضين عن إدارة شئونها الخارجية، حقيقة أن وسائل الإعلام الأمريكية كانت تنشر الثقافة الأمريكية، ولكنها كانت تنشر صوراً لم تكن دائما جاذبة، ففي الخمسينات كان العالم يشاهد الصور التليفزيونية عن جوزيف مكارثي وهو يصطاد الشيوعيين في وزارة الخارجية وهوليود، وكانت السينما الأمريكية تصف الرأسمالية الخانقة، وكانت الروايات الأكثر مبيعا مثل " الأمريكي الكئيب" ترسم صورة الأمريكي Bulging and boorishness المتنمر والفظ.

كما كانت المعارك تجرى حول التفرقة العنصرية في الخمسينات والستينات، والصور التي كانت تنقل عالمياً حول البيض، وهم يبصقون على تلاميذ مدارس السود، وإطلاق الكلاب على مظاهرتهم ، وهكذا كانت العنصرية الأمريكية تدمر صورة أمريكا في العالم، وفي نهاية الستينات والسبعينات جاء اغتيال مارتن لوثر كينج، وجون كيندى، ثم فضيحة ووتر جيت، التي هزت العالم، كذلك لم يجد معظم العالم السياسة الخارجية الأمريكية جذابة ،خلال هذه السنوات، وتطلع أيزنهاور إلى أن يجعل دول العالم الثالث " تحبنا أكثر مما تكرهنا"، إلا أن العمليات التي نفذتها وكالة المخابرات الأمريكية في الإطاحة برئيس الوزراء الإيراني محمد مصدق في جواتيمالا لم تساعد على ذلك، وفي عام ١٩٥٧ صاحت المظاهرات في وجه نائب الرئيس نيكسون " ارحل من هنا" " لن ننسى جواتيمالا " وفي عام ١٩٦٠

أهان جربتشوف ايزنهاور عندما ألغى مؤتمر قمة، عندما أسقطت طائرة تجس أمريكية فوق الاتحاد السوفيتي، وفي نهاية هذا العام، وفي رحلة " النوايا الطيبة " إلى طوكيو كان على ايزنهاور أن يعود وهو في منتصف الرحلة، لأن الحكومة اليابانية حذرته أنها لا تستطيع أن تضمن سلامته في وجه الطلاب المتظاهرين ضد " الإمبريالية" الأمريكية، ولم يكن خلفاء ايزنهاور الديمقراطيون

أوفر حظا، فلفترة طويلة كان جون كيندى وزوجته محبوبين، ولكن هذا تلاشى بعد اغتياله، وأُدين غزو ليندون جونسون لجمهورية الدومينكان عـام ١٩٦٥ بـشكل واسع، ليس فقط في أمريكا اللاتينية، ولكن أيضاً في الولايات المتحدة، ثم جـاءت فيتنام بكل دمارها وفي مشاهد النابالم، ومذبحة مأي لأي والتوغـل الـسري فـي كمبوديا، وضرب هانوى الذي أثار التصور العام عن قوة إمبريالية أعظم تضرب بلداً صغيراً ولكن متحدياً من العالم الثالث ، وعندما زار نائب الرئيس هيوبـورت همفرى برلين الغربية عام ١٩٦٧ هوجم المركز الثقافي الأمريكي، واحـتج آلاف الطلاب، وانتشرت الشائعات عن محاولات احتجاج، وفي عام ١٩٦٨ عندما نـزل ملايين الشباب الأوروبي إلى الشارع، لم يكونوا يعبرون عـن إعجـابهم بالثقافـة الأمريكية، وكما عبر أحد الرسميين في إدارة جونسون: " إن ما نفعله فـي فيتنـام وأماكن أخرى يمثل عبئاً ثقيلاً علينا أن نتحمله في العالم الأفروآسيوي وفي أوروبا " ،خلال هذا كان قادة حركة عدم الانحياز : نهرو و ناصر و تيتو ، وسـوكارنو ونكروما يعبرون عن الاحترام للسياسات الأمريكية عن حق أو غير حـق، فـإن بعضهم كانوا يحملون الاستياء العميق ضد السياسات الاستغلالية وعنصرية الغرب ،"وتحول هذا من السادة الاستعماريين القدامى إلى الولايـات المتحـدة، عنـدما أصبحت قوة عظمى، ومن الستينات حتى نهاية الحرب الباردة أصبحت الجمعيـة العامة للأمم المتحدة منبراً للتعبير الدائم عن المعادة للولايات المتحدة.

وفي التسعينات راوغت الشعبية الولايات المتحدة، مما جعل عالم الـسياسة الأمريكي صامويل هنتجتون يصف أمريكا " بالقوة الوحيدة" The lonely super power ، مكروهة بشكل واسع عبر العالم، بسبب " سلوكها، المتطفل،و التدخل ، الاستغلالي ، الأحادي ، المهيمن ، والمنافق " وهاجم وزير الخارجية الفرنـسي " القوة المفرطة " The hyper power وتطلع إلى عالم متعدد الأقطاب، لا تهـيمن

فيه الولايات المتحدة، هذا التحليل لمدة تأثير " القوة الناعمة " هو الذي قاد كاجان لأن يستخلص أن القوة الناعمة موجودة، ولكن من الصعب قياس نفوذها، كما أنه من السهل المبالغة فيها، فالشعوب والأمم قد تستمتع بموسيقى البوب الأمريكية والأفلام الأمريكية ولكنها تظل أمريكا ، فالشعوب قد تجد شخصاً جذاباً، عندما يفعل شيئاً في صالحهم إلا أنهم لا يحبونه عندما يقف في طريقهم.

ومؤخراً ، وفي كتابه : strategic Vision Ameriea and the crisis of global power (٢٠١٢)

يتدخل المفكر الاستراتيجي وعالم السياسة الأمريكي زيجنو برجنسكى في هذا النقاش ويطرح سؤالاً جوهريا بالنسبة لصورة ومستقبل أمريكا، وكيف ينظر إليها في العالم: هل مازال النظام الأمريكي جديراً بالتقليد على المستوى العالمي؟ وهل الجماهير السياسية المستيقظة ترى أمريكا أملاً لمستقبلهم ، وهل ينظرون إلى أمريكا كنفوذ إيجابي في الشئون العالمية ؟ وباعتبار أن قدرة أمريكا للتأثير على الأحداث الدولية بشكل بناء يعتمد على كيف يرى العالم نظامها الاجتماعي ودورها العالمي، فإنه يتبع هذا إن وضع أمريكا في العالم سوف ينحدر حتماً إذا نزعت الوقائع السلبية الداخلية، والمبادرات الدولية المكروهة الشرعية عن دور أمريكا التاريخي، ولذلك فإن الولايات المتحدة ، مع كل قوتها العامة الفريدة، يجب أن تتغلب على تحدياتها الداخلية الصاعقة المنجرفة، وتعيد توجيه سياستها الخارجية، من أجل أن تعيد امتلاك إعجاب العالم وأن تحيى تفوقها المنتظم.

في هذا السياق يسجل برجنسكى ما يسميه " الحلم الأمريكي المشترك" ويراه في أن أمريكا مازالت تجتذب البشر المدفوعين بشكل ليس فقط بين من يمتلكون تعليما أعلى أو هؤلاء الذين ينشدون هذا التعليم، ولكن أيضاً هؤلاء الأكثر تصميماً على كسر حلقة الفقر في مجتمعاتهم ، فما زال الكثير من العلماء الأجانب

والأطباء ورجال الأعمال يرون فرصاً مهنية مجزية في أمريكا عنها في بلادهم، ويتطلع زملاؤهم إلى الالتحاق بالمدارس الأمريكية، لأنهم يدركون أن درجة متقدمة من الولايات المتحدة تدعم فرص حياتهم المهنية في بلادهم وفي النجاح، والكثيرون، مما يقارب مليون طالب الذين يدرسون في أمريكا كل عام، يبقون بإغراء من الفرص الأمريكية، ولا زالت أمريكا الأكثر جاذبية لحياة أكثر تقدماً، وكانت في النهاية المستفيدة من أحلامهم الشخصية، وفي هذا فإن المفتاح لجاذبية أمريكا التاريخية كان في جمعها بين المثالية والمادية، وكلتاهما مصدر قوي للعقل الإنساني ، ويكرر برجنسكى أن على أمريكا أن تفهم أن قوتها في الخارج سوف تعتمد بشكل متزايد على قدرتها على مواجهة المشكلات في الداخل، فالقرارات القومية المتعمدة التي تنطلق من التحسينات النظامية المطلوبة، هي الآن الشرط الأول الضروري لأي تقييم معقول لمستقبل أمريكا العالمي، وهذا يتطلب تحديداً لمصادر ضعف وقوة أمريكا العالمية، وعلى هذا فإن تقييماً بعقل بارد هو نقطة الانطلاق للإصلاحات الضرورية، لكي تحافظ أمريكا على مركزها في القيادة العالمية، في الوقت الذي تحافظ فيه على القيم الأساسية لنظامها الداخلي.

المؤلف

السفير الدكتور/ السيد أمين شلبي

أولاً :- الشهادات العلمية

ليسانس الآداب من جامعة القاهرة عام ١٩٥٧

ماجستير في العلوم السياسية من جامعة القاهرة عام ١٩٦٠

دبلوم العلاقات الدولية من جامعة أكسفورد عام ١٩٧٦

دكتوراه في العلوم السياسية من جامعة القاهرة عام ١٩٨٠

ثانياً :- التاريخ المهني

التحق بالسلك الدبلوماسي المصري عام ١٩٦١

عمل من درجة ملحق إلى مستشار في السفارات المصرية في كل من براج وبلجراد وموسكو ولاجوس.

عمل وزيراً مفوضاً في سفارة مصر في واشنطن ١٩٨٢-١٩٨٦

عمل سفيراً لمصر في النرويج ١٩٩٠-١٩٩٤

حاصل على وسام الاستحقاق من النرويج

شارك في تأسيس معهد الدراسات الدبلوماسية بوزارة الخارجية المصرية عام ١٩٦٦ وعمل فيه حتى عام ١٩٧٠، ثم عمل نائباً لمدير المعهد في الفترة منذ ١٩٨٦-١٩٨٨.

عمل مديراً لإدارة التخطيط السياسي بوزارة الخارجية المصرية ١٩٩٤-١٩٩٦

ثالثا :- الإنتاج العلمي

في العلاقات الدولية

١- " التنظيم الدولي في مفترق الطرق " (الهيئة المصرية العامة للكتاب) ١٩٦٧

٢- " الوفاق الأمريكي- السوفيتي " (الهيئة المصرية العامة للكتاب) ١٩٨١

٣- " قراءة جديدة في الحرب الباردة" ، (دار المعارف) ١٩٨٣

٤- " الدبلوماسية المعاصرة" (عالم الكتب) ، ط ١٩٨٩/١ ط ١٩٩٦/٢

٥- " من الحرب الباردة إلى البحث عن نظام دولي جديد " (الهيئة العامة للكتاب) ، ١٩٩٦، الطبعة الثانية ٢٠٠٥

٦- " العلاقات المصرية الأمريكية ١٩٤٦-١٩٥٦" (مترجم)(مكتبة مدبولى) ١٩٩٦

٧- " ما بعد الحرب الباردة : قضايا وإشكاليات " (مركز الدراسات الإستراتيجية – الأهرام) ١٩٧٠.

٨- " الصين وروسيا: من الخصومة إلى المشاركة الإستراتيجية " (مركز الدراسات الآسيوية- كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة) ١٩٩٨

٩- "حوارات المستقبل " (هيئة قصور الثقافة) ١٩٩٨

١٠- التسعينيات ، (عالم الكتب) ٢٠٠١

١١- أمريكا والعالم : متابعة في السياسة الخارجية الأمريكية ٢٠٠٠-٢٠٠٥ ، (عالم الكتب) ٢٠٠٥

١٢- نظرات في العلاقات الدولية، (عالم الكتب) ٢٠٠٧

١٣- رؤى عالمية، (الهيئة العامة للكتاب)، ٢٠١٠

١٤- باراك أوباما من الأمل إلى الواقع ، (عالم الكتب) ٢٠١١

سيرة ذاتية :-

بين موسكو وواشنطن، (دار الهلال) ٢٠٠٥

شخصيات :-

" هنري كيسنجر ، حياته وفكره " (الهيئة المصرية العامة للكتاب)١٩٧٦

" جورج كينان : الدبلوماسي المؤرخ " (الهيئة العامة للكتاب) ١٩٩٧

" داج هامر شولد : حياته وفكره " (الهيئة العامة للكتاب) ١٩٩٩

" نظرات في آرنولد توينبيى " (دار قباء) ٢٠٠٠

" العرب في كتابات المفكرين المصريين " (دار الهلال) ٢٠٠٠

" أدباء من الشمال"،(الهيئة العامة لقصور الثقافة) ، ٢٠٠٣

ثلاث شخصيات بين الثقافة والسياسة، (الهيئة العامة لقصور الثقافة) ٢٠٠٦

ساعات بين الكتب، (الهيئة العامة للكتاب) ٢٠٠٩

" في صحبة الكتب " (كتاب الهلال)، مايو ٢٠١٢

" مراجعات في السياسة والثقافة : (الهيئة العامة للكتاب) ، ٢٠١٣

مراجعة وتقديم:-

" مصر في عهد محمد على "، (مراجع)، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٤

الدبلوماسية الإيجابية، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٦

من نحن ؟ المجلس الأعلى للثقافة

رابعا :-


حاضر في كل من : معهد الدراسات الدبلوماسية، وأكاديمية ناصر، وكلية الاقتصاد والعلوم السياسية.

شارك في العديد من المؤتمرات في مصر والخارج.

عضو بالمجلس الأعلى للثقافة (لجنة العلوم السياسية ١٩٩٧-٢٠٠٧)

المدير التنفيذى للمجلس المصري للشئون الخارجية.

حاصل على جائزة الدولة للتفوق عام ٢٠٠٩


السعر: ستة جنيهات
الهيئة العامة لقصور الثقافة
www.gocp.gov.eg
Bibliotheca Alexandrina
1237539